

285



الثقافة الجديدة

المواد المنشورة تعبر عن آراء أصحابها

285

تشرين الثاني ـ كانون الأول ١٩٩٨

محتويات العدد

أدب وفن

- الغلاف الأول : ثناء الى كل النساء اللواتي عرفتهن
- الغلاف الأخير : هو وأبناؤه الأربعة

[للفنان علي عسّاف

أغلق تحرير العدد في أواخر تشرين الأول ١٩٩٨

حول الممارسة الديمقراطية في عراق الغد المنشود*

عبد الرزاق الصافي

لابد، ابتداءً، من إقرار حقيقة أن شعبنا ووطننا لم يشهدا ممارسة ديمقراطية حقيقية طيلة العقود الثمانية من عمر الدولة العراقية، ناهيك عما سبقها من عهود.

فقد كانت ممارسات المحتلين الانجليز وحكام العهد الملكي هي اللجوء الى العنف في مواجهة مطامح الشعب في تحقيق الاستقلال الوطني الحقيقي والتمتع بالحقوق الديمقراطية للشعب العراقي ككل، والحقوق القومية والإدارية والثقافية للشعب الكردي والانتماءات القومية الأخرى التي يتكون منها شعبنا العراقي، منذ ثورة العشرين، مروراً بالإضراب العام ضد شركة الكهرباء وقمع الآثوريين وتحركات العشائر في الثلاثينات، والاحتلال الثاني للعراق في أعقاب فشل حركة مايس ١٩٤١، وقمع الانتفاضات الكردية والمظاهرات الشعبية ضد معاهدة ١٩٣٠، ومجزرة كاور باغي عام ١٩٤٦، ووثبة كانون ١٩٤٨ وإعدام قادة الحزب الشيوعي العراقي عام ١٩٤٩، وانتفاضة ١٩٥٢ ومجازر السجون ١٩٥٣، وانتفاضة خريف ١٩٥٦ تضامناً مع الشقيقة مصر، وما رافقها من قمع وحشي وإعدامات.

ويكفي أن نذكر أن شعبنا عاش في ظل الأحكام العرفية أكثر من نصف عمر النظام الملكي. ولم تكن الحريات الديمقراطية مضمونة في الفترات التي خلت من الأحكام

* القيت المساهمة في ندوة نظمها «اتحاد الديمقراطيين العراقيين» بلندن في تشرين الاول ١٩٩٨، واستهلت بشكر الاتحاد لمبادرته ولتوجيه الدعوة.

العرفية. وشهدت السنوات منذ منتصف العام ١٩٥٤ حتى ثورة تموز إلغاء إجازات الأحزاب السياسية ومئات الصحف والنقابات والجمعيات والمنظمات المهنية، وحرمان الطلبة والشباب من حقهم في إقامة أي تنظيم. وصدر مرسوم إسقاط الجنسية عن المحكومين بتهمة الشيوعية الذين يرفضون تقديم تعهد بالولاء للملك، ومرسوم «ما شاكل ذلك». وفي ظل تلك الأوضاع جرى تزييف الحياة النيابية بالكامل وجيء ببرلمان التزكية، ومُنع وصول أي معارض للنظام الى مجلس النواب.

إن سد منافذ التطور الديمقراطي والتغيير السلمي للسلطة من قبل حكام العهد الملكي هو الذي حتّم قيام ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ التي أخذت شكل انقلاب عسكري.

غير أن القوى السياسية التي عملت على إسقاط النظام الملكي عجزت، وخصوصاً تلك التي تولت السلطة، عن إقامة النظام الديمقراطي الذي كان يطمح إليه شعبنا. فلم تكن الحريات التي تمتع بها الشعب لفترة قصيرة، ومورست فيها الحياة الحزبية وحرية الصحافة وأقيمت منظمات الطلبة والشباب ونقابات العمال وجمعيات الفلاحين والمنظمات المهنية وغيرها، لم تكن حصيلة تخطيط من السلطة لإشاعة الحريات الديمقراطية، وإقامة نظام ديمقراطي على أسس دستورية سليمة، بل كانت حصيلة قوة دفع الحركة الجماهيرية التي انطلقت بقوة عارمة في أعقاب الرابع عشر من تموز الأغر.

ولذا سرعان ما لجأت السلطة الجديدة الى لجم الحركة الجماهيرية عن طريق التضييق على الحريات العامة، وتزييف الحياة الحزبية والنقابية، وملاحقة الصحف والتصدي لمطامح الشعب الكردي القومية، مفسحةً المجال بذلك للقوى المعادية للديمقراطية ولفلول العهد الملكي وعملاء شركات النفط للنشاط والتآمر والنجاح في تدبير انقلاب ٨ شباط المشؤوم الذي شكل انتكاسة كبرى لنضال شعبنا من أجل الديمقراطية، وأرسى الأساس لكل النكبات التي عاناها شعبنا طيلة ما يقرب من أربعة عقود، وخصوصاً في ظل العقدين الأخيرين.

ولا أجد حاجة في وصف ما نحن فيه في ظل النظام الحالي، لكي أعود الى ورقة الدعوة لإلقاء هذه المداخلة القصيرة التي لا أحب أن أسميها محاضرة. تقول الدعوة إن «الهدف من هذه الندوات والمناظرات هو خلق مناخ فكري لمناقشة الجوانب النظرية والعملية للديمقراطية». وعلى أهمية هذا الهدف النبيل، فالمطلوب هو ليس فقط خلق مناخ فكري، بل وإشفاع ذلك بممارسات تستهدف توعية المواطنين بحقوقهم

الديمقراطية وسبل النضال من أجلها الآن وفي المستقبل ـ في عراق ما بعد التغيير. ولا شك أن هذه الندوات جزء من هذه الممارسات المطلوبة.

إن إمكانيات قوى المعارضة في إيصال صوتها الى أبناء شعبنا داخل الوطن، المحاصر بدكتاتورية بشعة، إمكانيات قليلة حقاً، ولكنها ليست معدومة. ولذا لابد من العمل على استغلال الإمكانيات المتاحة لبعث الثقة وتعزيز الأمل، ومساعدة المناضلين الذي يتصدون للدكتاتورية في عقر دارها من أجل الخلاص منها، وبناء عراق الغد الديمقراطي.

لقد أكدت المواثيق والبرامج التي اعتمدتها لعملها المشترك منذ العام ١٩٨٠ حتى الآن، في الجبهة الوطنية القومية الديمقراطية (جوقد) والجبهة الوطنية الديمقراطية (جود)، والجبهة الكردستانية العراقية، ولجنة العمل المشترك، والمؤتمر الوطني العراقي الموحد، على تبني شعارات إطلاق الحريات الديمقراطية للشعب، والعمل على إقامة نظام دستوري ودولة قانون. غير أن التثقيف والممارسة، كل في مجاله، بهذه الشعارات ظل دون المستوى المطلوب، بل وكانت الممارسة في كثير من الأحيان من قبل بعض القوى التي وقّعت هذه المواثيق على الضد من هذا التأكيد مع الأسف الشديد.

ولذا أحسب أننا مطالبون جميعاً بممارسة الديمقراطية في المنظمات التي نعمل فيها، وفيما بيننا كمنظمات مستقلة وكأشخاص، وأن نعمل على إشاعة المفاهيم الديمقراطية بين المواطنين ليس في الخارج فحسب، بل وفي الداخل أيضاً، قدر ما نستطيع، وأن نعزز دور مؤسسات المجتمع المدني في هذه العملية.

إن الدكتاتورية صادرت كل ما تبقى من المجتمع المدني تقريباً داخل الوطن. أما خارج الوطن فقد أقيمت نواتات بسيطة لمجتمع مدني مصغر هو منظمات ومنتديات الجاليات العراقية. ولكنها للأسف ماتزال ضعيفة ولا تستقطب إلا جزءاً ضئيلاً من هذه الجاليات. وقلّما يوجد بينها تعاون أو تنسيق، حتى على نطاق البلد الواحد، ناهيك عن التعاون والتنسيق فيما بين البلدان المختلفة.

إن الأحزاب هي طلائع سياسية للطبقات والفئات الاجتماعية لا يجب ولا يمكن أن تستوعب كل هذه الطبقات والفئات. ولذا تتشكل الى جانبها منظمات المجتمع المدني بمختلف أشكالها وتركيباتها: نقابات عمالية، جمعيات فلاحية، منظمات مهنية، اتحادات للفئات الاجتماعية: شبيبة، طلاب، نساء، نوادي ومؤسسات ثقافية، اجتماعية دينية، إعلامية وغيرها، تشكل بمجموعها المجتمع المدني.

هذه المؤسسات ينبغي أن تكون مستقلة، تسهر على مصالح الفئات التي تمثلها والدفاع عنها. وإن استقلالها يجب أن لا يعني عدم مشاركة الحزبيين في عضويتها أو قيادتها، بل يجب أن يعني أن برامجها ومواقفها وسياساتها ينبغي أن تقرر من قبل منتسبيها ـ بمختلف انتماءاتهم السياسية ـ وليس من قبل أية جهة أخرى.

إن وجود مؤسسات المجتمع المدني المستقلة، المعبرة عن مصالح الفئات التي تمثلها، إنما هو شرط ضروري لقيام المجتمع الديمقراطي. وحبذا لو قمنا منذ الآن بتطوير هذه المنظمات، قدر الإمكان، وتفعيلها لنتدرب جميعاً على تطبيق الوجهة الصائبة لبناء مؤسسات المجتمع المدني في عراق الغد الديمقراطي المنشود، لتكون هذه المؤسسات المستقلة، التي تمارس عملها بشكل ديمقراطي، ميداناً هاماً من ميادين تطبيق الديمقراطية داخلها، وفي إطار المجتمع ككل.

وإن تحقيق هذا يتطلب منا جميعاً جهداً كبيراً مع النفس، وفيما بيننا، ومع الآخرين. فالمسيرة لبناء مجتمع ديمقراطي في وطننا الحبيب، الذي عانى من الظلم والاضطهاد طيلة قرون، وتعرض خلال العقود الثلاثة الأخيرة لدكتاتورية بشعة، قلّ نظيرها في عالم اليوم، شوّهت المجتمع، مسيرة شاقة وطويلة، قد تستغرق حياة أكثر من جيل واحد بعد الخلاص من الدكتاتورية. وطوبى لمن يستطيع مواصلة هذه المسيرة النبيلة حتى النهاية.

ولا يفوتني بهذه المناسبة أن أنوّه بمبادرة قامت بها حركة تنسيق قوى التيار الديمقراطي بدعم عدد من أنصار الديمقراطية في بريطانيا ومن منظمات متعددة لصياغة ميثاق عهد ديمقراطي يستهدف التثقيف بالديمقراطية واعتمادها كأساس ونهج لبناء عراق الغد من قبل جميع القوى السياسية العراقية. وجرى إعداد صيغة أولية لهذا العهد، من قبل لجنة منتخبة، نوقشت في اجتماع موسع، مناقشة ديمقراطية أسفرت عن تكليف لجنة منتخبة جديدة ضمت عدداً من أعضاء اللجنة الأولى. وقامت اللجنة الجديدة بإعداد صيغة الميثاق وجرت مناقشته داخل اللجنة وخارجها تمهيداً لطرحه على اجتماع موسع جديد دعيت إليه قوى وشخصيات مختلفة وضم طيفاً واسعاً نسبياً ممن يتبنون الديمقراطية. وبعد نقاش ديمقراطي عميق أقر الميثاق بصيغته الأخيرة، وتقرر طرحه للتوقيع عليه من قبل المنظمات والشخصيات التي ترى فيه صيغة مناسبة للعمل من أجل إشاعة المفاهيم الديمقراطية والالتزام بها مستقبلاً لبناء عراق ديمقراطي يؤمن الحقوق الديمقراطية للشعب العراقي ككل، والحقوق

القومية للشعب الكردي والحقوق الإدارية والثقافية للتركمان والآشوريين والكلدان، ويحرّم فيه اللجوء الى العنف كوسيلة لحسم الخلافات السياسية، وتُحصر فيه مهمة الجيش في الدفاع عن حدود الوطن، وتربية أفراده على حب الشعب والوطن واحترام المؤسسات الدستورية.

إن هذه المبادرة على بساطتها تعكس رغبة جادة، من قبل المساهمين فيها، باعتماد الديمقراطية أساساً للعمل الآن وفي المستقبل، جديرة بالتقدير والإسناد انطلاقاً من ضرورة إشاعة المفاهيم الديمقراطية وكسب أوسع الأوساط الى تبنيها.

اصـــدارات وردتـــنـــا

النهج : العدد ٥٢ ، وقد ساهم فيه : ليشيك كوواكوفسكي ، هاتف الجنابي ، مالك حسن ، محمد علي الصالح ، خالد سليمان ، حيدر جواد ، هشام داود ، حسن عودة ، وصال فرحة بكداش ، سامي خالد ، عبد الله بلقزيز ، سلامة المغربي ، لطفي حاتم ، عبد الله خليفة ، جان بيير فرنان ، حنان قصاب حسن ، سيف الدين القصير ، عدنان حسن ، رضوان ظاظا ، فرهاد دفتري ، اريك هوبسباوم ، موريس غودولييه ، جواد بشارة ، محمود عبد العليم ، اسماعيل شاكر الرفاعي ، مجيد مسعود .

ذرائـــع الـــديـــكــتـــاتـــوريـــة

فرد هاليدي
ترجمة ناطق فرج

في ندوة حول الديمقراطية نظمتها حركة تنسيق قوى التيار الديمقراطي في بريطانيا في أيار ١٩٩٨ تحدث ف. هاليدي، استاذ العلاقات الدولية في جامعة لندن الذي له عدة مؤلفات حول الشؤون العربية، نشرت بالعربية آخرها مترجم بعنوان «الاسلام والغرب. . . خرافة المواجهة. . . الدين والسياسة»، وهو عضو في «اللجنة ضد القمع ومن اجل الحقوق الديمقراطية في العراق» (كاردري)

لديّ سبب عام وآخر خاص لعنونة مساهمتي في هذه الندوة بهذا الشكل. العام هو: رغم أن معظم الناس في عالمنا المعاصر يرون أن فكرة الديموقراطية ممكنة التحقيق، ورغم أننا شهدنا نموّها وإنتشارها في بلدان عدّة مؤخرا، فثمة منْ يخالف فيقول دائماً بعدم إمكان تحقيقها. بعض الأسباب التي يطرحها دولية: لا يمكن التمتّع بالديموقراطية والبلد في حالة حرب، هكذا يقولون في مصر والجزائر وغيرهما. أو أنهم يقولون بأنك لا تستطيع التمتع بالديموقراطية وذلك بسبب الإمبريالية. فالإمبريالية أوجدت هذه الدول حين قسّمت العالم العربي ولا تريد أن ترى الديموقراطية مطبّقة في السعودية أو العراق والخ. كما أنها تريد الإبقاء على صدام أو السعوديين في الحكم، لذلك لا يمكن أن تُطبق. فالاسباب الدولية إما أن تكون ذات علاقة بالحرب والنزاع أو بالإمبريالية والمصالح الخارجية.

وهناك أسباب تنبع من الثقافة. فيقال ان العرب لا يريدون الديموقراطية. العراق لا يريد الديموقراطية. والصينيون لا يريدون الديموقراطية، إذ لا يمكن إحلالها عندهم. وتأتي بعض هذه المحاججات من الغرب، من ذهنية إمبريالية، ولكن تأتي أيضاً من شعوب هذه البلدان نفسها. لا يسع منْ دَرس الديموقرطية أن ينكر أهمية الثقافة والثقافة السياسية في إحلال الديموقراطية. ولا يعني ذلك أن بلدان تنطوي على ثقافات مختلفة لا يمكنها أن تتمتع بالديموقراطية. التقيت مؤخراً بمنشق صيني يدعى وي جنغ جانغ، خرج من الصين بعد أن قضى عشرين عاماً في السجن، فطرحت عليه السؤال التالي: هل للشعب الصيني أن يتمتع بممارسة الديموقراطية وفق ثقافته الحالية؟ فردّ: أعتقد أن هتلر طرح هذه المحاججة حين قال: «بعض الشعوب لا تستطيع التمتع بالديموقراطية بسبب ثقافاتها». لقد اصاب الصيني في رده. . . وكالشأن الدولي فثمة هنا مسائل حقيقية ليست من صنع الخيال.

وثمة محاججات أخرى، بإعتقادي ذات صلة بالأمر، وهي تتعلق بطبيعة الدولة، إذ ليس بإمكانك ممارسة الديموقراطية في بلد له تاريخ عريق من الديكتاتورية. إيران، على سبيل المثال، خضعت للحكم الملكي ٢٥٠٠ عاماً، كيف تتوقع أن تتمتع بالديموقراطية؟ كذلك الحال مع العراق بكل تراثه إبتداءً من حمورابي وإنتهاء بالحكم الهاشمي.

رابعاً، ثمة محاججة أخرى نسمعها كثيراً هذه الأيام، تجمع بين الثقافة والدولة، انها تتعلق بالمجتمع المدني: إن لم يكن لديك مجتمع مدني، وعلى الخصوص مجتمع مدني برجوازي وميدان للنشاط الإجتماعي والإقتصادي الحر، فليس بإمكانك أن تحظى بالديموقراطية.

إذن، ثمة أربعة أسباب وجيهة لعدم التمكن من ممارسة الديموقراطية: الوضع الدولي، ثقافة الشعب، الدولة الديكتاتورية وأخيراً غياب المجتمع المدني. أعتقد أن هذه حجج يمكن إستخدامها في المثال العراقي، وكذلك غيره. وينبغي أن تؤخذ على محمل الجد ويُردّ عليها.

أولا، تتقلّص الديموقراطية في الدول التي تعاني من حالة الحرب، وهذا أمر مفهوم. فخلال الحرب العالمية الثانية لم تكن الصحافة حرّة في بريطانيا وكان فيها سجناء سياسيون، ولم تكن هناك إنتخابات ولا حرية في تبادل أو الحصول على المعلومات. وهذا يعني أنك، بكل تأكيد، لا تتمتع بحرية كافية من النوع الديموقراطي. ولكن تلك حالة مؤقتة، حيث ساد القانون فيما بعد.

لقد ذكرت أن لدي أسباباً عامة لعنونة مساهمتي في ندوة اليوم. ولكن ثمة سبباً خاصاً في صلب عنواني «تبريرات الديكتاتورية». فقد سافرت مع زوجتي الى العراق عام ١٩٨٠ لزيارة كلّية القانون والسياسة، التي تسمى الآن كلّية صدام حسين. والتقينا في مقر حزبه ببعض المسؤولين، ذلك المقر الذي لمحناه حال خروجنا من المطار. انه من نصفين اشبه بدائرة من هلالين، شيدته شركة يوغسلافية. أحد المبنيين للقيادة القومية، والآخر للقيادة القطرية. على أية حال، ذهبت لمقابلة أحد مسؤولي القيادة القطرية وليس القومية لأن دورها ثانوي عمليا. بدأنا نناقش مسألة الديموقراطية. كما تعرفون الحرية هي ثاني أهداف الحزب المسطّرة. لم يدّع المسؤول أنهم يمارسون الديموقراطية في العراق. ولم يقل ماقاله مسؤولون في الأنظمة الشيوعية: عمّالنا متحرّرون ونساؤنا متحرّرات وقبائلنا متحرّرة. مما قال: نحن نمارس الديكتاتورية. فقلت: لم تحتاجون الديكتاتورية؟ كان جوابه: لأننا بلد نام ولدينا مشاكل كثيرة وليس بإستطاعتنا ممارسة الديموقراطية. الرّد المناسب هو أن تقول له: أنظر الى الهند والى دول الكاريبي، فهي أفقر من العراق، ليس لديها أموال ولا فيها نفط. لنأخذ الهند كمثال: نجد أن لديها أقليات ومشاكل أكثر من العراق، مع ذلك لديها نوع من الديموقراطية، إذ يمكن للحزب الحاكم فيها أن يُنتخب. إنتخاباتها قد يُقتل فيها الناس، ولكن تبقى الى حدّ ما حرّة. وكذلك ثمة صحافة حرّة وسيادة للقانون وهكذا دواليك. لذا لا يمكنك إستخدام محاججة «البلد النامي» لتبرير غياب الديموقراطية. ثم تساءل المسؤول الحزبي: «هل قمت بزيارة الهند، الفوضى بعينها تعمّ البلد، حيث الأبقار تتجوّل في الشوارع. نحن عراقيون ولا يمكن أن نكون هكذا. منْ يستطيع القول بأن الأبقار تتجوّل في شوارعنا؟». فهكذا يفكر هؤلاء الناس وعلى هذا الأساس يمارسون إضطهادهم وإرهابهم.

نحن نعرف أن العراق خرق القانون الدولي، منذ ثمانية أعوام بغزو الكويت. وبات يخضع لضغط دولي، لم يسبق له مثيل، من الأمم المتحدة. ورغم الجهود التي بذلها المجتمع الدولي لدفع العراق لتغيير سلوكه، ورغم التوقع أن إندحاره في الكويت والضغط الذي اعقبه سيقودان الى تغيير في العراق، فأن ديكتاتورية حزب صدام بقيت في الحكم، وقريبا يحتفل بالذكرى الثلاثين لتسلمه السلطة. لقد باءت بالفشل محاولات عديدة لاسقاط صدام رغم رغبة غالبية الشعب العراقي في إزاحته.

ومن جهة أخرى عانت منطقة الحكم الذاتي في الشمال حصاراً مزدوجا من قبل

الأمم المتحدة وصدام. وضعف الحكم الذاتي بشكل خطير، كما نعرف، بالقتال الكردي اللامسؤول. لقد طُلب مني شخصياً في أكثر من مناسبة المشاركة في جهود الوساطة، غير أنني رفضت لأن ذلك مضيعة للوقت. فإذا لم يتمكن الطرفان من التوصل الى تسوية بينهما، ما جدوى وساطة خارجية.ازاء ضعف الموقف الدولي الواضح، فان مثل هذه الندوة خطوة مهمة للغاية للتفكير في مستقبل العراق ومكانته في المجال السياسي والأقتصادي الأرحب للشرق الأوسط. العراق، كما نعرف، لا يمكن أن يُهمل، فهو يجاور العديد من الدول المهمة والحساسة. كما أنه بلد غني وماضيه السياسي والثقافي يمنحه القدرة على أن يلعب دوراً مهماً في المنطقة. ينبغي أن ننظر الى عزلة العراق على انها وقتية. فقد رأينا على مدى العقود المنصرمة دولاً أخرى ذات ثروة ونفوذ قد تمّ عزلها عن المجتمع الدولي. مع ذلك فأنها بمرور الزمن عادت لتلعب دوراً أكثر إنفتاحاً وأيجابية في الشؤون الدولية لمصلحة شعوبها وجيرانها على حدّ سواء. ومن الأمثلة المهمة على ذلك المانيا واليابان خلال العهد الفاشي والصين أثناء الحكم الشيوعي. أما اليوم فنرى العديد من الدول كأيران وكوبا وصربيا، علاوة على العراق، تعاني من عزلة قاسية مشابهة، غير أنها مؤقتة بالضرورة. سيأتي اليوم الذي تنخرط فيه هذه الدول في علاقات سياسية وإقتصادية طبيعية مع العالم الخارجي، ونحن على يقين من أن العراق سيتخلص من النظام الديكتاتوري وإحراز تقدم يحظى بمصداقية في نظر الشعب العراقي والمجتمع الدولي، فيسير بإتجاه العدالة والإنفتاح السياسي.

من السهل أن نيأس من دول هيمنت عليها الديكتاتورية وسوء الحكم لفترة طويلة، غير أني أعتقد أن نظرة مستفيضة لا تخلو من فائدة. فثمة دول عدّة في أمريكا اللاتينية، مثلاً، كان لها حظوظ سياسية وإقتصادية، عانت لفترة طويلة من الديكتاتورية في السبعينات والثمانينات. وظهرت فيها بعدئذ أنظمة ديموقراطية، وهذا ما نراه اليوم في الارجنتين وتشيلي والبرازيل، كما سنراهُ في العراق يوماً ما. وقد أعادت هذه الدول إكتشاف العناصر الديموقراطية في تراثها السياسي ورسّخت إقتصادياتها المربحة وطبّعت علاقاتها مع العالم الخارجي.

نتحدث من هذا المكان حول الديموقراطية وسيتحدث الآخرون مزيداً عنها، غير أني أريد التحدث قليلاً حول خبرة الدول الأخرى في هذا المضمار. من الصعب تعريف الديموقراطية، فهي كالسعادة بمعنى من المعاني، غير أنك دون شك قادر على أن تميّز غيابها. وقد قلت بأن هناك تعاريف ضيقة للديمقراطية وأكثرها وضوحاً هو: صوت

واحد لكل مواطن. والأهم، لا يحق لأي مواطن أن يُدلي بأكثر من صوت، واشمل من ذلك وجود تسامح ثقافي وسيادة القانون في المجتمع. ولكن تعريفها بالتصويت من جهة والتسامح من جهة أخرى لا يفي رغم أني أعتقد بأنهما ضروريان ويلفتان النظر الى جوانب معينة من النقاش وثيقة الصلة بالعراق ودول أخرى.

أولاً، دون ثقافة التسامح بين جماعات دينية وأطراف سياسية وجماعات عرقية متباينة، لا يمكن لأي نظام ديموقراطي أن يتحقق. إذ يمكن إستغلاله من قبل طرف ما لسحق الطرف الآخر وكذلك لمصلحة الشقاقات الحزبية. كشخص ولد في جمهورية أيرلندا وعاش الحرب الطويلة في ايرلندا الشمالية، قدر ما عشتم ديكتاتورية صدام، اي لثلاثين عاماً، فاني أشعر بتفاؤل معقول حول الإتفاق الأخير بين طرفي النزاع هناك. إنه يتأتى من نمو بعض التسامح المحدود والإعتراف المشترك بين الطرفين. وثانياً، سيتضمن الدستور ضوابط وتوازنات بين الأقليات المتباينة. ثمة أسس ثقافية ودستورية للتسامح، وبغيابه لن تتحقق الديموقراطية.

أقول لكم شيئاً مثيراً للجدل، غير أنه نابع من خبرتي الأيرلندية التي عشت تفاصيلها ومن رؤيتي للثورة في إيران، وهو أن العلمانية في رأيي تعتبر جزءاً من التسامح. إذ لا يمكن إحلال الديموقراطية دون وجود دولة علمانية حقيقية في المجتمع. لكن ليس هناك مجتمع تسوده العلمانية مئة بالمئة. حتى جوزيف ستالين، بعد كل حساب، كان يدعى القائد المبجّل للشعب الروسي. وأعتُبر ضريح لينين مزارا للشيوعيين وغدا ماو تسي تونغ معبود اً. ولكن هناك مجتمعا يهيمن عليه الدين كإيران والسعودية وأفغانستان، وآخر تغلب فيه العلمانية، كبريطانيا وأمريكا أو أوربا، بنسبة ٧٠٪ مثلا. لا أعتقد أن أي مجتمع يُحدد القيم السياسية والإجتماعية دينيا، ويميّز الجماعات تمييزا دينيا، يُمكن أن يكون ديموقراطياً لسببين وجيهين: أولهما، لأن الذين يلجأون الى الدين كمصدر للسلطة هم بالضرورة يتصفون بالجمود العقائدي ويفتقرون الى التسامح. فقد رأينا مثل هذا مرّة بعد اخرى. وثانيهما، لأن اعتبار الدين مصدر السلطة والقانون والتحكيم والتشريع في المجتمع يمهد السبيل لحكم المسنين من رجال الدين الذين يُنصّبون أنفسهم بأنفسهم، فهو حكم غير ديمقرطي. لذا فأني أعتقد أن الذهنية ومصدر التشريع لابد أن يكونا علمانيين. لايعني هذا أن الناس ينبغي أن يكونوا ملحدين، ولا يعني هذا عدم وجود رموز دينية. لقد قمت بزيارة تركيا مؤخراً حيث يدور نقاش كثير حول تماثيل كمال أتاتورك. إنك لو ذهبت الى أي مدرسة

إبتدائية، لوجدت تمثال أتاتورك وقد كُتب تحته كلمة المرشد. والمرشد ليس مفهوماً علمانياً. ولو نظرتم الى العلم التركي لوجدتم الهلال الإسلامي يتوسطه. واذا ذهبت الى ضريح اتاتورك في انقرة ستجد انهم حاولوا إضفاء طابع القدسية على عمارته.

أعتقد أن العلمانية ضرورية، ولكن ليس مئة في المئة. ومن هذا المنطلق لا أتفق مع كثيرين، في الغرب والشرق، يحاولون أن يستمدوا الديموقراطية من الدين. نحن نعرف، بالطبع، أن العلمانية هي شرط غير كاف للديموقراطية. إذ هيمنت العلمانية على ديكتاتورية ستالين، بعد كل حساب، وكان مسؤولاً عن الكثير من الجرائم ضد الإنسانية.

ثالثاً، تعتبر الديموقراطية سيرورة لا شيئاً نهائيا كبناية جاهزة. الأمور تتغيّر، ويشهد بلدنا تغيّرات مثيرة جداً تتعلّق بحقوق الإنسان والقانون والتطور الدستوري. وسيستمر التغيّر طالما تنشأ أفكار وتحديات جديدة. لعل شيئاً ما لم يتفهمه الناس قبل خمسين عاماً، ثم يحظى بالقبول الان فيأخذ به المجتمع ان كان ديموقراطي النظام. لابد، مثلاً، أن تمارس الآن سيطرة سياسية على مجريات الأمور ومنها البيئة والإنتاج. لابد لك من السيطرة على المواد الغذائية الموجودة في الدكاكين، وذلك بتثبيت تاريخ الإنتاج ونهاية صلاحية الاستهلاك على سلع الاغذية. لذا فحيث تتدخّل الدولة لغرض ديمقراطي، تتغيير الأمور باستمرار. فالأمر ليس كما لو أن الدول الغربية قد وصلت الى حالة نهائية رائعة من الديموقراطية. إذ ليس ثمة حالة نهائية، فقد تأخذ هذه الحالة بالتراجع. أنا شخصياً قلق للغاية على تدهور المشاركة في الإنتخابات في الولايات المتحدة إذ تراجعت بنحو ٥٠ بالمئة. وماذا يحدث لو إنخفضت، بعد جيل، الى ٢٠ بالمئة؟ تمسي حينئذ ديموقراطية بالشكل، وهذا امر ينطوي على خطورة.

المسألة العريضة الثانية التي أود أن أتناولها بخصوص الديموقراطية تتعلّق بتاريخها. إنها مسألة جدية أطرحها هنا لأني أعرف بأنها لن يُساء فهمها. ثمة خرافة في القول الشائع أن الدول الغربية تمتعت بأنظمة ديموقراطية لمئات الأعوام: البريطانيون نالوا الوثيقة العظمى Magna Carta والفرنسيون قاموا بالثورة، والأمريكان أعلنوا الإستقلال عام ١٧٧٦. ولكن، بالطبع، وفق التعريف الذي بدأت به، وهو أحد الأسباب التي دعتني لطرح ذلك التعريف، فأن هذه الدول لم تحقق حينذاك سوى الحد الأدنى من الديموقراطية، وهو صوت واحد لكل مواطن. ففي بداية الستينات من هذا القرن لم يكن لملايين من السود في الولايات المتحدة الحق بعد في

التصويت، بل حققوا ذلك في منتصف الستينات على وجه الدقة، أي في الأعوام الثلاثين المنصرمة. أما في أيرلندا الشمالية، فلم تكن ثمة أخطاء وانتهاكات فحسب، وإنما كانت منطقة غير ديموقراطية من الناحية الدستورية حتى السبعينات. لنتذكر ايضا أن النساء في فرنسا لم يكن لهن الحق في التصويت حتى عام ١٩٤٨، وكذلك في إحد كانتونات سويسرا، لم يكن لهن الحق في التصويت الا في وقت متأخر جداً. ذلك الكانتون اعتبره سولجنتسن* نموذجاً رائعاً للتقاليد الغربية. ذلك هو رأيه على كل حال.

كيف تحققت الديمقراطية اذن؟ اعذروني لإستخدام كلمة عفا عليها الزمن، هي النضال، غير أني لا أعرف سواها، إذ أن الشعب ناضل وعبأ وكافح من أجلها، ليس بمعنى أنهم إستخدموا السلاح، وإنما كافحوا مثل أولئك الذين كافحوا في الولايات المتحدة ودول أخرى. لذا، فهذا النظام لم يتحقق لإن الحكام منحوه ولا لكون الدولة تطورت تلقائيا، وإنما حدث من خلال النضال السياسي لتطوير الأنظمة السياسية بشكل أو بآخر. وبإعتقادي أن هاتين النقطتين التاريخيتين، طول الزمن والنضال، لهما أهمية كبيرة. وإذا نظرت الى النقاش العالمي حول الديموقراطية، ومصدره الولايات المتحدة، فأنه بإعتقادي يفتقر الى البعد التاريخي والتعريف. يقال أن ثمة ١٩٥ بلداً في العالم، بينها ١٠٠ دولة ديموقراطية وفقاً لمعيارنا. وهنا، لا يمكن القول بأن أي دولة، بأي شكل من الأشكال، ديموقراطية إن لم يكن فيها نظام تصويت فعّال، من النوع الذي أشرت اليه، وذلك طيلة جيل على الأقل. فهناك دول من هذا النوع تمتعت بالديموقراطية لعشرة وعشرين أو ثلاثين عاماً ثمّ انتهت ديمقراطيتها، وخير مثال على ذلك جمهورية فايمر في المانيا**. وفي الستينات، وانا طالب، كان يمكنك القول بأن ثمة أنظمة ديموقراطية في لبنان والأرجنتين والأوروغواي، ثم أنظر ما الذي حدث. ولو تناول المرء الحد الأدنى من تعريف الديموقراطية، شريطة أن يضيف اليه الحد الأدنى من الإطار الزمني، اي أن تبقى لجيل كيما يشعر المرء بأنها راسخة الى حدّ معقول، لنقل ٢٥ عاماً، فلن نجد دولاً تسودها أنظمة ديموقراطية حقاً سوى ٤٠ دولة على الأرجح، وهي دول أوروبا الغربية وشمال أمريكا واليابان والمستعمرات البريطانية

* الكساندر سولجنتسن: روائي سوفييتي منشق سجن عام ١٩٤٥ حتى عام ١٩٥٣. قضى ثلاثة أعوام منفيا في سيبيريا. ثم رُحلّ الى الغرب عام ١٩٧٤. حاز على جائزة نوبل في الأدب عام ١٩٧٠. (المترجم)

** جمهورية فايمر ظهرت في المانيا عام ١٩١٩ حتى تسلّم هتلر الحكم عام ١٩٣٣. (المترجم)

السابقة المطلّة على البحر الكاريبي فقط. زد على ذلك، فأنك لو أضفت النقاط الضرورية الأخرى لديموقراطية سياسية وثقافية فعالة أشمل، فلا أعتقد، عندئذ، أن في العالم مجتمعاً ديموقراطياً بكل ما في الكلمة من معنى. مثلا لو تمعّنت في بّريطانيا جيداً لوجدّت أن أحدا لا يتحدث عن ملكية الصحافة والإعلام الآن، ويسري ذلك ايضا على أصحابنا الذين يتحدثون عن وسائل الاعلام والخطاب الإعلامي والرمزية. فوسائل الاعلام امست ملك بعض الرأسماليين الأفّاكين بإستثناء القليل الذي يحاول أن يسير على غرار اولئك. أنظر ما حصل مثلاً لصحيفتين حرتين هما غارديان وأوبزيرفر في غضون العامين أو الثلاثة أعوام المنصرمة. فقد نشروا فيهما الأسبوع الفائت مقالات حول العام الأول من حكم توني بلير، يثنون فيهاعلى ما قام به في مجالات عدّة، فوجدتني أتفق معهم. ولكنهم إلتقوا وزير الخارجية، فسألوه ما إذا إرتدى بدلة خضراء في حفلة عرسه دون ان يتطرقوا الى ما فعل بشأن الخليج وشرق اوربا او الصين والخ. فنحن نشهد تردي صحافتنا نتيجة (اعذروني لو قلت) الملكية الإحتكارية الرأسمالية لها. لكن لا أحد يتحدث عن هذا الأمر الآن، وذلك رغم أنه يمس اساسيات الديموقراطية.

الإتحاد الأوربي وأمريكا يعتبران الدول ديمقراطية اذا جرت إنتخابات فيها دون أن يُقتل احد. لقد دأب صديقي عبد الله صالح على التحدث اسبوعيامن خلال التلفاز دون غيره، فأرجوكم لا تقولوا لي إن ثمة إنتخابات حرّة في اليمن، مع إحترامي لعلي عبد الله صالح. يقولون إن لديهم ديموقراطية في آليمن، واليمن ليس كالعراق. والناس لا تُقتل في اليمن بسبب إنتماءاتهم الفكرية. هناك بعض التعدّدية في الصحافة، إلا أنه لا توجد ديموقراطية. أذكر يوماً أني سألت يمنيا: لماذا تتمتعون بالديموقراطية في اليمن؟ فأجابني، لأن الرئيس أجازها لنا! وهذا أمر عظيم! أكرّر أن اليمن ليس كالعراق أو السعودية وغيرها، إذ تتمتع بحرية أكثر.

باعتقادي إن إمكانية الديموقراطية، الى حد ما، تكمن في كل بلد، غير أنها سيرورة تنطوي على النضال. هذا ينطبق على العراق وعلى أي بلد آخر. بعض الشروط المسبقة لها أهمية في تحقيق الديموقراطية في العراق، ولعلي أبدأ ببعض العوامل الإقتصادية والإجتماعية التي غالباً ما تنسى. فلدى العراق ثروة طبيعية تميّزه عن معظم الدول النامية ودول الشرق الأوسط. فاحتياطيه من النفط حتى نهاية عام ١٩٩٨ هو ١١٢ مليار برميل، أي ما يعادل حوالي ١١ بالمئة من الإحتياطي الإجمالي للعالم وثلاثة

أمثال إحتياطي الولايات المتحدة. السعودية وحدها تمتلك إحتياطياً أكبر منه. وكذلك فإن احتياطيه من الغاز يبلغ ١١٨ ترليون قدم مكعب، أي ٥، ٢ بالمئة من الإحتياطي العالمي. والأهم من ذلك، لدى العراق مساحة واسعة يمكن أن تستخدم للزراعة، إذ أن ١٢ بالمئة من مساحته الإجمالية صالحة للزراعة. وهذه النسبة تعادل نسبة المكسيك وأكبر من نسب جنوب أفريقيا والأرجنتين والصين. كما يتمتع بنسبة ١٥ بالمئة من المراعي والغابات. هذه الثروة الطبيعية ذات نفع عظيم لأي بلد. فثمة توازن في الموارد الطبيعية والبشرية معاً. وربما يُعدّ العراق من أكثر بلدان الشرق الأوسط حظوة على الإطلاق، إذ يتمتع بنعمة زراعية وبشرية كتلك الموجودة في تركيا، بالإضافة الى قدرته على إستحصال عائدات كبيرة من نفطه. ومثل العديد من الدول المنتجة للنفط، في العراق شعب متعلّم وإمكانيات زراعية ضخمة. وإذا قارنت العراق بإيران، لوجدته أكثر حظاً منه، لما لديه من وفرة في النفط وإمكانيات زراعية كبيرة، وفوق ذلك، بالطبع، حجم سكانه البالغ ٢٢ مليون نسمة الآن. العراق بلد كبير لدرجة أنه قادر على دعم اقتصاد حديث، غير أنه لا يعاني من مشاكل التضخم السكاني كالتي نجدها في دول شرق أوسطية أخرى مثل إيران ومصر أو الجزائر. يُقدّر أن يبلغ عدد سكان العراق ٢٦ مليون نسمة عام ألفين و٥٠ مليون نسمة عام ٢٠٢٥. وهذا النمو السكاني يقابله حتى الآن، حتى في أكثر الأعوام سوءاً، نظام تعليمي متميز بكفاءته. ففي عام ١٩٨٧، أي قبل عشرة أعوام، تجد أن ٩٨ بالمئة من أطفال العراق يتمتعون بتعليم نظامي في المدارس الإبتدائية، و٤٩ بالمئة في مدارس ثانوية. وهذه النسبة أعلى بكثير من دول أخرى عديدة. وتبين المؤشرات الإجمالية أن الخدمات الإجتماعية، كما هي موزعة بين الرجال والنساء، كانت متساوية أكثر بكثير من ما هي عليه في دول المنطقة الأخرى. وقد إرتفع متوسط العمر المتوقع في العراق من ٤٩ سنة في عام ١٩٦٠ الى ٦٥ سنة في عام ١٩٩٠. وثمة إنتشار واسع للخدمات الإجتماعية ومنها إسالة المياه الصالحة للشرب قبل الازمة الأخيرة. ومن كوارث الديكتاتورية تشتيتها لمئات الألوف من المثقفين العراقيين والأطباء والجامعيين والإقتصاديين والإداريين في كل إنحاء العالم. ويُشكّل هؤلاء، ومنهم الحاضرون في هذه الندوة، ثروة عظيمة ستستمد منها الحكومة الديموقراطية مستقبلها. فلا ينبغي لثلاثة عقود من الديكتاتورية التي خضع لها العراق أن تصرف أنظارنا عن ثروات يمكن لقيادة حكيمة أن تُسخّرها لخدمة الديموقراطية. في ظل الحكم الملكي كانت ثمة عناصر مهمة

ومنضبطة من التعدّدية السياسية وطبقة وسطى متعلمة لها مكانة في الصحافة والحياة البرلمانية. كان العراق، كما تعرفون، مركزاً للحياة الثقافية العربية لعقود عدّة. الديكتاتورية بذلت ما بوسعها لإضعاف وتشويه هذه التقاليد، خصوصاً بالعصبية القَبَلية على مدى الأعوام القليلة الماضية، لكننا لا نعرف ما اذا قوّت السياسة العراقية وحتى الثقافة بتعزيزها للحس الوطني لدى العراقيين. لا نعرف على وجه التحديد. وإذ لا يصدق السواد الأعظم من العراقيين خطاب نظام صدام، ربما بسبب الحربين مع إيران وأمريكا، فأن ذلك ربما دفع الى نمو شعور من الوطنية في العراق، الأمر الذي لا يصبّ في صالح صدام، إلا أنه مع ذلك شعور أن إستقلال ووحدة وإزدهار العراق ينبغي أن تُصان.

كثر الجدال حول كون العراق ظهر فقط كدولة واضحة المعالم عام ١٩٢٠، غير أن عام ١٩٢٠ زمن بعيد وثمة تاريخ وثقافة من التفاعل والتفاهم بين ما في العراق من جماعات أثنية ودينية متباينة، وبإمكانها في ظل قيادة حكيمة أن تتلاحم في الاطار الوطني ثانية.

لقد تحدثت في البداية عن العامل الدولي كتبرير لغياب الديموقراطية وقد كثر الحديث عنه في القضية العراقية. وهنا أريد التأكيد على جانب آخر منه هو أهمية التطور السياسي في العراق بالنسبة للمنطقة ككل. لقد دفع الشعب العراقي ثمناً باهظاً بسبب ديكتاتورية صدام، إلا أن هناك أناساً آخرين دفعوا الثمن أيضاً. فقد ذهب مليون إيراني ضحية حربه مع إيران. كذلك الذين قتلوا في الكويت والمفقودون والفلسطينيون الذين لهم ما يقولونه بشأن وعود صدام لهم ونقضها. وأذكر على وجه الخصوص صديقي العزيز سعيد حمامي ممثل منظمة التحرير الفلسطينية في لندن في السبعينات. كان حمامي أول منْ أستدعي، كقومي فلسطيني، للحوار مع إسرائيل بشأن إقامة دولتين. وقد أغتيل في مكتبه وسط لندن. وتدل جميع المؤشرات على أن صدام متورط في عملية الإغتيال. لذا فما يحصل في العراق ومصير العراق ينطوي على ابعاد إقليمية أشمل. ومن ناحية اخرى اشير الى نشاطات وتحرك بإتجاه الليبرالية في بعض دول الخليج. الكويت أفضل من السعودية، وقطر سائرة في هذا الاتجاه. فالإنترنيت والسفر والتعليم وأفلام الفيديو والكتب الممنوعة، التي يقتنيها الناس بكميات كبيرة من مكتبات لندن ويأخذونها الى بلدانهم، كلها تؤثرعلى هذه المجتمعات. وهناك تطوّر مثير للغاية في ايران، غير أنه ليس وطيداً بعد، وله أثر مخلخل هام على المنطقة وعلى أولئك

الممسكين بزمام السلطة. إلا أن الديكتاتورية المتوحشة في العراق تبرّر وجودا عسكريا إضافيا من ناحية، وتبرّر وجود الأنظمة الحالية من ناحية أخرى، وهذا مثال آخر لجدلية العامل الدولي. فالليبرالية في ايران وحتى في قطر، ذلك البلد الصغير، لها أثر مقلق، بينما التطور الديموقراطي في العراق سيكون له مضامين هائلة بالنسبة لشعوب المنطقة برمتها توفر، برأيي، حليفاً مبدئياً يُعتد به للشعب الفلسطيني أقوى بكثير من حلف صدام الغوغائي الذي لا يُعتد به.

ولعلنا نسينا أن منظمة التحرير الفلسطينية نشرت كرّاساً عام ١٩٧٤ يقارن بين صدام وبيغن. فسياسته تجاه إسرائيل طالما أضعفت الفلسطينيين. وبرأيي لديهم الإمكانية الآن، طبقاً لإتفاقية أوسلو، للتوصل الى تسوية معقولة مع الاسرائيليين إن وافقوا. ومرة أخرى فأن بقاء صدام في الحكم يصبّ في صالح الإسرائيليين، لأنهم يستخدمونه كمبرّر لرفض القيام بأي تنازل. وأعتقد أن صدام ونتنياهو يستخدمان أحدهما الآخر كمبرّر.

ستكون للتغيّرات في العراق أهمية كبيرة لبلد آخرعلى حافة أزمة كبيرة في الوقت الحاضر، ذلك هو تركيا إحدى الدول الثلاث التي تقطنها نسبة كبيرة من الأكراد، والبلد الذي قدّم أقل تنازلات لهم. والنتيجة الآن هي أن الحركة القومية الكردية هناك تسيطر عليها مجموعة لا تعبه بالديموقراطية، غير أنها الطرف الرئيسي القادر على التعبير عن المطالب القومية لأكراد تركيا. ومسوؤلية هذا الوضع تتحمله الحكومات التركية المتعاقبة لأنها ترفض اي تسوية معقولة مع أكرادها. فلو توصلت الى اتفاق يماثل الاتفاق بين الحكومة العراقية والأكراد عام ١٩٧١ (أعرف أن صدام هو الذي نقضه) لأختلف الحال تماماً.

أريد أن أنهي حديثي بالنقطة التي بدأت بها والتي تكمن، في الحقيقة، وراء الكثير من إهتمامي بهذه المنطقة منذ السبعينات.. إن بلدان هذه المنطقة، كالسعودية وعُمان وايران أو العراق، مختلفة التراث، إلا أن ما يحدث في واحد منها يؤثر بشكل جوهري على المنطقة. هناك ما يدعو للتفاؤل فيها، خصوصاً ما يجري الآن في ايران، ولكن ثمة ما يدعو للقلق أيضاً. إنها القضية بعينها قدر ما يتعلّق الأمر بالعراق، فالدلائل الحالية مروّعة حول أزمة المجتمع الداخلية وعودة العصبية القَبَلية والعنف بالتداخل مع المأزق في العلاقات مع العالم الخارجي. فرغم جهود فرنسا وروسيا لا أرى أي فرصة لتغيير هام فيما يخص الضغط الدولي على العراق. فلا يخفى عليكم أن قرار

رفع العقوبات عنه لا يتخذ بالأكثرية. فحق النقض (الفيتو) حاسم في هذا الشأن. والكثير رهن بسياسة القيادة العليا للدولة العراقية، وتأثير العالم الخارجي محدود هنا.

بيد أن من الضروري النظر الى ما سيكون عليه العراق في مرحلة ما بعد حكم صدام، آخذين بعين الاعتبار ما في تاريخ ثقافة العراق ودروس الدول الأخرى ما يمكن أن يساعد في التطور الديموقراطي للعراق وإعادة علاقته مع النظام الدولي. فالنظام السياسي لمرحلة ما بعد الديكتاتورية يمكن ان يبنى على أساس الهوية الوطنية للعراقيين مع الإعتراف بالمصالح السياسية المتعدّدة ضمن المجتمع. ولا يمكن أن يكون هناك سلام إقليمي ولا نظام أمني دون أن يلعب العراق فيه دوراً محورياً بحيث يتحقّق فيه أمنه المشروع ومصالحه الإقتصادية. واخيراً، فإن أي تغيير سياسي في العراق وأي تقدّم بإتجاه الديموقراطية سيكون ذا أهمية كبيرة ليس فقط للشعب العراقي، الذي عانى طويلاً من ويلات هذا النظام الجائر، وإنما لشعوب المنطقة قاطبة، الأتراك والأكراد والفلسطينيين والإسرائيليين، أي كل منْ دفع ثمن ديكتاتورية صدام بشكل أو بآخر.

المنظور المعرفي للتحرر عند ماركس وانجلز:

مساهمة حول المفهوم المادي للتاريخ

ودود حمد

١ـ مقدمة

للمنهجين المثالي (الميتافيزيقي) والمادي أهميتهما الكبرى في تاريخ الفكر في سياق التقدم (وكذلك الانتكاس) في مسيرة البحث العلمي. وحين يرتكز النمط الجدلي (الديالكتيكي) في التفكير على المنهج المادي، فإنه لا يعتبر أن للفكر، بحد ذاته، وجوداً مستقلاً ذا أولوية استثنائية، بل ينبع أساساً من البشر ومجتمعهم اللذين يتكاملان مع الطبيعة ويتفاعلان معها تفاعلاً عضوياً. وحصيلة ذلك هو المركّب المتكامل والمتفاعل الذي هو الحياة بمعناها الأشمل. وينبغي، على هذا الأساس، النظر الى العالم بصفته «مركّب **سيرورات** ينطوي على توازن بين الحقائق الملموسة وصورها المرتسمة في أذهان البشر»[١]: أي بين الواقع الموضوعي (الخارجي) وانعكاسه الفكري. وشأن الواقع الموضوعي، فإن الفكر في تغير دائم، وفي سيرورته هذه تتجلى جدلية العلاقة بين الجديد الذي يتبلور والقديم الذي يتلاشى في الطبيعة والمجتمع والفكر.

لجوانب الواقع العديدة خصوصياتها، فيتطلب بحثها في أي علم خاص طرائق ومنهجيات مختلفة تناسب هذا العلم وتساعد على معرفة موضوعه معرفة كلية أو جزئية. ولئن كان فرع العلم هذا جزئي النجاح في معرفة بعض جوانب الواقع الذي يبحثه، فإن ذلك لا ينفي عنه صفة العلم لتبقى مقتصرة على فروع العلم الأنجح في معرفة موضوعها. وهذا يسري على المادية التاريخية.

ومنهج المادية التاريخية إذ يشترط المراجعة الدائمة للافتراضات الأولية التي ينطلق منها، وذلك تبعاً لما يستجد في مختلف المعارف، فإنه يضمن الحيوية في تطور إدراكنا للعالم في سبيل بلوغ الغاية الأبعد التي توخاها ماركس وانجلز، وهي **تحرر الإنسان**.

٢ـ ملاحظات حول المادية التاريخية

كيف تنظر المادية التاريخية الى ثقافة المجتمع الرأسمالي، أو الفكر البرجوازي السائد في المجتمع الرأسمالي؟ لقد تميزت الرأسمالية بإرساء أساس علاقات الإنتاج بعيداً عن الاعتبارات الميتافيزقية التي تتوخى التوصل الى حقائق مطلقة أو جزئية. فقام الاقتصاد الرأسمالي منذ البداية على استغلال العمل المأجور المتحرر من كل قيود غير اقتصادية، وذلك بغية تحقيق الربح الأقصى لمالكي وسائل الإنتاج. وفي إطار هذه العلاقات الرأسمالية نشأت قوانين اقتصادية سعى الفكر البرجوازي الى إضفاء صفة الإطلاق عليها بمعزل عن العلاقات الرأسمالية التي منها نبعت. فمن الواضح أن ذلك ضروري لتوليد القناعة بديمومة الرأسمالية مادامت قوانين اقتصادها غير مرتبطة بنشوء وتطور هذا النظام: وبذلك تنطوي آيديولوجيا البرجوازية على منحى حتمي. أما المادية التاريخية فتنظر الى هذه القوانين نظرة جدلية فتربط نشوءها وتطورها بالرأسمالية التي نشأت وتطورت في مرحلة محددة من سيرورة المجتمع البشري.

فباعتباره جزءاً من النظرية المعرفية يتطلب المنهج الجدلي معالجة أي موضوع قيد البحث في سياقه التاريخي. وهذا يسري كذلك على دراسة الوعي الاجتماعي الذي ينبغي تناوله في سياق تاريخي بدراسة تطوره ارتباطاً بالظروف الموضوعية المتغيرة التي ينبع منها مروراً بمراحل سبق للوعي المرور بها، لكنه يصعد على نحو لولبي تتخلله طفرات نوعية وانقطاعات.

والمادية التاريخية إذ تعتبر الوجود الاجتماعي أساس الوعي والفكر، فإنها ترى في العلاقة بين الوجود الاجتماعي من جهة والفكر والوعي، من جهة أخرى، تفاعلاً جدلياً، أي تفاعلاً بين الموضوع والذات. في الجزء الأول من «**رأس المال**» يطرح ماركس هذه العلاقة من خلال التكنولوجيا باعتبارها تكشف عن نمط تعامل البشر مع الطبيعة تعاملاً يُجسّد سيرورة الإنتاج، فمن خلالها يضمن البشر معيشتهم؛ ويتكشف من خلال هذا التعامل نمط بناء العلاقات الاجتماعية وكذلك التصورات الفكرية التي تنشأ من هذه العلاقات. وهذا الطرح يسري على الجوانب الثرة لحياة الإنسان بوصفه فاعلاً تاريخياً

معقداً، بالإضافة الى الظروف الموضوعية المتغيرة للمجتمع. فهو طرح لا تكبله صيغ جامدة وليس معنياً بتقديم «نبوءات».

المادية التاريخية توطّد دور الفلسفة المادية في بحوث المجتمع، فتزيل القصور المتمثل في دراسة العوامل الايديولوجية الكامنة وراء الفعل البشري مع إهمال جذور هذه العوامل وهي الظروف الموضوعية المتحكمة بتطور العلاقات الاجتماعية وفقاً لتطور الانتاج المادي الذي هو أساس حياة البشر.

إن طروحات المفكرين الوضعيين، سواء كانوا لبراليين أو ماركسيين، تختزل المادية التاريخية الى كونها «نظرية تاريخية صرفاً، هدفها التنبؤ بمسار مستقبل التطورات الاقتصادية وتطورات السلطة السياسية، وعلى الأخص الثورات» كما يقول كارل بوبر وهو من أبرز المفكرين اللبراليين المناهضين للماركسية(٢). مثل هذا الاختزال ينطوي أولاً على تجاهل جدلية العلاقة بين مركب السيرورات ومراحل التطور الاجتماعي والفكري. ثم أنه يعتبر المادية التاريخية نظرية، والحال أنها أساساً منهجية للبحث الاجتماعي تعتمد اعتماداً عضوياً على التقدم في مختلف ميادين المعرفة. وهو تقدم لا يلغي ما سبقه بل يتلافى قصوره. ففي ميدان الفيزياء، مثلاً، تمثل النظريات الحديثة لميكانيك الكمّ منجزات باهرة، لكنها لا تلغي مكانة منجزات الميكانيك الكلاسيكي على يد نيوتن. وبالمثل فإن إنجازات البحوث الجديدة في علوم المجتمع، وغيرها، إنما تُسهم في تعميق وتطوير المعرفة، فتطوّر معرفتنا للحاضر بكل تناقضاته وتعقيداته. فهذه هي جدلية المفهوم المادي للتاريخ كتجسيد لمضامين «المنطق العلمي» في البحث والتحليل.

إن المادية التاريخية هي، في الأساس، أداة منهجية تربط علمياً عدة فروع معرفية مستقلة، كعلوم النفس والاقتصاد والاجتماع والتاريخ. وبهذه المنهجية تسعى الماركسية الى تفحّص وتدقيق **الجوهر الشامل** للتناقضات المعتملة في الموضوع المبحوث. وهي إذ تعمل على تشخيص الظروف الموضوعية، البيئية والإنتاجية، وكيفية نشوئها وتطورها، تدرس ما بين مثل هذه العوامل الموضوعية والعوامل الذاتية من تفاعل جدلي يؤدي الى خلق مجتمع بتركيبة وكيان محدد، فإنها لا تعطي الأولوية للعوامل الذاتية ولا للعشوائية (أو الصدفة) في مسيرة المجتمع نحو الأمام أو نكوصه الى الوراء. فقول ماركس إن «**البشر يصنعون تاريخهم**» يتطلب من الباحث الماركسي أن يتقصى ما يتحكم بدوافع فعل البشر من عوامل موضوعية وذاتية معاً، وما يتمخض عن هذه الدوافع

من حصيلة تجسد واقع مجتمعهم بكل تناقضاته. عليه أن يتقصى ظروف إنتاج وسائل معيشة المجتمع، فهذا الانتاج هو الركيزة المادية لنشاط البشر في صنع تاريخهم.

إن الفكر يتفاعل تفاعلاً عضوياً مع الظروف الموضوعية والذاتية التي في ظلها ينشأ ويتطور. وهذا طبعاً يسري على فكر ماركس الذي شارك علماء زمانه التفاؤل البالغ بدور التطور الصناعي في خلق ظروف موضوعية تسهم في تحول المجتمع من «مرحلة» الرأسمالية الى مجتمع أفضل تجسّد عنده في حلم الشيوعية عبر «مرحلة» الاشتراكية. لكن هذا التفاؤل لا يعني الحتمية. وعدم تحقق الحلم لا يلغي القوة المعرفية في منهج المادية التاريخية، بل يؤكد جدلية التفاعل بين الذاتي والموضوعي في سيرورة المجتمع الى أمام التي تتخللها فترات من الركود، بل حتى التراجع.

٣ـ حول دور انجلز في الماركسية

قبل لقائه مع ماركس، وبصورة مستقلة عنه، كتب انجلز عامي ١٨٤٣ و١٨٤٤ كتابه **«مخطط لنقد الاقتصاد السياسي»**. وفيه اعتبر الجشع المحرك الأساسي في الرأسمالية، من خلال فعل قانون العرض والطلب، باعتباره أهم «القوانين الاقتصادية» للرأسمالية(٣). فإذا تجاوز حجم الطلب حجم العرض لسلعة ما فإن سعرها يرتفع. والجشع يُحفز الرأسماليين على تلبية الطلب من خلال توسيع وتطوير الانتاج بأستثمار المزيد من الرأسمال لزيادة أرباحهم. وهنا لابد أن تسود المنافسة بينهم على الفوز بالنصيب الأكبر من السوق وبالتالي من الربح. وبغياب التنسيق بينهم لابد أن يفيض العرض على الطلب فيفقد العمال مصدر عيشهم: العمل.

شأن زميله الشاب ماركس، أدرك انجلز مبكراً أن التاريخ الحديث يتميز بـ«حتمية اقتصادية» وذلك بفعل منطق الجشع في الاقتصاد الرأسمالي. فالجشع لابد أن يؤدي الى أزمة اقتصادية من خلال التنافس الذي يزيح الرأسمالي الأضعف وصغار المنتجين من الميدان، مما يؤدي الى تضخم حجم البروليتاريا، هذا من جهة، ومن الجهة الأخرى ينشأ **تمركز رأس المال** بيد أقوى الرأسماليين الذين يتغلبون في منافسة غيرهم. وهكذا تؤدي المنافسة بالضرورة الى نشوء الاحتكار عند من يسيطر على السوق.

وكما تؤدي المنافسة الرأسمالية الى الاحتكار عند الرأسماليين، فإنها تؤدي الى المنافسة بين العمال على فرص العمل لضمان العيش. لكن احتكار العامل لوظيفته وللخبرة والمهارة فيها لا يمكن أن ينقذه من البطالة الناشئة عن أزمة فيض الإنتاج. ورأى

انجلز أن إنقاذ المجتمع من عواقب الجشع والتنافس الرأسمالي غير ممكن إلا بالتغيير الجذري للظروف الاجتماعية السائدة: أي إلغاء الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج وتوحيد المصالح المتناقضة للأفراد.

في القرن الثامن عشر أيضاً، تناول القس توماس مالثوس حتمية الأزمة الاقتصادية الرأسمالية تناولاً مغايراً من خلال نظريته حول «فيض السكان». فرأى أن زيادة السكان أسرع من نمو الإنتاج الغذائي، فلابد أن ينشأ فائض سكاني بالمقارنة مع وسائل المعيشة المتاحة لمن يجد عملاً. فأزمة البطالة والفقر تنشأ حتماً بفعل فيض السكان في أي مجتمع(٤).

رد انجلز على نظرية «فيض السكان» بالقول إن فيض القوى العاملة الناجم عن فيض السكان، يرتبط ارتباطاً عضوياً «بفيض رأس المال والأرض» عند الرأسماليين الأقوى بفعل آلية المنافسة المؤدية بالضرورة الى نشوء فيض الإنتاج وما ينجم عنه من أزمات دورية وبالتالي تفشي البطالة والحرمان. وذلك أن الطلب الفعال على المنتجات يقترن في الرأسمالية بتوفر القدرة على الشراء عند المستهلكين، هذه القدرة يفقدها العامل العاطل بطبيعة الحال. وهكذا فإن تراكم الثروة في قطب يقابله تفاقم الفقر في القطب الآخر؛ وهذا تناقض لا مفر منه إلا بتغيير الظروف الاجتماعية تغييراً جذرياً من خلال الاشتراكية. ويشير انجلز الى ضخامة الطاقات الانتاجية المتاحة للإنسان. فإنتاجية الأرض تتنامى بتوظيف المزيد من رأس المال وقوة العمل والعلوم. والتقدم العلمي يساعد البشر على إخضاع قوى الطبيعة لخدمتهم. فالاستغلال الواعي لهذه الطاقة الإنتاجية الهائلة لخدمة البشر جميعاً يقلّص الى حد كبير معاناة البشر. أما تركها تحت رحمة المنافسة الرأسمالية فيسبب تفشي البطالة والعوز، لاسيما عند الأزمات.

مما تقدم يتضح أن انجلز رأى أن الحتمية لا تنشأ إلا بتوفر الظروف الاجتماعية اللازمة لولادتها. فالقوانين الاقتصادية الرأسمالية ليست مطلقة بل مرتبطة ارتباطاً عضوياً بالعلاقات الرأسمالية. وبناء الاشتراكية يزيل ضرورة (حتمية) هذه القوانين. ولعل جدلية الحتمية أكثر وضوحاً في ظواهر الطبيعة. فمزج غازي الأوكجسين والبيوتان لا يولّد انفجاراً محتماً إلا إذا قُرِّبت شرارة الى المزيج. لكن مزج الغازين ليس محتماً، وليس محتماً أيضاً اقتراب شرارة منهما إذا امتزجا. ووعي الإنسان للعلاقة بين المسببات الثلاثة للانفجار يمكن أن يوفر شروط التفجير إذا دعت الحاجة إليه؛ وهكذا يحوّل الوعي الضرورة الى فعل ناجز حر.

إن سيادة الوعي الاشتراكي تمكن الناس، عند توفر الظروف المادية الملائمة، من تحويل حتمية زوال الرأسمالية الى واقع فعلي من خلال عمل حر.

انجلز، إذن، لم يسقط في فخ المادية الميكانيكية فيمسي داعية للحتمية التاريخية، حسب رأي نقاده «اللاحتميين» أو «الإنسانويين التجريديين» abstract humanists الذين اعتبروا أن آراءه كانت المصدر الأساسي لأغلب القراءات الوصفية للماركسية، تلك القراءات التي لازمت الحركتين الشيوعية والاشتراكية ـ الديمقراطية بعد وفاة ماركس. فما ذكرنا من آرائه، وكذلك كتابه «**ديالكتيك الطبيعة**» يدلان على عكس ما يدعي نقاده. فهو يرى أن الضرورة تتضمن الصدفة (العشوائية) والصدفة تتضمن بدورها عنصر الضرورة، وإن تناول أي منهما بمعزل عن الأخرى يؤدي الى الميتافيزيقيا أي الابتعاد عن النمط الجدلي في البحث والتفكير(٥). إن الفصل بين الضرورة والصدفة مصدره «المادية الفرنسية» كما قال انجلز. وقد حاول أنصارها الحتميون حل مشكلة الصدفة بإلغاء دورها كلياً. فلا توجد، عندهم، في الطبيعة إلا الضرورة. وجوهر هذه النظرة الى الطبيعة لا يناسب العلم، شأنه شأن تفسير اللاهوتيين (أمثال أوغسطين) لقوانين الطبيعة بأنها قوانين الإله الأزلية. أما انجلز فرأى أن قوانين الطبيعة والمجتمع على حد سواء لا تفعل فعلها الحتمي إلا إذا توفرت الظروف اللازمة لهذا الفعل.

٤ـ خاتمة

طروحات ماركس وانجلز عن تطور المجتمعات البشرية تتناول بوضوح جدلية التفاعل العضوي بين الوجود والفكر. إذ لم تختزل هذه الطروحات العلاقة بين البشر ومحيطهم (عالمهم المادي) الى علاقة تقررها «الحياة الاقتصادية فحسب»، وبالتالي لم يستنتج ماركس وانجلز بأن التاريخ هو نتاج لمجموع «قوانين اقتصادية» ينحو الى الحتمية. وعلى هذا الأساس، لا يجوز استنباط أي «نبوءة تاريخية» من تحليلاتهما.

إن دراسة ماركس وانجلز للمجتمع الرأسمالي كشفت عن منطق قوانين الحركة في هذا المجتمع باستخدامهما المادية التاريخية كمنهج في البحث الاجتماعي. وأسهمت في البحث عن الدوافع الايديولوجية في نشاط البشر عبر البحث في الظروف الموضوعية التي من خلالها تنشأ العلاقات الاجتماعية للإنتاج المادي. وبتركيزها على العلاقات الإنتاجية للبشر وخصوصيتها التاريخية، تستوعب منهجية المادية التاريخية الحاضر كجزء عضوي من التاريخ. فالبشر يدركون عالمهم، رغم تعقيداته وتشعباته، لأنهم

صانعوه. ويتحقق الفعل التاريخي ــ الاشتراكية، مثلاً ــ من خلال الكفاح، إذ يشكل هذا البؤرة التي حولها تتحد المعرفة والظرف التاريخي. يتطلب ذلك تحشيد الوعي الاجتماعي من خلال التثقيف (الطبقي) والعمل السياسي المنظم: أي بلورة الحزب السياسي ومثقفيه العضويين على حد قول غرامشي.

سئل ماركس ذات مرة: «ماذا نعمل؟»، فأجاب دون تردد: نناضل.

الهوامش

(ملاحظة: الاقتباسات الواردة في النص مترجمة من الأصل الانكليزي من قبل كاتب المقال).

(١) Engels, F., 1970, Ludwig Feuerbach and the End of Classical German Philosophy (Marx & Engels Selected Works - MESW, vol. 3. Moscow)

أنظر الصفحات ٣٦٢، ٣٦٣ و٣٣٩. ملاحظة: التشديد مضاف من الكاتب.

(٢) أنظر Popper, K., The Open Society and Its Enemies, vols. I & II, pp. 78-79 (1945).

وضمن السياق الوضعي ولكن من منطلق ماركسي تكنولوجي ـ ميكانيكي قدم المفكر جيرالد كوهين أفكاراً تصب في نفس المضمار. راجع نقدي لأعمال كوهين في المقال الموسوم «في نقد الحتمية التاريخية: دراسة نقدية في مبادئ الفكر الماركسي»، الثقافة الجديدة، عدد ٢٨٢، أيار ـ حزيران ١٩٩٨، ص٢٢-٣٤.

(٣) أنظر Engels, F., "Outline of a Critique of Political Economy," in Marx & Engels, Collected Works (MECW), vol. 3, p. 418.

أنظر أيضاً الصفحات ٤٢٢-٤٢٤، ٤٣٢، و٤٣٤-٤٣٥.

(٤) Ibid., pp. 437-439.

(٥) أنظر: Engels, F., The Dialectics of Nature, pp. 230-232.

أنجلز بعد مئة عام

١ـ٢

عزيز سباهي

لم يحدث في كل تاريخ البشرية أن واجهت دعوة ما من الحرب والتضييق والتشهير والتشويه والتزييف والافتراء قدر ما واجهته الماركسية. ومنذ انهيار تجربة بناء الاشتراكية في الاتحاد السوفييتي السابق وبلدان أوروبا الشرقية تعالى صراخ المعادين للاشتراكية في كل مكان: أخيراً طويت صفحة الماركسية، أفلست كايديولوجيا، وانتهت كتطبيق، وانصرف كثيرون الى حساب الربح والخسارة... وخلُص بعضهم الى أن الصراع في الحرب الباردة انتهى بمبارزة ثقافية خسرتها منظومة الفكر الماركسي. ليست هذه هي المرة الأولى التي يعلن فيها موت الماركسية. فقبل تسعين عاماً وقف الفيلسوف الإيطالي بنديتو كروتشي ليعلن موت الماركسية... ولكن إثر كل إعلان من هذا النوع تعود الماركسية لتؤكد نفسها من جديد بحيوية وقوة أكبر. إن الماركسية لم تُطرح إلا كتعبير عن حاجة تتطلب الحل لدى الإنسانية... والإنسانية بعد هذا لا تطرح أمامها مسألة ما إلا إذا كانت الشروط المادية لحلها موجودة، أو على الأقل، آخذة بالتكون.

على خلاف ما ذهب إليه خصوم الماركسية، فإن البحث فيها والحديث عنها والدعوة إليها تزداد وضوحاً لاسيما في الغرب وبقوة تلفت النظر. ومهما تعددت المدارس الفكرية وتنامت الدعوات من كل الألوان، يظل الحديث عن الماركسية يشغل موقعاً أساسياً مع فارق جوهري وهو أن الماركسية لم تعد تناقش طبقاً للخطوط «الرسمية» التي افترضتها وفرضتها الأجهزة الايديولوجية البيروقراطية للدولة السوفييتية وإنما استناداً الى ما في

الماركسية ذاتها من مزايا وعيوب. ففي عام ١٩٩٥ انعقد مؤتمران للبحث في ما أسهم به أنجلز في التراث الماركسي، وذلك بمناسبة الذكرى المئوية لوفاته، أحدهما في ألمانيا والآخر في فرنسا. وانعقد بعد هذين مؤتمر دولي آخر حول ماركس، وفي أيار من هذا العام انعقد في باريس مؤتمر عالمي بمناسبة الذكرى المئة والخمسين لصدور (البيان الشيوعي) للبحث في مكانة هذه الوثيقة التاريخية في التاريخ المعاصر قُدم فيه أكثر من ٣٠٠ مساهمة فكرية (أنظر رائد فهمي، طريق الشعب، العدد ١٣ تموز ١٩٩٨). ويتعاظم البحث في الدور الذي تلعبه الماركسية كنظرية اجتماعية لتطوير ستراتيجيات التغييرات الاجتماعية الجذرية، في المجلات الماركسية التي تصدر من مختلف المنابر. وتزداد وتتنوع كثيراً المؤلفات التي تصدر في البحث عن دواعي انهيار التجارب الاشتراكية الأولى، وما يتطلب من تطوير وتجديد في الفكر الماركسي من جوانبه المختلفة. ويجذب النظر بوجه خاص النشاط الملحوظ في هذا الاتجاه في الولايات المتحدة. إن الباحثين الأمريكان، كما أرى، يواجهون رأسمالية تتعقد تناقضاتها ومشاكلها أكثر فأكثر، تماماً مع التقدم الكبير الحاصل في قواها المنتجة. . . إن هذا التقدم الذي تحرزه يبعدها، كنظام اجتماعي، أكثر فأكثر عن إرضاء الاحتياجات الإنسانية على نحو ما تنبأ به ماركس وأنجلز قبل قرن ونصف. وقد جاء انهيار الاتحاد السوفييتي ليعطي الفرصة للمثقفين الأمريكان لتأمل الحقائق بعيداً عن تأثيرات الحرب الباردة.

في هذا الإطار الحي العام كرّست فصلية (العلم والمجتمع) التي تصدر عن دار -Guil ford في كل من نيويورك ولندن، عددها الأول لعام ١٩٩٨ لنشر بعض الأبحاث التي طرحت في المؤتمرين اللذين انعقدا في ألمانيا وفرنسا لإحياء الذكرى المئوية لوفاة فردريك أنجلز. إن اختيار مجموعة صغيرة من الأبحاث الكثيرة التي طرحت فيهما للنشر في عدد واحد من مجلة لابد وأن ينطوي على اعتباطية كما يقول المحرران اللذان توليا نشر العدد، ولابد لمن ينشد الاستزادة أن يعود الى المجلدات التي جمعت فيها أبحاث المؤتمرين. كما أن حديثنا هنا عنها لا يمكن إلا أن يقدم إشارات قصيرة لا تغني مطلقاً عن العودة الى نصوص الأبحاث ذاتها لتلمس العمق الذي جرى فيه تناول الموضوعات المطروحة.

أنجلز، كما هو معروف، أحد الشخصيات التاريخية الموهوبة التي أنجبها القرن التاسع عشر. وبسبب صداقة العمر الحميمة التي جمعته بماركس وتبادل الأفكار المتصل والتعاون الوثيق فيما بينهما تصعب دراسة دوره على انفراد. لكن حاجات العمل

السياسي والفكري المشترك والظروف الصحية السيئة لماركس فرضت عليهما نوعاً من تقسيم للعمل مكّن من بروز مواهب انجلز الكبيرة في جوانب خاصة من نشاطهما المشترك. لقد توصل الإثنان، كلٌ من جانبه، الى ذات النتائج، وكما يقول ماركس في مقدمة (مساهمة في نقد الاقتصاد السياسي): «إن فردريك أنجلز، الذي أخذتُ أتبادل معه الآراء باستمرار عن طريق الرسائل منذ ظهور ملاحظاته العبقرية في نقد المقولات الاقتصادية (في «الحولية الألمانية الفرنسية») قد توصل بسبيل آخر الى نفس النتيجة التي توصلت إليها أنا (راجع كتابه «حالة الطبقة العاملة في انجلترا»)». ولكن بعد أن توصل الإثنان الى الفهم المادي للتاريخ وراجعا وجدانهما الفلسفي السابق ـــ كما يقول انجلز ـــ انصرف كل منهما الى معالجة موضوعات كثيرة مختلفة في السياسة والاقتصاد والفلسفة وغيرها. إن الصداقة العميقة الأسطورية التي جمعت بينهما، والتعاون والتبادل الذي لم ينقطع في الآراء بينهما (كاد التراسل بينهما أن يكون يومياً)، جعلت من الصعب دراسة أنجلز بمعزل عن تأثير ماركس، ولقد كان الأول يحرص أشد الحرص على أن يضع نفسه بعد صاحبه. فقد كتب الى فرانتس مهرينغ تعقيباً على مقالة الأخير «في المادية التاريخية» التي صدرت عام ١٨٩٣: «لقد عرضتَ فيه كنه المسألة عرضاً ممتازاً، ومقنعاً لكل امرئ لا رأي مسبقاً له. وإذا كانت تظهر عندي بعض الاعتراضات فليس ذلك إلا لأنك تنسب إليّ من الأفضال أكثر مما ينبغي، حتى وإن اعتبرنا كل ما يبلغ إليه تفكيري، أغلب الظن ـــ مع مر الزمن ـــ بصورة مستقلة، وما اكتشفه ماركس قبلي بزمن طويل، وهو الذي يتحلى بنظر أبعد وأفق أوسع». قلنا إن نوعاً من تقسيم العمل الفكري قد تطور بينهما بعد أن فرغ الإثنان من تحديد الأسس الفلسفية التي تقوم عليها نظراتهما الايديولوجية العامة وحددا موقفهما من الفلسفة الألمانية العامة ممثلة آنذاك بهيغل وبفيورباخ من بعد. فبينما انصرف ماركس الى البحث في الأسس الاقتصادية التي تنهض عليها التصورات الايديولوجية، وجرّه ذلك الى الانصراف بكل ما يملك من طاقة الى دراسة الاقتصاد في المجتمع الرأسمالي مستخلصاً الأسس التي تقوم عليها نظريته في عمله الأساس، (رأس المال) بمجلداته الأربعة، انصرف أنجلز الى دراسة الجوانب الأساسية الأخرى في نظريتهما الاشتراكية، مركّزاً بوجه خاص، على الدراسات الفلسفية، وخرج من دراساته بعدد من المؤلفات مثل (السيد دوهرنك يقلب العلم ـــ أو ضد دوهرنك) و(لودفيج فورباخ ونهاية الفلسفة الألمانية الكلاسيكية) و(ديالكتيك الطبيعة) و(أصل العائلة والملكية الخاصة والدولة). إن أنجلز صاحب الآفاق

الموسوعية الهائلة، والذي كان يتقن القراءة بـ(٢٨) لغة، والذي اعتبر الباحث الأول في النظم العسكرية، وصاحب المؤلف الشهير عن أحوال الطبقة العاملة في بريطانيا وكثير من الدراسات الأخرى الهامة في المسألة الفلاحية والسكن وغيرها، كان يمكن أن يبدع أعمالاً كبيرة أخرى لولا أنه قد أوقف نشاطه الفكري الأساسي طوال السنوات الاثنتي عشرة الأخيرة من حياته عقب وفاة ماركس الى تنقيح وتحرير المسودات المخطوطة التي خلفها ماركس وراءه من (رأس المال) وإصدار المجلدين الثاني والثالث مخلفاً المجلد الرابع الذي أتم كارل كاوتسكي تحريره وإصداره من بعد. وكما ينقل لينين عن آدلر ــ الاشتراكي الديمقراطي النمساوي ــ أن أنجلز بإصداره المجلدين الثاني والثالث من (رأس المال) قد نصب لصديقه العبقري أثراً جليلاً كتب عليه، دونما قصد، بأحرف لا تمحى، اسمه الخاص الى جانب اسم ماركس، ويعلق لينين «إن هذين المجلدين من (رأس المال) هما، بالفعل، عمل ماركس وأنجلز المشترك».

وقف الباحثون حيال أنجلز مواقف متباينة. فالمدرسة السوفييتية الرسمية في الماركسية لم تسع الى البحث في الخصائص الفردية لكل من ماركس وأنجلز. فمنذ أن خرج ستالين عام ١٩٣٤ بما عرف بـ«الديامات»*، الذي حول الماركسية الى نظام مغلق ذي قوانين خاصة لا يجوز الخروج عليها أو المس بها، ووضع للنظرية تسلسلها المعروف: «الماركسية ــ اللينينية» (وفي فترة تالية من بعد أضافت هذه المدرسة: الستالينية، الى هذا التسلسل) وغدت تعرف بـ«الماركسية ــ اللينينية ــ الستالينية» ــ استناداً الى ما اعتبر إضافة فلسفية لستالين وفقاً لما جاء في كراسه (المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية)... لم يعد ينظر الى التأثيرات الخاصة، وأصبح ينظر الى النظرية كنظام موحد، مغلق، ومتكامل. في المقابل، سعى عديدون في الغرب، انطلاقاً من موقفهم المناهض لهذا النظام المقفل، الى إرجاع أسسه الى أنجلز بالذات، وحاولوا أن ينظروا الى مؤلفاته الفلسفية على هذا الأساس.

لقد سعى أنجلز في مؤلفاته الفلسفية الى توضيح الأسس التي يقوم عليها التناول الماركسي للمفهوم المادي عن التاريخ... وتطلب منه ذلك أن يدرس الطبيعة ليستخلص القوانين الديالكيكية الموضوعية التي تحرك وتطور الظواهر التاريخية. وإذا كانت الظواهر الطبيعية تخضع الى حتمية قوانين محددة يمكن التدليل عليها في التجارب

* كلمة مركبة من أول حروف كلمتي Dialectical Materialism ــ أي المادية الديالكتيكية. (ث جـ)

المختبرية فإن التاريخ الإنساني يخضع الى حتمية ولاحتمية في ذات الوقت. «يُصنع التاريخ بنحو تحصل معه النتيجة النهائية دائماً من تصادم كثرة من الإرادات الفردية، مع العلم أن كلاً من هذه الإرادات تصبح ما هي عليه بالفعل وذلك من جديد بفضل طائفة من الأحوال الحياتية الخاصة. وهكذا يوجد عدد لا يحصى من القوى المتشابكة، مجموعة لا نهاية لها من متوازيات أضلاع القوى، ومن هذا التشابك تنجم قوة محصلة واحدة هي الحدث التاريخي. وهذه النتيجة يمكن أيضاً اعتبارها نتاج قوة واحدة تفعل فعلها ككل واحد، بلا وعي ولا إرادة. ذلك أن ما يريده امرؤ يلقى المعارضة من جانب أي امرئ آخر، وتكون النتيجة النهائية ظهور شيء لم يرغب فيه أحد. وعلى هذا النحو يسير التاريخ، كما سار حتى الآن، أشبه بتطور طبيعي، ويخضع، من حيث جوهر الأمر، لنفس قوانين الحركة. ومن هذا الواقع، وهو أن إرادات مختلف الأفراد الذين يريد كل منهم ما تدفعه إليه بنيته الجسدية والظروف الخارجية، أي الاقتصادية في آخر المطاف (أو ظروفه الخاصة الشخصية أو الاجتماعية العامة) ــ أن هذه الإرادات لا تبلغ ما تريده، بل تتمازج في شيء وسط، في قوة محصلة مشتركة واحدة، ــ من هذا، لا يجوز مع ذلك الاستنتاج أن هذه الإرادات تساوي صفراً، بل بالعكس. فإن كل إرادة تشترك في القوة المحصلة وتندرج فيها بالقدر نفسه» (من رسالته الى بلوخ ٢١ أيلول ١٨٩٠).

إن القوانين الاجتماعية، كما يقول بول سويزي بصواب، «تتناسب صحتها مع مستوى التجريد الذي اشتقت على أساسه، وهي تخضع لتعديلات متفاوتة وإن لم يكن بالضرورة في كل الأحيان، على مستوى أدنى من التجريد، أي حين تؤخذ بعين الاعتبار جوانب أكثر من الواقع، أي حين ينظر إليها في مستوى أكثر ملموسية» (ودود حمد، الثقافة الجديدة، حزيران ١٩٩٨) وهذا ما لم تفعله المدرسة السوفييتية الرسمية إذ تعاملت مع الظواهر الاجتماعية بمثل الصرامة التي تتعامل بها مع الظواهر الطبيعية.

في البحث الذي طرحه الفيلسوف الفرنسي المعروف جورج لابيكا، تناول دور أنجلز في الفلسفة ومنذ البداية يضع لابيكا القارئ أمام ملاحظة مثيرة وهي أن النظرية الماركسية ليست بمنجى من الصعوبات الناجمة عن تطورها وتنقيحها وغموضاتها، وفوق كل شيء عدم اكتمالها. ثم يشرع في الحديث عن دور أنجلز. يشير الى أن ماركس كان يفكر في تناول الفلسفة من جديد، ويكتب في عام ١٨٦٨ الى يوسف ديتغن (العامل الألماني الذي توصل بطريقته الخاصة الى المادية الديالكتيكية بمعزل عن ماركس وأنجلز): «حين أتخلص من عبئي الاقتصادي سأكتب في الديالكتيك». ثم يلاحظ أن

مداخلات أنجلز الفلسفية جاءت كردود أفعال. يستوي في هذا مؤلفه المعروف (السيد دوهرنك يقلب العلم) أو بالعنوان المختصر (ضد دوهرنك) والذي جاء رداً على تهجمات دوهرنك على ماركس والماركسية، أو كتابه (لودفيغ فورباخ ونهاية الفلسفة الألمانية الكلاسيكية)، الذي جاء نقداً لكتاب شتاركه عن فورباخ. . . لقد ادعى دوهرنك الاشتراكية وأحرز نفوذاً كبيراً بين صفوف الاشتراكيين ووضع مؤلفاً من ثلاثة مجلدات حشد فيها الحجج من كل لون ومفاهيم في كل موضوع للتدليل على أن «القوانين الأساسية للنظام الكوني لم توجد منذ الأزل إلا لتؤدي» الى النظرية التي توصل إليها وخطة عملية مكتملة لتحويل المجتمع هاجم فيها أسلافه وخص منهم ماركس بالنصيب الأوفى. لذلك تعيّن الكشف عن هوية اشتراكيته، وماركس هو الذي أوصى أنجلز بذلك. لقد فرضت طبيعة وحجم الهجوم الذي شنه دوهرنك طبيعة وحجم الهجوم المضاد. ومع أن أنجلز نفى في مقدمته أنه يطرح نظاماً فكرياً إلا أن شمول نهج خصمه أعطى أنجلز الفرصة الى أن يبدي رأيه ورأي ماركس في التنوع الكبير من المواضيع والأفكار التي جاء بها خصمه ويعرضها بصورة مترابطة أكثر بكثير مما ورد في الماضي، وكان هذا «هو السبب الرئيس» الذي دفعه «الى القيام بهذه المهمة المزعجة من جميع النواحي» على حد قوله. ويلاحظ لابيكا أن ما أصبح يعرف بالفلسفة الماركسية قد نشأ في هذه الأجواء، أجواء الردود والإيضاحات وإن كان يتحفظ، أي لابيكا، في كون أنجلز قد انكب على دراسة العلوم الطبيعية حتى قبل ذلك، وأنه قد انتفع في رده على دوهرنك من ملاحظاته التي دوّنها في دراسته العلوم الطبيعية، وأن هذه الملاحظات غدت الأساس الذي دفع الى ظهور مؤلفه (ديالكتيك الطبيعة)، ويسوق تحفظاً آخر وهو أن ماركس هو الآخر قد عني بهذه القضايا وأنه كان يناقش انجلز بين حين وآخر فيها، وأن كليهما كان معجبين بآثار الداروينية والتقدم الحاصل في العلوم الرياضية وأنهما ساندا العلماء الذين سعوا للتخلص من آثار الأفكار المثالية والايديولوجية الدينية في ميادينهم العلمية.

يثني لابيكا على تقييم لينين للآثار التي خلفتها مؤلفات أنجلز الفلسفية ويستشهد بقوله «إن من المستحيل فهم الماركسية وتقديم عرض كامل لها من دون أخذ كامل أعمال أنجلز في الاعتبار» ويورد قول لينين إن «من الطبيعي تماماً أن يتعين على ماركس وأنجلز أن يوجها انتباهاً مثابراً لا الى تكرار ما قالاه من قبل بشأن المادية وإنما لتطويرها جدياً ولتطبيقها في ميدان التاريخ، أي لإتمام عمارة الفلسفة المادية». لقد كان لينين، كما يقول

لابيكا، يدرك أن هذا النظام لم يكتمل، لكنه ينطوي على كل العناصر التي تؤهل إكماله وتطبيقه، ويقول إنه هو نفسه قد انصرف الى هذه المهمة منذ أن وضع مؤلفه (أصدقاء الشعب ونضالهم ضد الاشتراكيين الديمقراطيين) عام ١٨٩٤. إن مؤلفات لينين الفلسفية هي الأخرى جاءت كردود ومعالجة أوضاع متأزمة في الحركة الثورية، وكدفاع ضد المحاولات المثالية لتشويه الماركسية في ميدان الفلسفة.

لقد بنى لينين أطروحته المركزية في هذا الشأن على الحجة التالية: إن ماركس انصرف الى الجانب التاريخي، وإن أنجلز قد ركز على المادية الديالكتية حيث نجم عن إهمال تأكيدها الارتداد نحو الميتافيزية (كما هو الشأن مع دوهرنك) أو نحو الاقتصادوية (كما هو الشأن مع بلوخ وبورغيوس)، وبعد أن تمّ «قلب» هيغل لم يعد مهماً سوى المادية. باتت الأولوية الآن للجانب المادي مقابل الديالكتيك وباتت الجوانب التاريخية تؤلف جوهر المادية، والتي من أجل أن تُحقّق يلزم أن تتكامل بالضرورة مع الديالكتي والتاريخي، وجرياً على هذا المنوال من التحليل دعا لينين في دفاتره «أن يُقرأ هيغل كمادي»، واستناداً الى هذا دعا في عام ١٩٢١ الى تأسيس جمعية للأصدقاء الماديين الديالكتيين.

يلاحظ لابيكا أن بعد وفاة «الأبوين المؤسسَين» وحين كان لينين لايزال يشحذ أسلحته النظرية، ظلت مسألة إنشاء فلسفة ماركسية قضية مفتوحة. كان الماركسيون يحاورون في مختلف الميادين، وبكثافة وانفعال. ويصح هذا بوجه خاص على كل من أنطونيو لابريولا في إيطاليا وجيورجي بليخانوف في روسيا. نشر الأول (مقالات حول المفهوم المادي للتاريخ)، فيما نشر الثاني (المفهوم المادي للتاريخ). وخلال الأزمة الأولى للماركسية التي أثارها مازاريك في كتابه (تاريخ الاشتراكية والماركسية) نشر لابريولا كتابه (حول أزمة الماركسية) فيما نشر بليخانوف مؤلفه (بشأن كتاب مازاريك). نادراً ما كان يتفق الإثنان رغم تماثلهما النسبي. فبليخانوف آثر المادية الديالكتية رغم أن ذلك لم يمنعه من الانحراف نحو الكانتية (وهذا ما نعته به لينين في بداية كتابه ـــ المادية والنقد التجريبي) في نقاشه مع كونراد شميدت، بينما اختار لابريولا (الذي سبق أن عبّر الى انجلز عن شكوكه تجاه كلمة الديالكتيك) المادية التاريخية أو ما كان يميل الى دعوته بـ«المادية النقدية». بالنسبة الى بليخانوف «المادية التاريخية هي أحد الحقول التي تدرسها المادية الديالكتية» أما لابريولا فكان يطمع في أفق ضيق «الفلسفة هي إما توقع شامل للقضايا التي يتعين على العلم أن

يصوغها بالتحديد أو خلاصة وصياغة مفهومية للنتائج التي توصلت لها العلوم». من جانب آخر كان كارل كاوتسكي، الذي كان يدافع عن حاجة الماركسيين الى حرية الرأي في ميدان الفلسفة، مشدوداً في ذات الوقت الى النظرية الاقتصادية، فيما كان كونراد شمدت، الذي كان قد تلقى بعضاً من أشهر رسائل انجلز الفلسفية، قد انحاز الى جانب الكانتية. من مجموعة هذه المواقف وغيرها يتوصل لابيكا الى أن البحث في الفلسفة كان آنذاك على النحو التالي: تشوش في المواقف من جانب ومحاولات للبناء متناثرة. كما يلاحظ أن لينين حتى وفاته كان حريصاً على أن لا يفرض أية أرثدوكسية في المذهب.

بيد أن نقطة الانعطاف باتجاه فرض فلسفة رسمية مقننة جاءت مع ستالين في عام ١٩٢٩. وقد تجسدت هذه في كراسته ذات الثلاثين صفحة (المادية الديالكتية والمادية التاريخية)، والتي وصفها قاموس روزنتال ويودين الفلسفي بـ«عرض نظامي وكامل للمبادئ الأساسية للفلسفة الماركسية». لقد جرى رسمياً تشبيه الفترة التي مرت بها الماركسية من ثلاثينيات هذا القرن بأزمة الماركسية من الفترة ما بين ١٩٠٨ و١٩١٢ للإيحاء بأن ما يقوم به ستالين يماثل ما حققه لينين في النضال على الجبهة الفلسفية لدحر خصوم الماركسية أمثال ماخ وأفيناريوس. وقد فعل الإيحاء فعله وباتت أفكار ستالين هنا هي النظام الكامل والشامل الذي يتعين على الحزب السوفيتي، ومن بعد الأحزاب الشيوعية الأخرى، أن تتحرك في هديه، وغدا السكرتير العام للحزب الشيوعي السوفيتي، هو وحده من يعبر رسمياً عن النظرية، وهو وحده الذي يملي السياسة لكامل الحركة الشيوعية*.

كانت حصيلة كل هذا أن بات أنجلز هو المتهم. فمن جانب بات الذين يصفهم لابيكا بالعاملين سراً للدفاع عن وجهة نظرهم الخاصة في الماركسية المناهضة للخط الرسمي الستاليني يوجهون سهامهم نحو «الانجلزية» ويحمّلونه مسؤولية ما حل بالماركسية على يد المدرسة الستالينية الجدانوفية لأنه وضع اللبنات الأولى للنظام الفلسفي، فيما كان أعداء الماركسية من الأساس يوصلون خطاً من ستالين حتى ماركس متمثلاً بـ«الانجلزية».

* لعل ما أورده السكرتير الأول للحزب الشيوعي العراقي فهد، في كراسه حزب شيوعي لا إشتراكية ديمقراطية، في هذا الشأن، خير وصف للحالة التي يتحدث عنها لابيكا.

إن لابيكا يحيلنا الى كثير من الفلاسفة والباحثين، ويكتفي في أكثر الأحايين بإشارات عابرة جداً، استناداً الى أن سامعيه قد اطلعوا ودرسوا مؤلفاتهم، لذلك يصعب متابعة مداخلته بإيجاز شديد. لكنه يختتم بإشارتين مهمتين يحسن التنويه بهما: أولاهما أن انجلز كان حذراً في مداخلاته الفلسفية، لاسيما في ميدان العلوم الطبيعية، وكان عارفاً بحدود معارفه في هذا الشأن، كما كان عارفاً بالطبيعة السجالية لمؤلفاته. ثانيهما، أنه كان يريد من معالجاته الفلسفية أن يتمعن في الاكتشافات العلمية الحديثة ويدخلها في إطار منظور نظري يصون من خلاله العلماء الذين كانوا يجهلون الفلسفة من الضياع والتشوش في متاهات الميتافيزيا. لقد كان انجلز منطقياً تماماً حين قال إن التقدم في مجال العلم النظري للطبيعة قد يجعل عملي زائداً عن اللزوم في معظمه بل حتى كله.

في ختام البحث يشيد جورج لابيكا بأبحاث Ludovico Geymonat ومدرسته في اتجاه المادية الديالكتية ويرى أنها خالية تماماً من آثار (الديامات)، وهي في علاقة مباشرة مع تاريخ العلوم كما كان يرغب انجلز، ويقتبس في هذا الشأن قول انجلز: «إن علم الفكر، كما هو الشأن مع أي علم آخر، علم تاريخي، علم التطور التاريخي للفكر البشري».

***

في البحث الثاني يعالج گيرت شيفر Gert Schaefer الموضوع ذاته من زاوية أخرى تحت عنوان (فردريك انجلز، هل كان بانياً لنظم مغلقة؟) يلاحظ أولاً أن انجلز يلقى التمجيد من جانب، ويُدان من جانب آخر على اعتبار أنه رائد نظام «الديامات». لقد حُوِّلت أفكاره بشأن قوانين التطور الديالكتي في الطبيعة والتاريخ الى ما كان يحذر منه بالضبط، الى «مجموعة من المذاهب الدوجماتية، تعلَّم بالحفظ والاستظهار تماماً كما هي الحال مع الأدعية والصلوات الكاثوليكية». لقد كتب انجلز الى اسحق أدويفوج گيروج في شيكاغو: «لعلك تعرف بنفسك أن مقاطع أخذت من كتابات ماركس ومراسلاته، وفسرت بطرق متناقضة للغاية، تماماً كما لو كانت نصوصاً للمؤلفين القدامى أو من (العهد الجديد)».

مثل هذا قد حدث لأفكار انجلز حول المادية والديالكتيك بوجه خاص. كذلك امتزج الحوار حول انجلز بالصراعات التي دارت بين «الماركسية السوفييتية» و«الماركسية الغربية» حول «الديالكتيك في النظرية والتطبيق»، وحول «الذات والموضوع» وحول

«الطبيعة والتاريخ». لقد سعى عديدون الى الربط بين ما ذهب إليه انجلز في مؤلفاته الفلسفية وما انتهت إليه المدرسة الفلسفية السوفييتية على يد ستالين وأتباعه، ويورد شيفر مثالاً على ذلك ما كتبه هيلموت فليشر بقوله إن «فكرتهم العامة للفلسفة تشتق بناء هذا النظام من تعريف انجلز للديالكتيك المادي: علم القوانين العامة لحركة وتطور الطبيعة والمجتمع البشري والفكر. . .»، وما أورده هربرت ماركوز بشأن العلاقة ما بين المادية التاريخية والديالكتيك المادي كما يتجسدان في الفهم السوفيتي للماركسية، وفقاً للتقليد الستاليني. فالتاريخ، الذي هو بموجب النظرية الماركسية البعد المقرّر والحاسم في صحة الديالكتيك، هو لدى الماركسية السوفيتية حقل خاص تؤكد فيه القوانين التاريخية وما فوق التاريخية (. . .) وبهذا ترتقي التطويرات وأوجه التقدم السوفيتي الى منزلة القوانين الطبيعية الموضوعية».

يسعى هيلموت فليشر الى أن يجد تبايناً بين ماركس وانجلز. فبينما ماركس كمفكر ينظر الى أفق الحركة الإنسانية والاجتماعية والتاريخية، والطبيعة ماوراء البشرية، بالنسبة له، وإن لم تكن في وجودها هي، تظل موضوعاً مناسباً للإدراك وتؤلف مجرد ركيزة على ترابط مع النشاط البشري، فإن انجلز ذو فهم كوزمولوجي للطبيعة، والوجود الإنساني بالنسبة له، يبدو كلحظة في حياة الطبيعة، خاضع الى تركيبها الكوني.

إن المؤلف يرى أن لا يمكن الوصول الى استنتاج كهذا إلا نتيجة للتشويه. إن محاولات انجلز وجهوده لاكتشاف القوانين الديالكتية العامة للحركة والتطور لا يجمعها جامع بالسعي من أجل أنظمة مفتوحة أو مغلقة، ناهيك عن نوع من المعرفة المطلقة أو تحكّم شمولي في العالم حتى وإن كان ذا براعة نظرية أو تطبيقية.

إن انجلز، شأن كثير من معاصريه، سعى الى شكل تقدمي للتطور في العالم المادي والتاريخ والطبيعة والإنسانية «للارتقاء من الأدنى الى الأعلى عبر جميع التعرجات وجميع الخطوات المؤقتة الى الوراء»، وأكثر من هذا، كانت «القوانين الديالكتية للتطور» بالنسبة له، أشبه بجسر يوصله ـــ سواء وفق روح ذلك العصر أو ضدها ـــ الى مفهوم مادي وكذلك ديالكتي للارتقاء. إن انجلز في رفضه للمثالية (والفكرة المطلقة لهيغل) وكذلك لـ«المادية المبتذلة» السائدة آنذاك، وفوق كل شيء، في معارضته «نظام الفلسفة» لدى دوهرنك، كان يدفع ـــ بفعل هجمات وتكهنات الأنصار والخصوم على السواء، نحو توفير أحجار البناء لإنشاء ايديولوجيا مذهبية شمولية ـــ رغم نقده المتكرر الذي كان يوجهه نحو بناء مثل هذا النظام.

كان انجلز، كما يلاحظ شيفر، يرى في التعميمات (generalizations) التخطيطية schematic أمر مرعب. فقد كتب الى كارل كاوتسكي، على سبيل المثال: «على العموم لقد أقدمتَ على قدر كبير من التعميمات، ولذلك أصبحت «مطلقاً» كثيراً، فيما «النسبية» هي المطلوبة. . .» (مرة أخرى أمام مذهب، أمام ism. . .!). ومع ذلك فكما يلاحظ شيفر، حين أقدم دوهرنك على طرح دعواه وشعر أنجلز أنه أمام تحد، وقع ضحية مساعيه هو لتصور علم للقوانين العامة للحركة والتطور.

لقد كان انجلز يناهض فكرة الأنظمة. ففي ملاحظاته التحضيرية لمؤلفه (ضد دوهرنك) يكتب: «الأنظمة (systematik) بعد هيغل ـــ مستحيلة. واضح أن العالم يمثل نظاماً موحداً، أعني، كلاً مترابطاً، لكن إدراك هذا النظام يفترض معرفة كامل الطبيعة وكامل التاريخ، وهذا ما لن يحققه الإنسان إطلاقاً. فمن يشاء إذن صنع أنظمة يتعين عليه أن يملأ فجوات كثيرة بما يصنطعه هو، أي الانغمار اللاعقلاني بالخيالات والايديولوجيات. . .» وكما يقول هو: «نحن لا نستطيع أن نعرف سوى ما تحدده شروط عصرنا». كان يؤمن بالتقدم العلمي والاجتماعي غير المحدود للإنسانية، لكن من السخف الاعتقاد بأن البشرية ستتوصل الى معرفة وإدراك مطلقين للعالم، (. .). نحن بالأحرى نقف، في كل الاحتمال، عند بداية التاريخ البشري، والأجيال القادمة ستصححنا. . .». ويختتم شيفر بحثه قائلاً: كم كان انجلز بعيداً، حقاً، عن الدوجماتية.

***

ارتباطاً بالبحثين السابقين، يمكن هنا أن نطرح البحث الذي عرضه يوست كيرش (Joost Kircz) أستاذ الفيزياء في جامعة أمستردام في هولندا بعنوان (انجلز وعلم الطبيعة: نقطة انطلاق). اتخذ الباحث الحديث عن فردريك انجلز كنقطة انطلاق ليطرح بعض الأفكار حول العلم. منذ البداية يلاحظ أن ماركس وانجلز في معالجاتهما لتحليل العالم لم يؤمنا بمبدأ الفن للفن، وإنما استهدفا فهم العالم المحيط من أجل تغييره.

يشير كيرش أن أنجلز بعد أن تحرّى لسنوات طويلة ديالكتيك الأوجه السياسية والاجتماعية والاقتصادية للمجتمع من منظور مادي تاريخي لاحظ أن هناك امتدادين:

الأول يتمثل بالفكرة القائلة: إذا كانت كل ألوان التعبير عن النشاط الاجتماعي الإنساني ديالكتية في الجوهر، فإن بعض الديالكتيك العميق ينبغي أن يكمن في مستوى أوطأ، أكثر أولوية، من الطبيعة. أي أن الطبيعة غير البشرية لابد وأن تدخل بعضاً من

الخصائص الأساسية في الأشكال الأعلى من الحقيقة، في الطبيعة الحية أولاً، ومن ثم في تفكير الإنسان ذاته.

الثاني: أن جميع النشاطات البشرية الواعية ينبغي أن تكون على توافق مع الطبيعة غير الحية وكتسام لها. وهكذا فإن تبلور التفكير في اللغة يطرح مباشرة قضية الكل والأجزاء. إن كل الأوصاف العلمية للطبيعة تتعامل مع موضوعات متداخلة ببعضها، وتؤلف جميعاً الحقيقة، وبالتالي، يقول انجلز إن التفكير العلمي يجب أن يكون ديالكتياً، والعلماء هم ديالكتيون وإن لم يعوا ذلك.

كانت مساهمات انجلز مهمة على مستويات مختلفة. فقد أكد أولاً تاريخية العلم كوظيفة للرأسمالية المنبثقة. ومنذ أن طرح الوفد السوفيتي في المؤتمر الأول لتاريخ العلم والتكنولوجيا في لندن عام ١٩٣١ مداخلاته في هذا الشأن تزايد الاهتمام في الأمر كثيراً، وظهر على الأثر جيل جديد من النشطاء اليساريين في انكلترا أمثال برنال وكودويل وهالدين ونيدهام وغيرهم، وسرعان ما امتد هذا النشاط الى أنحاء العالم الأخرى وظهر ميدان جديد للنشاط العلمي عُرف باسم سوسيولوجيا العلم الذي يدرس كيف أصبحت العلوم ما هي عليه الآن في الإطار التاريخي ـــ الاجتماعي.

وجاءت مساهمات انجلز ثانياً في مجالي ابستمولوجيا وأنطولوجيا العلم، وقد تجاوزت فكرة العلم كنشاط اجتماعي وأثارت مسائل أساسية في فهم وتغيير العالم.

ومع ذلك، فإن أعمال انجلز لم تأت واضحة دائماً. ويرجع ذلك الى سجاليتها وانصرافها أساساً الى محاربة أفكار من تُوجه لهم أساساً كدوهرنك مثلاً، ولأن انجلر اعتمد في محاججاته على الأمثلة أولاً ولم تكن جميعها دقيقة واعتمدت مصادر قديمة. وقد دفعت أوجه القصور هذه الى توجيه النقد الى بعض جوانب أعماله لاسيما في مجال قدرة العقل البشري على خلق تركيبات من (الشروط والنتائج if-then) التي لا علاقة لها بالوقائع الملموسة، (انظر فان هينورت Van Heijenoort). إن تأكيده على التناقضات واعتبارها جوهر العلم المتقدم وبحثه عن الديالكتيك في الطبيعة دفعه الى إهمال ما كانت تحققه الرياضيات من خطوات هائلة في القرن التاسع عشر فصلتها عن الواقع الفيزياوي، ومواصلة الحرب على المثالية بسوقه سيلاً من الأمثلة.

يثير الباحث بعدها أربعة تساؤلات مهمة بصدد العلاقة بين العلم والاشتراكية:

١ ـــ هل العلم سلاح في الكفاح من أجل الاشتراكية؟

٢ ـــ هل الاشتراكية ذاتها علم؟

٣ــ هل تساعد النظرة الاشتراكية في تطور العلم؟

٤ــ هل يوجد علم اشتراكي؟

تتركز المناقشة في هذا الشأن في موقفين: الأول يتمثل بالتقليد الستاليني الذي ينظر الى الأفكار الواردة في (ديالكتيك الطبيعة) و(ضد دوهرنك) كمجموعة من الحقائق المسلم بها والتي لا تحتاج الى تطويرات وتحسينات أبعد، ويرتبط بهذا الاتجاه التقليدي المحاولات التي تسعى الى البرهنة على أن العلوم الأكثر تقدماً هي ديالكتية. المشكلة هنا، أن هذا النوع من الممارسة لا يضيف إلا أمثلة مُحسنّة لديالكتيك العلم والبايولوجيا.

من الجهة المقابلة، هناك المحاولات التي تسعى للدفاع عن أنجلز من خلال وضعه في سياقه التاريخي. والمسألة هنا تتمثل في الهجوم على الرأسمالية المستندة الى العلم الحديث (وليس في النتائج التي تنجم عن التطبيق الرأسمالي للعلم الحديث).

يدخل كيرش بعدها في مناقشة التساؤلات الأربعة التي طرحها:

أ: **هل العلم سلاح في الكفاح من أجل الاشتراكية؟** بادئ ذي بدء يمكن القول إن معرفة العالم هي مفتاح تغييره. وكلما تعرفنا أكثر على الآليات (الميكانيزمات) والتفاعلات في الطبيعة، كان ذلك أفضل في توجيه التغييرات في الطبيعة بالتوافق مع سيرورة أصح للحياة وليس العكس. ومع ذلك، فليس العلم حراً من تأثيرات بيئته. فتطور أي علم خاص، وأية أفكار خاصة، يتأثر الى حد بعيد بالايديولوجيا السائدة.

إن تحرر الجنس البشري وإمكانية اتخاذ القرارات تحددهما الطبيعة. فليس كل تخيلاتنا ممكنة التحقيق؛ لذلك يرتبط جوهر العلم ارتباطاً وثيقاً بالحرية الإنسانية. وكما يؤكد انجلز: «كلما زادت حرية المرء في اتخاذ القرار تجاه المسألة المعينة، زادت الضرورة التي ينطوي عليها هذا القرار المتخذ؛ بينما يظهر الشك المبني على الجهل، والذي يؤدي الى اتخاذ خيارات اعتباطية من بين كثير من القرارات الممكنة والمتعارضة، أنه ليس حراً، وهو يخضع الى ذات الشيء الذي تجب السيطرة عليه. لهذا فالحرية تتألف من السيطرة على أنفسنا وعلى الطبيعة الخارجية، وتتأسس على معرفة الضرورة الطبيعية. لهذا فالضرورة هي نتاج التقدم التاريخي». إن كل الثمار التكنولوجية للعلم، تنشأ وتتطور في بيئات تاريخية اجتماعية ــ اقتصادية محددة تحديداً جيداً.

ب: **هل الاشتراكية ذاتها علم؟** انطوى كتاب انجلز (ضد دوهرنك)، لاسيما في فصوله التي تتحدث عن تطور الاشتراكية من يوتوبيا الى علم، على أفكار هي بمثابة شواخص في

السياسات الاشتراكية. ورغم أن هذه الأفكار كانت البداية الأولية في النضال ضد المثالية، إلا أنها ترسي أساساً صلداً للمادية. إن العلم، شأن السياسة، لا يمكن أن يحيا دون غاية. إن حب الاستطلاع والاكتشاف والتغيير كان دائماً من المحركات الأساسية لتطور الإنسان. إن الحلم بعالم أفضل لا يمكن أن يتحقق مطلقاً دون معرفة عميقة بآليات وتعقيدات بيولوجية وسايكولوجية الإنسان وسلوكه الاجتماعي. بيد أن تطبيق العلم في المجتمع والطبيعة بهدف التغيير ينبثق من داخل المجتمع ذاته، وليس شيئاً يفرض على هذا المجتمع. لذلك تغدو العلوم صراعاً دائماً بين العالم الحقيقي ومعرفة المجتمع المحددة تاريخياً. ولكن رغم أن سبيل العلم الناجح يتحدد اجتماعياً، فإن طاقة الإنسان العقلية على وضع الشروط والنتائج (if-then) قادرة حقاً على اختيار الاتجاهات. وهذا يعني أن العلم التحريري يربط ما بين المعرفة العميقة بديناميات المجتمع المعاصر والفهم القوي لغاياته. لم يتيسر الوقت الكافي لانجلز ليطور العلم الاشتراكي. والمجال الوحيد الذي أمكن تطوير العلم الاشتراكي فيه كان هو الاقتصاد. لذلك فإن أفكار انجلز هنا لا تخدم، للأسف، إلا كبواعث للطموح.

إن ماركس في دراسته للرأسمالية يعطينا نموذجاً للاشتراكية كعلم. يلاحظ باتريك ميوري Patrick Murray أن ماركس «قد قبل بمطلب هيغل بضرورة الوحدة ما بين الشكل والمحتوى في المعرفة العلمية. فالأسلوب لا ينبغي أن يكون نوعاً من التجريد أو إجراءً يتخذ طابعاً شكلياً يحوم فوق المحتوى المحدد للعلم. الأسلوب ينبغي أن يتخذ شكله من الموضوع المعيّن قيد التمحيص. فبالنسبة لماركس، لا يغدو العرض الديالكتي لنظام الاقتصاد السياسي ممكناً إلا من خلال الدراسة التجريبية والمفهومية لذلك النظام». إن الاشتراكية كعلم لا يمكن أن تتعامل مع العلوم الطبيعية إلا من خلال التشرب بها بشكل كامل ونقدها من الداخل.

جـ- هل تساعد النظرة الاشتراكية في تطور العلم؟ إن بعض العلوم تشعّ محتوىً ايديولوجياً قوياً. ربما لا يستسيغ المرء هذا القول، بيد أن شجب تطورات كهذه على أسس أيديولوجية لا ينفع في شيء. يعطينا ف. أ. فوك، الفيزياوي السوفييتي مثالاً ساطعاً على ذلك. لقد ظل هذا العالم «مادياً ديالكتياً» راسخاً. إن العلم ليس ثمرة بيئة اجتماعية — اقتصادية معينة وحسب. إذ لو كان الأمر كذلك لرأينا حينئذ فيزياء خالصة مختلفة لكل من الاتحاد السوفييتي والعالم الرأسمالي. بيد أن الاتجاهات أو الأفكار تُتخذ وتُصارَ

تحت تأثير نظرة خاصة للعالم. والنقد الذي وجهه فوك الى انشتاين موقف نظري بارز يعكس انحيازاً قوياً الى المادية. إن كل فيزياوي نظري متمرس جيداً يدرك بوضوح أن ما يدعى بالنظرية النسبية العامة هي أقل نسبية مما تدعى بالنظرية النسبية الخاصة، وهي في حقيقتها ليست سوى نظرية للجاذبية. ويشرع المؤلف بعدها في مناقشة الجانب الديالكتي في موقف فوك، ويرى أنه يسير في خطوط مماثلة مع موقف ليون روزنفيلد الذي يصف نفسه بالماركسي والذي كان يتعاون تعاوناً وثيقاً مع نيل بوهر (أحد مؤسسي الفيزياء الحديثة، وصاحب نظرية ميكانيكا الكم، وفكرة التمامية أو الاكتمالية Complementarity) التي يرى فيها «حلاً مطلقاً وتسامياً ديالكتياً في الواقع للانقسام الثنائي النهائي المدرك بين الصورة الموجية والصورة الجسيمية للمادة»*.

ويتوقف عند دور العالم الفيزياوي الأمريكي البارز ديفد بوهم David Bohm الذي فر من الاضطهاد المكارثي الى الاتحاد السوفيتي، ويرى فيه أحد المفكرين الماركسيين الحقيقيين القلائل في ميدان الفيزياء، رغم أنه ظل بعيداً عن استخدام العبارات الماركسية الغليظة. «وهكذا فنحن نُقاد الى اعتبار الحقيقة ليست ثابتة ومنتهية، وإنما هي تظهر للوجود جديدة من لحظة الى أخرى». إن الطراز البارز للنقد الذي يسعى ديفد بوهم الى توجيهه نحو الفيزياء الحديثة يماثل الى حد مدهش السبيل الذي سلكه ماركس في نقده للرأسمالية.

إن هذه المناقشة لا تحل قضية كون النظرة الاشتراكية غير نافعة لبحث علمي أبعد وأفضل. إن الأمر الوحيد الذي يمكن أن يحققه الاستقصاء البشري هو التحليل السليم للتوترات والديناميات الجوهرية لتلك الأجزاء المحيطة بنا من العالم والقابلة للبحث. ومع ذلك، فإن اختيار الموضوع واختيار الاتجاه والأسلوب، يتأثران بالتأكيد بنظرة الباحث الى العالم. إن النظرة الاشتراكية هي الأكثر ترجيحاً لإرساء برنامج بحثي على تحليل القوى المتصارعة في إطار كل أكبر بدلاً من البحث عن حلول نهائية. زد على ذلك، فإن النظر الى البحث كجزء من كل أكبر قد يساعد في كبح النتائج والتطبيقات غير المرغوبة.

د: **هل يوجد علم اشتراكي؟** لم يقم انجلز أو ماركس بنزهات في المستقبل في هذا الشأن. وكل المحاولات التي جرت في الاتحاد السوفيتي بهذا الاتجاه انتهت الى كوارث

* وهو يحيل القارئ بشأن الجسيمات والأمواج في التمامية الى العرض الممتع للمناقشات التي دارت حول ميكانيك الكم في الأربعينيات والخمسينيات في الحركة الشيوعية الذي قدمه أندرو كروس Andrew Cross عام ١٩٩١.

وخسارات جسيمة في الموارد البشرية والفكرية. وحين يُعاد النظر لتقييم دور انجلز وماركس هنا، فإنه يكفي القول إن أية سياسة في ميدان العلم والمصالح العلمية للعلماء تتأثر بشكل واضح بالنظرة السياسية والفلسفية نحو مستقبل اشتراكي. إن دمج مواضيع البحث في كل أوسع، وحركة مضادة لتناثر العلم، ستساعد ولا شك في التحرك بالاتجاه السليم. وبهذا المعنى فإن الوعي البيئوي (الايكولوجي) سيكون له تأثيره الكبير. وحيثما نستطيع أن نوجه نظرنا الآن، لا يسعنا إلا أن نؤجل الجواب على التساؤل بشأن العلم الاشتراكي حتى تتم الثورة الاشتراكية.

ختاماً فإن دراسة العلاقة بين الطبيعة غير الحية والبشرية لاتزال في طفولتها. ثمة، كما نرى، تيارات سوسيولوجية قوية تسعى الى تجنب التساؤلات العميقة باختزال القضية كلها الى تطبيقات العلم تاركة المسائل الأساسية بشأن العلاقة والتقرير المتبادل للبشرية وقاعدتها الفيزياوية ــ البايولوجية.

لقد أنفق انجلز قدراً هائلاً من الطاقة في تعلم ما يستطيع من العلوم الطبيعية، ومع ذلك فقد كان منشغلاً بالصراع السجالي بحيث لم يستطع سوى أن يضع القضية في أول أشكالها ودون أن تتم الى حد بعيد. وبعد قرن من ذلك لا يسعنا إلا أن ننظر بعين نقّادة الى ضآلة ما أُنجز منذ ذلك الحين. ولكن بدلاً من أن تضعف معنوياتنا يمكننا أن نتعلم أفضل من روح انجلز وتفاؤله وحماسته لمواصلة بحثنا، ونتعلم كيف يسعنا أن نغيّر العالم نحو عالم ديمقراطي وتقدمي اجتماعياً.

لقد عانينا في السنوات الأخيرة، لاسيما في الولايات المتحدة، سجالاً عدائياً بين العلماء من جانب والمدافعين عن مفاهيم العصر الجديد وما بعد الحداثة. وفي ضوء هذه المناقشة يكفينا أن نقول إن معركة انجلز ضد الظلامية والمثالية تمتد الآن أيضاً الى النسبية السوسيولوجية المضادة للمادية بقوة. إن هذه التيارات تستند، الى حد ما بين الحين والآخر، الى عدم الفهم القديم للفارق ما بين الواقع الفيزياوي والتطورات البشرية المحددة اجتماعياً. لقد مات انجلز منذ قرن مضى، ولم تستمر صلياته الأولى طويلاً. . . وما بدأه في أمسّ الحاجة الى جولة ثانية.

لنعد الى ماركس

إلين مايكنس وود[1]

سأبدأ مقالتي بزعم مثير يناقض كل الحكمة الدارجة، وهو الزعم بأن اللحظة التاريخية التي نمر بها الآن، هي اللحظة الأفضل وليست الأسوأ، الأكثر وليست الأقل ملاءمة، للعودة الى ماركس من جديد. وسأدعي أيضاً بأن هذه اللحظة بالذات هي التي ينبغي ويمكن لماركس أن يأخذ مكانته كاملة للمرة الأولى — دون أن نستثني من ذلك المرحلة التي عاش فيها بالفعل.

إنني أزعم ذلك لسبب بسيط، وهو أننا نعيش في لحظة صارت فيها الرأسمالية لأول مرة نظاماً عالمياً حقاً. فهي عالمية، ليس بمعنى أنها شملت العالم كله فحسب، وليس بمعنى أن كل ناشط اقتصادي في عالم اليوم تقريباً يعمل وفقاً لمنطق الرأسمالية فحسب — وبضمنهم حتى أولئك الذين يعيشون على هامش الاقتصاد الرأسمالي ويخضعون بطريقة أو بأخرى لهذا المنطق — بل إن الرأسمالية عالمية أيضاً بمعنى أن منطقها — منطق التراكم، وتحويل كل شيء الى بضاعة، ومضاعفة الربح، والمنافسة — قد تغلغل في كل منحى تقريباً من مناحي حياة الإنسان والطبيعة نفسها، وبأشكال لم تكن معهودة خلال العقدين أو الثلاثة عقود الأخيرة حتى في ما يسمى بالبلدان الرأسمالية المتقدمة. وهكذا فإن ماركس أوثق صلة اليوم بالعالم مما كان في أي وقت، لأنه كرس حياته

(1) محررة في مجلة Monthly Review، وقد قدمت هذه المقالة أصلاً في مؤتمر المفكرين الاشتراكيين لعام ١٩٩٧ ونشرت في عدد حزيران ١٩٩٧ من المجلة نفسها.

تكريساً لا يماثله فيه أي شخص آخر، الآن أو في الماضي، لشرح منطق عمل الرأسمالية كنظام.

ثمة في «البيان الشيوعي» صورة أخاذة ونبوئية، رسمها ماركس وانجلز للرأسمالية وهي تكتسح العالم، محطمة كل «الأسوار الصينية». إلا أن ماركس عندما كتب «رأس المال» شدد ــ بصواب ــ على خاصية الرأسمالية باعتبارها ظاهرة شديدة الخصوصية كانت آنذاك محلية أيضاً. وهو لم يقصد بالطبع عدم وجود آثار عالمية للرأسمالية حينئذ عن طريق السوق العالمي والكولونيالية وغيرها، ولكن النظام نفسه كان بعيداً كل البعد عن أن يكون عالمياً. ستنتشر الرأسمالية حتماً، لكنها كانت يومذاك محلية جداً ــ اقتصر وجودها على أوروبا وأمريكا الشمالية، ولم تكن موجودة بشكلها الصناعي الناضج إلا في بلد واحد بالذات هو بريطانيا. بل إنه وجد نفسه مضطراً الى أن يبين للألمان أنهم سيحذون يوماً حذو الانكليز، وحذرهم وكأنه يقول لهم بتعبير آخر: ربما تظنون أنها قصة الانكليز وحدهم، لكنها قصتكم أنتم أيضاً، سواء عرفتم ذلك أم لا.

يستمد كتاب «رأس المال» سمته المميزة إذن من حقيقة بسيطة هي أنه يتناول نظاماً رأسمالياً واحداً، كما لو كان نظاماً قائماً في حدوده، ويتناول أيضاً المنطق الداخلي لهذا النظام. وسأعود الى هذا بعد قليل، والى المفارقة التي تجعل تحليل ماركس ذا الطبيعة المحلية أكثر، وليس أقل، راهنية في وضعنا الحالي، رغم أن الرأسمالية غدت عالمية بالدرجة الحالية، بل وبسبب هذه العالمية تحديداً. إلا أنني أريد الحديث أولاً عن تطور الماركسية بعد ماركس، وعن الأشكال الجديدة لليسار المعارض للماركسية التي جاءت لاحقاً.

النقطة الأساسية التي أود الإشارة إليها هي أن كل التطويرات الهامة تقريباً للماركسية في القرن العشرين كانت تتناول ما هو غير رأسمالي أكثر من تناولها للرأسمالية. ويسري هذا خصوصاً على النصف الأول من القرن العشرين، إلا أن الاتجاه المذكور قد ترك أثره على الماركسية منذ ذلك الحين. وأعني بذلك أن جميع النظريات الماركسية الهامة استندت، مثل ماركس، الى الافتراض بأن الرأسمالية بعيدة عن أن تكون عالمية؛ ولكن بينما ابتدأ ماركس من أنضج نموذج للرأسمالية وعمم من هذا النموذج منطق الرأسمالية كنظام، ابتدأ خلفاؤه الرئيسيون، إن صح القول، من النهاية الأخرى. فقد انصب اهتمامهم الأساسي ــ بفعل أسباب سياسية وتاريخية ملموسة جداً ــ على الظروف التي لم تكن رأسمالية بمجملها. كما كان هناك اختلاف أكثر أساسية: فمهما كان

اعتقاد ماركس بشأن الانتشار العالمي للرأسمالية، أو الحدود الممكنة لهذا الانتشار، فإن ذلك لم يكن شاغله الرئيس. لقدا نصب اهتمامه بالأساس على المنطق الداخلي للنظام وقدرته المميزة على نشر نفسه، متغلغلاً في كل أوجه الحياة حيثما ثبت جذوره. وانطلق الماركسيون المتأخرون بشكل عام، الى جانب اهتمامهم برأسماليات أقل نضجاً، من الافتراض بأن الرأسمالية لابد أن تنهار قبل نضوجها، أو بالتأكيد قبل أن تصبح عالمية وشاملة؛ وكان شاغلهم الرئيسي هو المسلك الذي ينبغي أن يسلكوه ضمن العالم غير الرأسمالي الأوسع.

تأملوا فقط المعالم الهامة للنظرية الماركسية في القرن العشرين. فقد وضعت أبرز نظريات الثورة، على سبيل المثال، في بلدان كانت الرأسمالية بالكاد موجودة فيها، أو أنها لم تكن متطورة، وحيث لم تكن توجد بروليتاريا عالية التطور، فكان على الثورة أن تعتمد على تحالفات أقلية عمالية مع جماهير فلاحية خصوصاً، وهي جماهير ما قبل رأسمالية. أما النظريات الماركسية الكلاسيكية عن الامبريالية فهي تثير قدراً أكبر من الدهشة. ومن اللافت، في الواقع، أن تحل نظرية الامبريالية في أوائل القرن العشرين محل نظرية الرأسمالية أو أن تصبح هي نظرية الرأسمالية، أي بكلمات أخرى، أن يصبح موضوع النظرية الاقتصادية الماركسية ما يمكنك أن تدعوه بالعلاقات الخارجية للرأسمالية، أي تفاعلها مع ما هو غير رأسمالي، والتفاعل بين الدول الرأسمالية في علاقتها بالعالم غير الرأسمالي.

ورغم عمق الاختلافات بين المنظرين الماركسيين الكلاسيكيين حول الامبريالية، فقد جمع بينهم افتراض أساسي واحد، هو أن الامبريالية ستضع نهاية لتوطد الرأسمالية في عالم لم يكن ــ ولن يكون أبداً ــ رأسمالياً بالكامل، ولا حتى رأسمالياً بصفة غالبة. خذ على سبيل المثال فكرة لينين الأساسية بأن الامبريالية تمثل «أعلى مراحل الرأسمالية». كان هذا التعريف يقوم على الافتراض بأن الرأسمالية قد وصلت مرحلة لابد فيها من أن يكون المحور الرئيسي للصراع الدولي والمواجهة العسكرية هو الصراع فيما بين الدول الامبريالية. لكن ذلك الصراع كان حسب التعريف تزاحماً على اقتسام وإعادة اقتسام العالم، وهو عالم غير رأسمالي في غالبيته. فكلما انتشرت الرأسمالية بوتيرة متباينة، كلما ازدادت حدة التنافس بين القوى الامبريالية الكبرى، والتي سيكون عليها أن تواجه مقاومة متزايدة في الوقت نفسه. خلاصة القول ــ وهو السبب في كون الامبريالية أعلى مراحل الرأسمالية ــ إن الامبريالية كانت المرحلة الختامية، بما يعني أن الرأسمالية

ستنتهي قبل أن يتسنى لها أن تبتلع بشكل كامل ونهائي ضحايا الامبريالية من أطراف العالم غير الرأسمالية.

لقد طرحت روزا لوكسمبورغ تلك الفكرة بشكل بالغ الصراحة. فجوهر عملها الكلاسيكي في الاقتصاد السياسي، «تراكم رأس المال»، يكمن في طرحه كبديل عن مقاربة ماركس الخاصة. وقصدت منه أن يكون بالتحديد بديلاً عن تحليل ماركس للرأسمالية باعتبارها نظاماً قائماً في حدوده. وحجتها هي أن النظام الرأسمالي يحتاج الى منفذ في تكوينات غير رأسمالية، وهو السبب الذي يجعل الرأسمالية تقود لا محالة الى العسكرة والامبريالية. فرأت أن العسكرية الرأسمالية، بعد اجتياز مراحل مختلفة كان أولها الغزو لأراضي الغير، قد بلغت مرحلتها «الختامية» حينئذ «كسلاح في الصراع التنافسي بين البلدان الرأسمالية على مناطق من العالم غير الرأسمالي». إلا أن أحد التناقضات الأساسية للرأسمالية، كما تقول روزا لوكسمبورغ، هو أنها «رغم سعيها الى أن تصبح عالمية، وبسبب من هذا السعي في الحقيقة، لابد أن تنهار. فهي تعاني من عجز متأصل عن أن تتحول الى شكل عالمي للإنتاج». إنها أول نمط للإنتاج يسعى الى اكتساح العالم كله، إلا أنها في الوقت نفسه أول نمط لا يستطيع أن يحيا بمفرده، لأنه «يحتاج الى أنظمة اقتصادية أخرى كبيئة وتربة له»[٢]. وحسب هذه النظريات عن الامبريالية إذن، تفترض الرأسمالية، حسب تعريفها، وجود بيئة غير رأسمالية. ولا تعتمد الرأسمالية في بقائها، في الحقيقة، على وجود هذه التشكيلات غير الرأسمالية فحسب، بل أيضاً على أدوات ما قبل رأسمالية تماماً من قسر «فوق اقتصادي»، وإكراه عسكري وجيوبوليتيكي، وعلى أشكال أخرى من الحرب الاستعمارية والتوسع الاقليمي.

تسير الأمور على هذا المنوال في جوانب أخرى من النظرية الماركسية أيضاً. وربما كانت تصورات تروتسكي عن التطور المترابط غير المتساوي، وما تبعها من فكرة الثورة الدائمة، تعني أن الانتشار العالمي للنظام الرأسمالي سيتوقف برحيل الرأسمالية ذاتها. أما غرامشي فكان يدرك إدراكاً شديداً أنه يكتب في بيئة رأسمالية أقل تطوراً، تسودها ثقافة فلاحية ما قبل رأسمالية. وهذا بالتأكيد ما يفسر الى حد كبير الأهمية التي علقها على الايديولوجيا والثقافة، وعلى المثقفين، بسبب شعوره بالحاجة الى شيء يدفع بالصراع الطبقي خارج حدوده المادية، شيء يجعل الثورة الاشتراكية ممكنة حتى في

(٢) روزا لوكسمبورغ، تراكم رأس المال (لندن، ١٩٦٣)، ص٤٦٧.

غياب الشروط المادية الناضجة لرأسمالية كبيرة التطور وبروليتاريا متقدمة. وينطبق الشيء نفسه على ماو تسي تونغ، وإن بصورة مختلفة. وهكذا دواليك.

ما أريد قوله إذن هو أن الاحوال غير الرأسمالية أو ما قبل الرأسمالية تتخلل جميع هذه النظريات عن الرأسمالية. وإذ حققت جميع هذه النظريات الماركسية استنارة عميقة بطرق مختلفة، فيبدو أن من الثابت وقوعها في الخطأ في ناحية واحدة، وهي أن الرأسمالية قد صارت عالمية بالفعل. فقد توسعت بتركيز وبشمول على السواء. إنها عالمية في اتساعها، وهي تخترق القلب والروح من الحياة الاجتماعية ومن الطبيعة. وبالمناسبة، فإن هذا لا يعني بالضرورة اختفاء الدولة القومية، بل ربما يؤدي فقط الى إيجاد أدوار جديدة للدول القومية، مادام منطق المنافسة يفرض نفسه ليس فقط على الشركات الرأسمالية وإنما على كامل الاقتصادات الوطنية، التي تلجأ، وبمساعدة دولها، الى الأساليب «الاقتصادية» الخالصة في المنافسة أكثر من لجوئها الى الأساليب القديمة «مافوق الاقتصادية» والعسكرية. وحتى الامبريالية لها الآن شكل جديد، يميل الناس الى أن يطلقوا عليه اسم «العولمة»، لكن هذه كلمة اصطلاحية ليس إلا، وهي كلمة مضللة من حيث أنها تطلق على نظام يغدو فيه منطق الرأسمالية عالمياً الى هذا الحد أو ذاك، وحيث تحقق الامبريالية غاياتها ليس بالاعتماد كثيراً على أشكال التوسع العسكري بل بإطلاق عنان السوق الرأسمالية والتلاعب بدوافعها التدميرية. ومهما يكن، وبالرغم من أن هذا التعميم العالمي للرأسمالية يكشف بالتأكيد عن بعض التناقضات الأساسية في النظام الرأسمالي، فإن علينا التسليم بعدم وجود أية علامة على أننا سنشهد رحيله في المستقبل القريب.

هل من استجابة نظرية لهذا الواقع الجديد إذن؟ يمكننا القول، بداية، إن ثمة مفارقة حقيقية هنا، ذلك أنه بقدر ما تزداد عالمية الرأسمالية بقدر ما كانت الناس تتخلى عن الماركسية الكلاسيكية واهتماماتها النظرية الرئيسية. وينطبق هذا بالتأكيد على نظريات مابعد الماركسية وأتباعها، مع أنكم قد تعترضون بأن ذلك يسري بالدرجة نفسها على الصيغ الأحدث للماركسية، مثل مدرسة فرانكفورت، أو على تقاليد الماركسية الغربية عموماً. فيبدو، على سبيل المثال، أن التحول المعروف عن الانشغال الماركسي التقليدي بالاقتصاد السياسي الى الانشغال بالثقافة والفلسفة يعود في بعض هذه الحالات الى القناعة بأن تأثيرات تعميم الرأسمالية قد تغلغلت في جميع مناحي الحياة والثقافة، وأن الطبقة العاملة بدورها تهيمن عليها الثقافة الرأسمالية تماماً. (وبالمناسبة، فإنني أفكر

أحياناً باحتمال وجود سبب آخر لهذا التحول فليست له صلة بعالمية الرأسمالية وإنما، على العكس، بالطرق التي مازالت فيها الأشكال ما قبل الرأسمالية تسود وعي مفكرين مثل أصحاب مدرسة فرانكفورت. إلا أن الوقت لا يتسع للتعمق في ذلك هنا، وأنا على كل حال لست قادرة على إعطاء الموضوع حقه)(٣).

هناك كما أعتقد طريقتان للاستجابة لعالمية الرأسمالية. مفاد الأولى أن الرأسمالية تغدو، رغم كل التوقعات، عالمية بدلاً من أن تنهار قبل أن تتمكن من تعميم نفسها، وأن هذه هي النهاية حقاً، ولا يمكن أن يكون ذلك سوى النصر النهائي لهذا النظام. إن هذه الاستجابة الانهزامية، والتي تمثل الوجه الآخر لأيقونة الانتصار الرأسمالي، هي الاستجابة التي تسيطر اليوم على اليسار عموماً.

هذا ما وصلت إليه نظريات مابعد الماركسية. وأعتقد أن من المفيد لكي نفهمها أن ننظر إليها على خلفية النظريات الماركسية التي أشرت إليها. وإذا ألقينا نظرة على تاريخ ما يدعى بمابعد الماركسية، فسنجد أنها انطلقت من الافتراض بأن الرأسمالية صارت عالمية فعلاً. وفي الواقع، كانت عالمية الرأسمالية بالنسبة لمابعد الماركسيين هي بالتحديد السبب وراء تخليهم عن الماركسية. ستعتقد أن هذا غريب نوعاً ما، إلا أنهم يفكرون على النحو الآتي تقريباً: إن الرأسمالية المعولمة في عالم مابعد الحرب العالمية الثانية قد هيمنت عليها الديمقراطية الليبرالية ونزعة استهلاكية ديمقراطية، وكلتاهما تفتحان ميادين جديدة تماماً للمعارضة والنضال الديمقراطيين، هي أكثر تنوعاً بكثير من الصراع الطبقي التقليدي. والنتيجة الضمنية ـــ مع أنها تطرح بصراحة أكبر أحياناً ـــ هي أن هذه

---

(٣) بودي أن أقدم للقراء القلائل الذين قد تستهويهم هذه المسالة فكرة عامة فقط عما أقصده. فانا أعتقد، مثلاً، أن عقلية مدرسة فرانكفورت كانت مشغولة بالمجتمع البرجوازي أكثر من انشغالها بالراسمالية (وهما ليسا الشيء نفسه بالنسبة لي). وهكذا، فإن التحول الشهير من الاقتصاد السياسي الى الثقافة والفلسفة ربما لم يكن وطيد الصلة بتحول المفكرين من التركيز على المادي الى الايديولوجي فحسب، بل بتحول هذا التركيز الى واقع مادي مختلف. فهو على الاقل لم تكن له صلة بمشهد المجتمع الذي لا يمر محور الانقسام الرئيسي فيه بين رأس المال في مقابل العمل، بل بين البرجوازية غير الراسمالية (وخاصة برجوازية من المثقفين والبيروقراطيين كما في النموذج الالماني) في مقابل «الجماهير». وما يزيد القضية بعد ذلك تعقيداً هو حقيقة أن نقاد المجتمع والثقافة البرجوازية، الذين ينتمون أنفسهم الى نوع خاص جداً من البرجوازية، كانوا مشبعين بثقافتها، بل ويشاركونها أحياناً نظرة الاحتقار للجماهير. فإذا ما وضعنا هذا التعقيد جانباً، تبقى المسالة هي أن هذا الشكل من النظرية ربما لا ينظر الى الرأسمالية من زاوية مختلفة وحسب، بل قد تكون إحدى عينيه مشدودة الى واقع اجتماعي مختلف، ما قبل رأسمالي.

النضالات لا يمكنها أن تكون ضد الرأسمالية في الواقع، لأن الأخيرة بلغت حداً من الشمول بحيث لا يوجد بديل واقعي لها، كما أنها على أية حال قد تكون الأفضل من كل الأنظمة الأخرى المحتملة في العالم. وهكذا لا يمكن أن توجد في ظل هذا النظام العالمي للرأسمالية سوى أشكال من النضالات الخاصة المتفرقة التي لا تخرج عن نسيج الرأسمالية.

وتذهب خطوة أبعد نظريات مابعد مابعد الماركسية، وربما مابعد الحداثة. فلم تعد القضية الآن أن الرأسمالية عالمية وحسب، بل أن الرأسمالية عندهم هي على درجة من الشمول بحيث أنها غير مرئية أساساً، مثل الهواء بالنسبة لنا بني البشر، أو مثل الماء بالنسبة للأسماك. فقد تسرح كما شئت في أنحاء هذا الوسط غير المنظور، بل وقد يمكنك أن تجد لنفسك فسحة أو صومعة صغيرة لممارسة العزلة والانفراد والحرية، لكنك لن تجد مهرباً من هذا الوسط الشامل، ولن تتمكن حتى من رؤية حدوده.

هل هذا إذن هو الاستنتاج الصحيح الذي يمكن الخروج به من عالمية الرأسمالية؟ لا أعتقد أنني سأفاجئ أحداً إذا ما عبرت عن قناعتي بأنه الاستنتاج الخاطئ بالضبط. وأحياناً أتصور بأن الميل الى الخروج بهذا الاستنتاج وثيق الصلة بالجذور التاريخية للجيل الذي ينتج هذه التلاوين من مابعد الماركسية ومابعد الحداثة (ولأعترف بأنه جيلي أنا أيضاً). وتؤثر هنا كثيراً حسبما أرى حقيقة أن هؤلاء الناس مازالوا مشدودين الى العصر الذهبي لفترة الرخاء الطويلة التي أعقبت الحرب العالمية. وإني لبعض الوقت كثيرة التأثر من الدرجة التي طبعت فيها مزاعم رخاء مابعد الحرب بطابعها منظري ما يسمى جيل الستينيات، بل أيضاً حتى تلامذتهم الذين كانت تجربتهم اللاحقة مختلفة جداً. وبتعبير آخر، فإنهم لم يتعلموا حتى الآن الفصل بين عالمية الرأسمالية وبين مظاهر رأسمالية كالنمو والرخاء والنجاح، أو النجاح الظاهري، كما أنهم يسلمون كلياً بسيطرتها الشاملة.

ولكن إذا ما بدا أن هذه النظريات تسلم بفكرة انتصار الرأسمالية، فإن هذا يعود جزئياً الى الخلفية الفكرية لماركسية القرن العشرين. فعلى تلك الخلفية وافتراضاتها أن للرأسمالية حدوداً لن تتخطاها، قد يكون من الصعب تصور أي مقياس آخر لنجاح الرأسمالية غير قابليتها على الانتشار في كل أنحاء العالم. ويبدو الأمر وكأن ليس هناك من مقياس للمديات القصوى للرأسمالية سوى مقياس حدود توسعها الجغرافي. فإذا ما أثبتت قدرتها على هدم هذه الحدود ــــ وهي قد فعلت ذلك الآن بجلاء ــــ لن يبقى لنا بالتأكيد إلا أن نعترف لها بالنجاح الساحق.

لكن لنفترض أننا عدنا الى ماركس والى تحليله الداخلي للرأسمالية كنظام قائم في حدوده ــ وفي تصوري أن شمول الرأسمالية للعالم هو بالذات ما يؤهلنا عملياً أن نفعل ذلك ــ عندها يمكننا حقاً أن نبدأ النظر الى العالم ليس كعلاقة بين ما هو داخل الرأسمالية وما هو خارجها، بل باعتبار العالم مسرحاً لفعل القوانين الداخلية لحركة الرأسمالية. وسيسهل علينا ذلك أن ننظر الى عالمية الرأسمالية ليس فقط باعتبارها مقياساً للنجاح بل كمصدر للضعف. إن اندفاع الرأسمالية الى التعولم ليس محض تعبير عن القوة، إنه مرض، ورم سرطاني. فهو يمزق النسيج الاجتماعي مثلما يدمر الطبيعة. إنها سيرورة متناقضة وهذا ما كان ماركس يقوله عنها دائماً.

ربما لم يكن ما قالته النظريات القديمة حول الامبريالية دقيقاً تماماً فيما يتعلق بعدم قدرة الرأسمالية على أن تصبح عالمية، لكن من الصحيح بالتأكيد أن الرأسمالية لن تكون ناجحة ومزدهرة في جميع أنحاء العالم. يمكنها فقط أن تعمم تناقضاتها، والهوة التي تزيدها اتساعاً بين الأغنياء والفقراء، المستغلين والمستغَلين. إن نجاحاتها هي إخفاقاتها أيضاً.

واليوم، لم تعد لدى الرأسمالية منافذ للهرب، لا صمامات أمان ولا آليات تصحيح خارج منطقها الداخلي ذاته. وحتى عندما لا تكون في حالة حرب، أو متورطة في الأشكال القديمة للصراع فيما بين الامبرياليين، فهي عرضة للتوتر الدائم والتناقضات الناشئة عن المنافسة الرأسمالية. والآن وقد بلغت حدودها الجغرافية الى هذا المقدار أو ذاك، وأتمت توسعها المكاني الذي كان دعماً لنجاحاتها المبكرة، لم يعد بإمكانها إلا أن تتغذى على نفسها؛ فكلما حققت مزيداً من النجاح حسب معاييرها ــ بعبارة أخرى، كلما زادت من مضاعفة الأرباح والنمو كما تسميه ــ كلما كانت تقضي بذلك على ثروتها البشرية والطبيعية.

ربما آن الأوان إذن بالنسبة لليسار لكي ينظر الى عالمية الرأسمالية ليس كمجرد هزيمة لنا، بل كفرصة أيضاً. وهي طبعاً، وقبل كل شيء، فرصة جديدة لذلك الشيء الذي صار خارج الموضة وهو الصراع الطبقي.

ترجمة: عماد عباس

نزاعات الشمال والجنوب:

بضعة تساؤلات[1]

عمانويل فالرشتاين

من الحقائق الملفتة عن اليسار في البلدان المتقدمة خلال العقود الثلاثة الأخيرة هي أنه لم يكن يمتلك موقفاً واضحاً سواء تجاه نزاعات هذه البلدان فيما بينها أو تجاه نزاعاتها مع بلدان الجنوب. وإن شئنا الوضوح، فإني أقصد بالنزاعات الأولى المنافسة الاقتصادية بين ما يسمى الثلاثي (الولايات المتحدة، الاتحاد الأوروبي واليابان) الذي صار مركزاً عضوياً للاقتصاد العالمي منذ السبعينيات في الأقل، والذي يعد بأن يكون من الحقائق المركزية للجغرافية السياسية للنصف الأول من القرن الحادي والعشرين في أقل تقدير. وأقصد بالنزاعات مع الجنوب، النزاع العميق للمصالح الحاصل بين الدول التي تقع فيها المراكز الرئيسية للتراكم الرأسمالي وبين بقية الدول. لا أقول إن اليسار لم يطرح موقفاً بشأن القضايا التي تندرج تحت تلك العناوين، إنما أقصد أنه لم يكن يمتلك موقفاً واضحاً.

١ــ يشهد الاقتصاد العالمي منذ السنوات الواقعة بين ١٩٦٣ ــ ١٩٧٣ تقريباً مرحلة طويلة لها بعض السمات الهامة[2]: انحدار المعدل الوسطي لأرباح الإنتاج ومن

(١) مساهمة في ندوة أمستردام حول بدائل اليسار لليبرالية الجديدة، ٥-٨ شباط (فبراير) ١٩٩٧.

(٢) يعتبر فالرشتاين السمات المذكورة سمات نموذجية للمرحلة (ب) مما يعرف بدوائر كوندراتيف، وهي نظرية =

ثم انتقال الرأسماليين الى المضاربة في الميدان المالي؛ انحدار ربحية الصناعات الرئيسية السابقة، وبالتالي انتقال العديد من هذه النشاطات الى تلك الأجزاء في الاقتصاد العالمي التي كانت أقل حظوة في السابق، والتي فيها مستويات أدنى للأجور؛ البحث لتطوير والسيطرة على الصناعات الرئيسة المحتملة؛ الارتفاع الإجمالي في معدلات البطالة مقارنة بالمرحلة السابقة؛ وانخفاض مستويات متوسط الأجر الحقيقي في كل مكان من العالم.

وفي مثل هذه الحالة، فإن صراع المصالح الطبقية بين الرأسماليين والطبقات العمالية أكثر حدة مما كان عليه في المرحلة السابقة، إلا أن ميزان القوى أكثر ملاءمة للرأسماليين في الواقع. وفي المرحلة الحالية، نجد الرأسماليين أقل اهتماماً بالمحافظة على مستوى إنتاج مرتفع باطّراد، مادام الطلب الفعال غير مؤات على أية حال. وهم أكثر اهتماماً بالمحافظة على فوارق كبيرة بين التكاليف وأسعار المبيعات. والمرحلة الحالية ليست سيئة أبداً بالنسبة للجميع، لكنها تعني بالفعل أن هناك خاسرين مثلما يوجد رابحون بشكل كبير، والخاسرون هنا خسارتهم أكبر مما في المرحلة السابقة.

ولنلق نظرة على العواقب بالنسبة الى نزاعات دول الشمال فيما بينها ونزاعاتها مع الجنوب. فالنتيجة الأكبر في الحالة الأولى هي أنه ليس هناك ما يكفي من الفرص المربحة لاستغلالها، وهذا يؤدي بالطبع الى منافسة أكثر حدة بين الصقور على الغنائم. والحكومات معنية هنا لسببين ملحين هما: أن أوضاعها المالية تعتمد على ما إذا كانت صقورها هي تحسن الأداء، وأن استقرارها السياسي يعتمد على تقليل الضرر بالنسبة الى السكان. ولهذا تنتهج الحكومات تكتيكاً أسميه «تصدير البطالة» وهو مسعاها لكي يكون الانخفاض في العمالة المأجورة على نطاق عالمي، وخصوصاً في مناطق التراكم الرأسمالي، غير موزع بصورة متساوية بين البلدان بل أن يكون الانخفاض في بلدها أقل منه في البلدان الأخرى. وهناك طرق عديدة لتحقيق ذلك، منها الحصص النسبية (كوتات)، والتلاعب بأسعار الصرف وهلم جراً.

سؤال: لماذا على اليسار أن يهتم بمعرفة في أي البلدان تتراجع البطالة؟ هل من الأفضل للعمال الأمريكيين أو الفرنسيين أو اليابانيين أن يفقدوا أعمالهم، أم أن يطلب

= تنسب الى الاقتصادي الروسي ن. كوندراتيف (١٨٩٢ ـــ ١٩٣١) الذي برهن على أن من الممكن تمييز ثلاث مراحل (أ، ب، ج) من التوسع والانكماش البطيئين في النشاط الاقتصادي للبلدان الغربية الكبيرة خلال ١٥٠ عاماً اعتباراً من ١٧٩٢، وبمعدل ٤٠-٦٠ عاماً للمرحلة الواحدة. (المترجم)

إليهم القبول بأجور حقيقية أقل؟ ومع ذلك، تضج المنظمات التي هي جزء من عائلة اليسار وتصرخ، في كل مكان تقريباً، حول المعدلات الوطنية للأجور، غير منتبهة الى هذه الظاهرة من الإزاحة.

٢ــ ضمن الثلاثي تنفرد أوروبا بكونها تعيش سيرورة طويلة على طريق الوحدة الأوروبية. ودافعها الجلي نحو الوحدة هو أن البلدان الأوروبية المختلفة لن تكون قادرة، على انفراد، على الدفاع عن مصالحها في ميدان المنافسة الحديثة، لأن حجمها وبأسها لن يمكناها من الدفاع. ويمكننا بالتالي تأويل الحركة باتجاه اتحاد أوروبي، وخصوصاً في الـ٢٥ سنة الأخيرة، بالنظر إليها كمسعى للحد من السيطرة الاقتصادية (والسياسية) السابقة للولايات المتحدة، ولتقديم منافس قدير لمنطقة التكامل الناشئة في شرق آسيا تحت سيطرة اليابان.

لقد فقدت الولايات المتحدة نفوذها الطاغي وهي تنحدر ببطء. ومن المفضل عموماً، من وجهة نظر اليسار، أن يكون هناك تنافس بين الدول، على وجود تحالف اضطراري ذي قيادة غير قابلة للمناقشة (وهي وضعية بلدان الثلاثي في الخمسينيات). ومن الواضح أن الصراع الطبقي في أوروبا لن يخبو لمجرد أن هناك من يقيم اتحاداً أوروبياً. كما أن من الواضح، بالتالي، أن قوى اليمين تحاول إنشاء اتحاد يخدم مصالحها على أكمل وجه. ولكن لن يتبع ذلك كون الاتحاد الأوروبي جيداً أو سيئاً لكون اليمين يفضله أو لأنه لا يفضله. وربما كانت غالبية اليسار تفكر على هذا النحو في البداية، ثم تحولت كما يبدو لي ببطء، وعلى مضض في الحقيقة، الى دعم الاتحاد الأوروبي.

سؤال: لماذا لم يدرك اليسار الأوروبي أن تسريع اضمحلال حالة الهيمنة على قدر من الفائدة؟ ولماذا هناك ما يدعو للزعم بأن أداء اليسار سيكون أقل كفاءة على النطاق الأوروبي الواسع منه في داخل كل بلد؟

٣ــ عندما تنقل مؤسسة كبيرة مصنعاً من المانيا الى ماليزيا، فمن الواضح أنها تفعل ذلك لأنه أكثر ربحية لها على نحو ما. وأوضح عنصر في هذه الأفضلية هو الفرق بين معدلات الأجر. ومع ذلك فإن هذا يؤدي الى تغيير العمالة في البلدين. وقد يتلقى العامل حديث الاستخدام في العالم الثالث أجراً أقل ومعاملة أسوأ، لكنه سيكون أفضل حالاً كفرد مما كان يعمل في السابق، ولن يتبرم، في الغالب، لحصوله على العمل الجديد. وإذا ما

أعيدت هذه الوظيفة الى بلدان الشمال، فسيكون العامل من العالم الثالث خاسراً من حيث مستوى دخله. وعدا الدعوات المألوفة الى تحسين ظروف عمال العالم الثالث، لم ألاحظ أن هذا التطور يحظى باهتمام مركزي لليسار في بلدان الشمال.

سؤال: وهو السؤال نفسه بالنسبة للوظائف فيما بين دول الشمال. لماذا تكون للوظيفة نفسها أهمية أكبر عندما تعود الى عامل هولندي، من أهميتها عند عامل سريلانكي؟ هذه هي أكبر معضلة قديمة لعمال دول الشمال، المدافعين عن وظائفهم في وجه عمال (مهاجرين من الخارج، أو مهاجرين جدد من الريف الى الداخل. . .) مستعدين للعمل مقابل أجور أقل.

٤ــ كانت هناك ثلاثة أنواع كبيرة من المجابهات بين الشمال والجنوب خلال الـ٢٥ سنة الأخيرة: ثورة الخميني؛ حرب الخليج؛ والصراع حول الهجرة. وكل من هذه الثلاث يمثل أسلوباً مختلفاً لخوض الصراع من قبل الجنوب مع الشمال، صراع ضد تهميشه وضد استغلاله على حد سواء. وكان اليسار في الشمال عاجزاً عن الخروج برؤية مناسبة في أي من قضايا التكتيك الثلاث.

٤ــ (أ) تكتيك المخالفة جذرياً. كان ما قالته قوى الخميني للشمال (وخاصة للولايات المتحدة وبعد ذلك للاتحاد السوفيتي على السواء) هو، من حيث الجوهر: «إنكم الشيطان» ونحن نرفضكم كلياً، بفرضياتكم، بمعاييركم، وبالقواعد التي تضمرونها لسلوككم. وكان اليسار في الشمال حائراً: هل يرحب بذلك على أنه معاداة فعالة للامبريالية، أم يستفظعه ويعتبره أحجيات رجعية خطيرة ومضادة للعقل؟ وفي الواقع فقد تأرجح اليسار الإيراني الداخلي نفسه بين هاتين الرؤيتين.

ويعيد السؤال نفسه مع الانتصار الذي كادت تحققه جبهة الإنقاذ الإسلامية في الجزائر. هل كان يجب النظر الى وصول جبهة الإنقاذ الى السلطة المنتخبة على أنه تهديد كبير بحيث يبرر استمرارية الدكتاتورية العسكرية (وهذه كانت بالطبع حجة الممسكين بالسلطة في الجزائر) أم أن حرمانها بالتزوير والدكتاتورية القمعية كانت له أفضلية من وجهة نظر اليسار؟ أو أن موقفاً ثالثاً كان ممكناً، كما تحاجج أقسام من اليسار الجزائري طوال سنوات منذ ذلك الوقت؟

إن هذا السؤال يأخذ أشكالاً عدة: مناظرات حول جدارة التعددية الثقافية في الشمال

(أنظر الى المناظرة الفرنسية حول ارتداء المسلمات وشاحات الرأس في المدارس)؛ مناظرات حول مفهوم حقوق الإنسان كتبرير للتدخل المباشر (حتى للتدخل العسكري؟) في بلدان الجنوب. وقد احتلت المناظرة حول البوسنة موقعاً مركزياً ضمن هذا التنوع.

سؤال: أين هو خط اليسار في الشمال ما بين اللامبالاة بالمطالب الشعبية للعالم غير الغربي بتحرير العمل السياسي وبين مقاومة هذه النشاطات في الممارسة كانعكاس لحماسة امبريالية جديدة لتبشير تمديني قناعه قيم عالمية؟

٤ــ(ب) تكتيك القوة العسكرية. صدام حسين بالخميني. ولا حديث هنا عن المخالفة جذرياً. بل إن لدينا دكتاتوراً محلياً يبحث مع ذلك عن «تطوير» بلاده. كان يبدو واضحاً أن العراق عام ١٩٩٠ رغم كل مزايا عوائد النفط، مستوى معيشة مرتفع فعلاً، تصنيع، وجيش قوي، لم يحول في الواقع دوره الاقتصادي في الاقتصاد العالمي من حيث الجوهر. لقد حسب صدام أن البديل الأكثر احتمالاً هو المجابهة المتعمدة المباشرة مع الشمال، الشيء الذي أشبهه بطريقة بسمارك. وبدا أن غرضه هو أن يوجد في النهاية بنية عربية موحدة تلتف حول العراق، وكان احتلال الكويت خطوة في ذلك الاتجاه.

ونعرف الذي جرى. فالضربة العسكرية التي وجهت الى صدام حسين ما كانت نصراً للقوى التقدمية. لقد خدمت المصالح الجماعية لقوى الجناح اليميني في الشمال ومناورات الولايات المتحدة تجاه دول الشمال الأخرى. ومازال التحالف الشمالي يتأرجح منذ ذلك الحين بين الهدف الجيوبوليتيكي بتقويض صدام حسين، وفائدة الإبقاء على عراق موحد لموازنة كفة إيران.

كان وقف الانتشار النووي يعد من الأولويات العسكرية للشمال لما يقرب من ثلاثين عاماً الأخيرة على الأقل. وتمتلك الأسلحة النووية الآن من الناحية الرسمية خمسة بلدان، وهناك بضعة بلدان توشك على امتلاكها. وبوسع بضعة بلدان أخرى امتلاكها خلال العشرين عاماً القادمة. ويبدو أن هدف أمريكا هو عرقلة هذه العملية، افتراضاً بأن هذه الأسلحة لن تكون مأمونة في أيدي الساعين الى امتلاكها، بل حصراً في أيدي من يمتلكونها حالياً.

سؤال: أين موقف اليسار من كل هذا؟ وما هو الموقف الذي ستتخذه قوى اليسار في أي وقت تحصل فيه مواجهة عسكرية متعمدة بين الشمال والجنوب؟ هل هناك أي سبب للاعتقاد بأن منّ المحتمل استخدام الأسلحة النووية من قبل الباكستان أو الهند،

الأرجنتين أو البرازيل، كوريا الشمالية أو كوريا الجنوبية بطيش أكبر مما قد يصدر عن فرنسا أو الصين؟ هل يتقبل اليسار هذا الحد الانتقائي من انتشار السلاح النووي؟

٤ ــ (ج) تكتيك الهجرة. من الواضح أن العالم يشهد اليوم هجرة غير شرعية كبيرة، كلها تقريباً من الجنوب الى الشمال (باعتبار شرق ووسط أوروبا من الجنوب). وكل الأسباب تدعونا للاعتقاد بأن حجم هذه الهجرة سيستمر بالارتفاع، سواء بالتعبير المطلق أو النسبي، خلال نصف القرن القادم. فهناك دافع قوي لدى الناس في الجنوب للهجرة. وهناك دافع قوي لدى الكثير من أصحاب الأعمال في الشمال لتشغيلهم.

وخلال المرحلة الحالية، جعلت قوى اليمين المتطرف من المشاعر العنصرية المعادية للعالم الثالث وللمهاجرين وسيلة للتعبئة السياسية. أما اليسار في الشمال فقد أدرك مؤخراً، ومؤخراً فقط، أن عليه أن يجابه على المكشوف التشريعات والإجراءات الحكومية العنصرية المطبقة أو المقترحة. إلا أن اليسار في الشمال فعل ذلك بشكل غير واضح تماماً، ويحذر على العموم (مع بعض الاستثناءات).

سؤال: لماذا سيكون من غير المناسب لليسار أن يعلن وقوفه الى جانب الحدود المفتوحة؟ وبأي منطق سيكون موقفاً يسارياً أن تميز بين الناس وتقرر جدارتهم بحسب مكان ولادتهم؟

إن الإجابة عن الأسئلة التي طرحتها ستكون مختلفة دون شك، حتى بين الناس الذين يحسبون أنفسهم على اليسار. ولا أعتقد أنا نفسي أن الإجابة عن هذه الأسئلة ستكون دائماً سهلة وواضحة. إلا أنه يبدو لي أنها أسئلة جوهرية في السعي الى تحديد موقف يساري مناسب للقرن الحادي والعشرين. ولدي شعور بأن اليسار كان يتجنبها، جزئياً بسبب كونها شائكة، وجزئياً بسبب الحرفية الضيقة.

ترجمة: عماد عباس

اليسار العربي ودولة العدالة الاجتماعية

لطفي حاتم

منذ فترة طويلة أشار العديد من الكتاب، والباحثين الماركسيين الى أزمة اليسار العربي، الفكرية والسياسية. وارتفعت أصوات كثيرة مطالبة بتجديد المنطلقات الايديولوجية لأحزاب اليسار. إلا أن قيادة هذه الأحزاب تجاهلت وقائع الحياة، مواصلة بذلك اعتمادها على التراث النظري، والتجربة التاريخية التي أفرزتها ثورة أكتوبر العظمى. لقد وضع انهيار النموذج السوفيتي، وسيادة خيار التطور الواحد أحزاب اليسار على طريق البحث عن رافعات ــ فكرية ــ سياسية تساهم في تطوير حركتها الاجتماعية، استناداً الى حركة التاريخ الواقعية. وانطلاقاً من مواقع النقد والتحليل نحاول بإيجاز تتبع المراحل التاريخية لنضال اليسار العربي، ارتباطاً بمراحل تطور الدولة الوطنية أولاً. والوقوف عند السمات البرنامجية ــ الفكرية والسياسية ثانياً. وتقديراتنا لآفاق تطوره ثالثاً.

الدولة الوطنية ونضال اليسار

لقد ظهرت الأحزاب اليسارية كاستجابة فكرية ــ اجتماعية لجملة من العوامل الدولية والوطنية. وعبرت شعارات معاداة الهيمنة الأجنبية، والعدالة الاجتماعية عن مصالح العديد من الفئات والشرائح الاجتماعية. وتكمن مشروعية هذا التقدير استناداً الى سرعة تغلغل الأفكار الاشتراكية في التربة الوطنية لأقطار عربية عدة. ولتوصيف هذا الاستنتاج

نؤشر باختصار سمات المسيرة التاريخية لحركة اليسار العربي في فترات صعوده، أزمته، آفاق تطوره.

أولاً: مرحلة النضال الوطني:

تميزت مرحلة النضال الوطني بازدهار الأفكار الاشتراكية حيث نمت، وتطورت البنية التنظيمية، والسياسية للعديد من الأحزاب اليسارية. وانعكس ذلك في استجابة شرائح وكتل اجتماعية لبرامج الأحزاب الثورية. وجاء هذا الازدهار على خلفية الانجازات الكبرى التي حققها الاتحاد السوفيتي والكتلة الاشتراكية.

لقد تميزت الحركة السياسية، والاجتماعية في العديد من البلدان بمظاهر عديدة أولها الفعالية السياسية الناشطة لليسار الراديكالي وقيادته للنضال الوطني في المنعطفات التاريخية. وثانيها هيمنة الأفكار الاشتراكية على القوى السياسية المختلفة. وهنا لابد من الإشارة الى أن قوة اليسار الراديكالي تشير الى واقعية شعاراته، وبرامجه النضالية، حيث شكلت موضوعات الديمقراطية، والاستقلال الوطني، والعدالة الاجتماعية، رافعات فكرية اكسبت الحركة الثورية مرونة سياسية في استخدام مختلف أشكال الكفاح الوطني والقومي.

خلاصة القول إن الحركة الثورية، ورغم العنف السلطوي الممارس ضدها أصبحت قوة سياسية فاعلة ومؤثرة في حياة البلاد السياسية.

ثانياً: مرحلة الاستقلال والسيادة الوطنية:

بدءاً، لابد من القول إن ضعف التشكيلة الطبقية في الدولة الوطنية، وما نتج عنها من غياب الكتلة الاجتماعية المنظمة، والقادرة على فرض إرادتها الوطنية من جهة، وتنامي الروح الوطنية، والقومية في المؤسسة العسكرية، من جهة أخرى، دفع بعض القوى الوطنية الى تغليب النزعة الانقلابية في نشاطها الهادف الى الإطاحة بالأنظمة الكولونيالية. بمعنى آخر، إن الاعتماد على المؤسسة العسكرية باعتبارها الفصيل الاجتماعي المنظم والمسلح أدى الى حصر موضوعة العنف الثوري بالانقلاب العسكري المسانَد من الحركة الشعبية.

إن اعتماد تكتيك الانقلاب العسكري تمخض عن سلبيتين خطيرتين، أولاهما تفويض المؤسسة العسكرية بحسم الصراع مع الأنظمة الكولونيالية عن طريق العنف. وثانيتهما الاعتراف بشرعية هيمنتها على السلطة السياسية، وما أفرزته تلك الشرعية من سيادة الأجهزة القمعية على مؤسسات الدولة.

ولغرض تدقيق طبيعة المنظومة السياسية والاجتماعية التي أنتجتها الانقلابات العسكرية، يجدر بنا ملاحظة سماتها العامة والتي تتمثل في:

ـــ إن سلطة الدولة التي أفرزتها هذه الثورات لم تستطع خلق شرعية وطنية، بل إنها نقلت احتكار السلطة من الشرعية الوراثية الى ما سمي بـ«الشرعية الثورية».

ـــ إن الاحتكار الجديد للسلطة قطع الطريق أمام تطور التشكيلة الاجتماعية بسبب هيمنة الدولة على الحياة الاقتصادية، وما نتج عن ذلك من عرقلة التطور الطبيعي للطبقات الاجتماعية، وتحجيم حقل صراعاتها الطبقية.

ـــ تحطيم الديمقراطية الجنينية، والمؤسسة التمثيلية، واستبدالها بمجالس تستمد إجراءاتها وقوانينها من الشرعية الثورية.

إن هيمنة المؤسسة العسكرية على سلطة الدولة، واستمرارها في إشاعة الإرهاب والعسكرة أفرزت نتائج سلبية خطيرة على الحياة السياسية تلخصت في:

آ ـــ تعطل أشكال النضال السياسي الجماهيري ـــ مظاهرات، إضرابات، احتجاجات معارضة.

ب ـــ تحريم نشاط قوى المعارضة السياسي، ودفعه الى ممارسات سرية لا تتعدى الشجب والتحريض.

ج ـــ انهيار الوحدة بين الفكر والممارسة النضالية.

د ـــ شيوع اللامبالاة السياسية لدى الجماهير الشعبية والإحجام عن ممارسة النشاط السياسي.

إن الظواهر السلبية السالفة، والتي انتهجتها سياسة الهيمنة والإرهاب، أدت الى ضياع الخبرة الكفاحية التي اكتنزتها الحركة الوطنية ـــ الديمقراطية إبان مرحلة النضال الوطني المعادي للهيمنة الأجنبية، وبذات الوقت، وضعت اليسار بمواجهة إرهاب (سلطة الثورة).

والسؤال الذي يواجهنا هل كان اليسار الراديكالي قادراً على استنهاض حركة جماهيرية تتصدى لنزعات الانفراد بالسلطة من جهة، ومقاومة عزلته السياسية من جهة أخرى؟.

الإجابة عن هذه التساؤلات تكمن في تحديد طبيعة دولة «الشرعية الثورية» والتأثيرات الخارجية عليها، والتي شكلت إساساً سياسياً اجتماعياً لأزمة اليسار العربي.

بات معروفاً أن أزمة الدولة الوطنية تكمن في نشأتها التاريخية، حيث لعبت العوامل الخارجية أدواراً مقررة في تشكيلها. بكلام آخر إن الدولة الوطنية حملت بذور أزمتها، التي تمثلت في غياب شرعيتها الوطنية الناتجة عن انعدام جذورها التاريخية من جهة، واغترابها عن محيطها الاجتماعي من جهة أخرى.

لقد حملت مرحلة التكوين آثار الحقبة الكولونيالية، والتي انعكست في طبيعة وشكل مؤسسات الدولة ـــ التنفيذية، التشريعية، القضائية ـــ وبذات المسار لم تكن دولة (الشرعية الثورية) بمعزل عن تأثيرات ازدواجية خيار التطور الاجتماعي.

لقد تأثر البناء السياسي والاجتماعي لدولة «الشرعية الثورية» بنموذج الدولة الاشتراكية، حيث استعارت الدولة الوطنية الركائز الأساسية لذلك النموذج والتي يمكن معاينتها باتجاهات ثلاثة، أولها هيمنة الدولة على الاقتصاد، وما أفرزه ذلك من إعاقة للصراع الاجتماعي وتهميش النضال الاقتصادي. وثانيها احتكار السلطة، وانعدام الديمقراطية السياسية، وما نتج عن ذلك من إشاعة العنف ضد الخصوم السياسيين. وأخيراً تطوير النزعة العسكرية انطلاقاً من تغليب المهام القومية على المهام الوطنية.

إن أزمة المنظومة السياسية لدولة الشرعية الثورية انعكست بشكل مباشر على سياسة اليسار، والتي وجدت تعبيرها بأزمة برنامج الثورة الوطنية الديمقراطية.

ولغرض متابعة الموضوعات الفكرية ـــ السياسية المأزومة للبرنامج المذكور لابد لنا من حصرها في ركيزتين أولاهما الركيزة الاقتصادية والتي تحدد شطرها الأول بمواصلة التركيز على الإصلاح الزراعي رغم تفتت الملكيات الإقطاعية، وتحولها الى ملكيات صغيرة. أما شطرها الثاني فقد أكد على أهمية تطوير قطاع الدولة الاقتصادي وصولاً الى تشريك وسائل الإنتاج دون الالتفات الى النتائج التدميرية ـــ الاجتماعية ـــ السياسية التي أنتجتها هيمنة الدولة على الاقتصاد. وثانيتهما الركيزة السياسية، التي اعتمدت تطوير مهام الثورة الوطنية الديمقراطية، وصولاً الى الاشتراكية، وما تشترطه من قيادة، واحتكار السلطة السياسية. إن تأشير الموضوعات الفكرية ـــ السياسية المأزومة في برنامج الثورة الوطنية ـــ الديمقراطية يسمح لنا بإيراد الآراء التالية:

ـــ إن اعتماد اليسار على برنامج الثورة الوطنية ـــ الديمقراطية أفضى الى تغليب السياسة على الاقتصاد، الأمر الذي شرع الأبواب أمام الطابع الإرادوي المناهض للصيرورة الاجتماعية.

ـــ بسبب هشاشة التشكيلة الاجتماعية، وغياب الكتلة الاجتماعية الحاملة لبرنامج

الثورة الوطنية ـــ الديمقراطية، لم تتحول المشاعر الوطنية الى وعي طبقي، يشكل محركاً للنضال السياسي ـــ الاجتماعي.

ـــ أدى غياب القوى الاجتماعية السائدة لبرنامج الثورة الوطنية ـــ الديمقراطية الى اعتماد التكتيك الانقلابي، الأمر الذي أضعف تطور أشكال الكفاح الجماهيرية الأخرى.

خلاصة القول إن العوامل التي أعاقت فعالية اليسار في مرحلة الاستقلال والسيادة الوطنية تكمن في:

أولاً: بروز المؤسسة العسكرية، وهيمنتها على سلطة الدولة، وما أفرزه ذلك من سيادة النزعة القمعية.

ثانياً: ارتكاز نضال اليسار العربي على برامج ايديولوجية وما نتج عن ذلك من غياب الرؤية الواقعية لطبيعة وتعقد التشكيلة الاجتماعية الوطنية الملموسة.

ثالثاً: أفضت العوامل المشار إليها الى عزلة اليسار العربي واختزال نضاله الى أشكال دعائية تحريضية.

تغيرات ايديولوجية / تبدلات برنامجية

أعارت برامج الأحزاب اليسارية اهتماماً خاصاً بموضوعة الديمقراطية، والتداول السلمي للسلطة بعد انهيار الكتلة السوفيتية. وبهدف الإحاطة بهذا المفهوم، وتقدير شرعيته السياسية لابد لنا من تحليله على ضوء أهميته التاريخية من جهة، وترصينه على قاعدة فكرية من جهة أخرى.

إن مفهوم التداول السلمي للسلطة يرتبط بمحددات فكرية ـــ سياسية تتجلى في:

ـــ الإقرار بوحدانية التطور الرأسمالي الراهن، وما يفرضه ذلك من إدماج البلاد في شبكة العلاقات الرأسمالية الدولية.

ـــ ارتكاز منظومة البلاد السياسية ـــ سلطة، أحزاب، جمعيات ـــ على التفاعل الديمقراطي المحاط بشرعية وطنية تمثلها المؤسسات الدستورية.

ـــ تتحدد المواقع السياسية للطبقات، والفئات الاجتماعية من السلطة السياسية على ضوء الشرعية الانتخابية.

ـــ سلمية الصراعات الاجتماعية، واستبعاد العنف في حل الخلافات السياسية، والتناقضات الاجتماعية.

إن التحليل المشار إليه لمفهوم التداول السلمي للسلطة يؤدي بالضرورة الى

استبعاد مفاهيم فكرية ــ سياسية جرى اعتمادها في حقبة المعسكرين. وفي حال تعرضنا للأفكار، والمفاهيم الجديدة التابعة من التحليل المشار إليه نراها تتلخص بـ:

أولاً: الإقرار بالتعددية الطبقية.

ثانياً: إن مآل التناقضات الطبقية لا يؤدي الى نفي طبقة اجتماعية، واستبدالها بأخرى. بكلام آخر إن الصراعات الاجتماعية تشترط الوحدة، والتعارض، وتنفي التناقض التناحري.

ثالثاً: استبعاد الثورة الاجتماعية، وتكتيكها العنفي، واستبدالها بالتغيرات الاجتماعية التدريجية المشروطة، بأشكال مشروعة لحل الصراعات الاجتماعية.

إزاء المستجدات الفكرية ــ السياسية المشار إليها نطرح السؤال التالي: هل يستطيع اليسار العربي استعادة دوره التاريخي؟ وما هي مواصفات العدالة الاجتماعية التي يسعى الى تحقيقها؟ لغرض الإجابة عن تلك التساؤلات، وانطلاقاً من مفهوم التداول السلمي للسلطة أحاول التركيز على مفهوم دولة العدالة الاجتماعية، ساعياً الى تأشير مضامينها السياسية والاجتماعية.

التدويل ومشروع الموازنة الطبقية

تتميز العلاقات الدولية الراهنة بسمات جديدة لعل أبرزها وحدانية التطور الرأسمالي، وترابط أجزائه المتطورة منها والمتخلفة، وما يعنيه ذلك من تبدل مواقع التناقضات في المحيط الوطني، وإكسابها طابعاً خارجياً متزايداً. وتبعاً لذلك يتحدد مضمون التناقض الأساسي بين التنمية الوطنية المتوازنة من جهة، وسياسة المراكز الامبريالية الهادفة الى احتواء الدولة الوطنية، وتهميشها من جهة أخرى.

إن اتجاهات تطور العلاقات الدولية تطرح على قوى اليسار العربي مهاماً جديدة يتصدرها تجديد منطلقاته الفكرية، وتطوير برامجه السياسية ــ الاقتصادية. ويبرز مشروع الموازنة الطبقية كأحد الخيارات في عصر العولمة، والذي يمهد التربة لبناء اقتصادات وطنية تتصدى للهيمنة والتهميش.

وقبل الخوض في تأشير الإطار العام لمشروع التوازن الطبقي يتحتم علينا تشخيص الملامح الأساسية لوحدانية التطور الرأسمالي في طور عولمته، والتي يمكن تحديدها بـ:

ــ السيادة الدولية لعلاقات الإنتاج الرأسمالية، وما تشترطه من ترابطات وطنية/ دولية.

ـــ تنامي دور التكتلات الاقتصادية الدولية، وما تفرضه من عمليات اندماجية، وتغيرات سياسية في المراكز الامبريالية.

ـــ تقويض مقومات التنمية الوطنية، بعد إعادة ربط البلدان الاشتراكية بالعلاقات الرأسمالية الدولية.

ـــ تهميش دور الدولة الوطنية انطلاقاً من تخطي مبدأ السيادة الوطنية.

ـــ تنازع الاتجاهات القومية/ الكسموبوليتية في حركة رأس المال المدول.

وانطلاقاً من مؤشرات وحدانية التطور الرأسمالي، نتساءل عن مضامين موضوعة التوازن الطبقي؟ وطبيعة مرتكزاتها السياسية والاقتصادية؟

إن محاولة الإجابة عن هذه التساؤلات تفترض متابعة حقلين أولهما رؤيتنا لموقع الدولة في الموازنة المذكورة. وثانيهما تقديرنا لأشكال الصراع الاجتماعي القادرة على تحقيق التوازن الطبقي.

إن رؤيتنا لموقع الدولة في الموازنة الطبقية يستند الى التحديدات التالية:

أولاً: موازنة سياسية: إن التركيز على الجانب السياسي ينطلق من فعالية سلطة الدولة، ودورها في الأقطار العربية، وتتطلب هذه الفعالية بناء سلطة سياسية تتمتع بالشرعية الوطنية. ويعكس مفهوم الشرعية الوطنية مضمون الموازنة السياسية بين الكتل، والطبقات الاجتماعية المتنافسة، والمعبر عنها دستورياً بالتداول السلمي للسلطة. وهنا لابد من الأخذ بمبدأ فصل السلطات باعتباره الأساس الدستوري القادر على توفير الحماية القانونية لمبدأ الموازنة السياسية. إن الأخذ بمبدأ فصل السلطات يعني من حيث الجوهر إمكانية اقتسام السلطة بين الفئات، والطبقات الاجتماعية المتنافسة الأمر الذي يطور فعالية المراقبة الاجتماعية على أجهزة السلطة التنفيذية.

إن الدعوة الى الموازنة السياسية تشترط معالجة دور المؤسسات القمعية، وهنا لابد من الإشارة الى ضرورة تحجيم وظائف المؤسسة العسكرية وحصرها بحدود الدفاع عن البلاد من الاعتداءات الخارجية. وفي هذا الإطار تتمتع سياسة إطفاء النزعة العسكرية بأهمية كبيرة عند إعادة التربية الوطنية للمؤسسة العسكرية، وتوظيف ولائها لسلطة الشرعية الوطنية.

إن ولاء الجيش لسلطة الشرعية الوطنية يكتمل بتغيير وظائف الأجهزة القمعية الأخرى ـــ الأمن، المخابرات ـــ الأمر الذي يتطلب تحقيق هدفين أولاهما السيطرة

القانونية على نشاط وفعالية أجهزة القمع، وإخضاعها للسلطة الدستورية. وثانيهما توجيه أنشطتها نحو الدفاع عن أمن البلاد الاجتماعي والاقتصادي.

ثانياً: موازنة اقتصادية: إن إزالة تشويه سيطرة الدولة على الاقتصاد يؤدي الى وضع التشكيلة الاجتماعية على عتبة التطور الطبيعي، بمعنى نمو وتطور، وصراع مكوناتها الطبقية الفاعلة، فضلاً عن تضييق إمكانية استيلاء فئة محددة على الثورة الوطنية.

إن هذا التقدير لا يلغي وظيفة الدولة الاقتصادية بل يتضمن الدعوة الى تقنين تلك الوظيفة. وبهذا الإطار فإن دور الدولة الاقتصادي ـــ الاجتماعي يتحدد بسيطرتها على الثروات الوطنية.

إن الدولة باعتبارها أداة الوحدة الوطنية يتحدد دورها على أساس التوزيع المتوازن لثروة البلاد، انطلاقاً من رعايتها للخدمات الاجتماعية ـــ التعليمية ـــ الصحية ـــ الخدمية ـــ المختلفة. ويتعزز ذلك الدور المتوازن لتوزيع الثروات على أساس تدخلها في الحياة الاقتصادية، والمتمثلة في الأشكال التالية:

ـــ تطوير البنى التحتية للبلاد، وتوسيع الاهتمام بالمرتكزات الاقتصادية الأساسية.

ـــ الدخول في مشاريع مشتركة مع القطاع الخاص الوطني والعربي والأجنبي. وتطوير الفعالية الاقتصادية استناداً الى المصلحة الوطنية.

ـــ مساندة وتطوير قطاع خاص ـــ صناعي ـــ تجاري يزدهر على أساس المبادرة الفردية، بما يتناسب واحتياجات البلاد الوطنية.

إن موضوعة التوزيع المتوازن للثروة يمكن توظيفها في الريف العربي استناداً الى خصوصية وقوة المؤسسات العشائرية والأسرية، وما توفره من مستلزمات لبناء تعاونيات فلاحية، وتطوير ملكيتها المشتركة للأرض بمساعدة الدولة.

على أساس التقديرات المشار إليها ما هي أشكال الصراع الاجتماعي الكفيلة بتحقيق التداول السلمي للسلطة السياسية من جهة، وإخصاب ذلك التداول بفكرة الموازنة الطبقية من جهة أخرى.؟

إن ترصين هذه الأسئلة على قاعدة ملموسة تفترض تحديد رؤيتنا لأشكال الصراع الاجتماعي.

التوازن الطبقي وأشكال الصراع الاجتماعي

أدى انهيار النموذج الاشتراكي، والسيادة الدولية الراهنة لعلاقات الإنتاج الرأسمالية الى وقائع جديدة، يتقدمها انهيار التنمية الوطنية (المتمحورة على الذات). وثانيها أن الاختلالات المتزايدة بين تطور المراكز الامبريالية من جهة، وتراجع الدول الوطنية من جهة ثانية تؤدي الى ازدواجية الهيمنة الوطنية/ الدولية على اقتصادات الدولة الوطنية. وآخرها أن ازدواجية الهيمنة الاقتصادية تفضي الى إكساء الصراعات الاجتماعية أبعاداً وطنية/ دولية معادية للاحتكارات الأجنبية.

وانطلاقاً من ذلك يمكن القول إن وحدانية التطور الرأسمالي تفترض انطلاقة جديدة للاحتجاجات الشعبية. ويستند هذا التقدير على آلية العلاقات الاقتصادية الدولية المرتكزة على النهب الامبريالي الواسع لثروات البلدان الوطنية. بكلام آخر إن تدويل علاقات الإنتاج الرأسمالية وتشابك العلاقات الوطنية/ الدولية يؤدي الى توترات اجتماعية تتنامى على قاعدة الإفقار والتهميش الملازمة لطبيعة الرأسمال الوافد. وتشكل هذه النتائج المأساوية أسساً مادية لاندلاع أشكال كفاحية متنوعة. إن تنوع أشكال الكفاح الشعبي تتطلب من اليسار مرونة كبيرة بهدف توظيفها في خدمة الموازنة الطبقية والعدالة الاجتماعية.

إن رؤيتنا لأشكال النضال تتحدد بـ:

اولاً: وحدة النضال الوطني الديمقراطي:

إن التركيز على وحدة النضال الوطني ــ الديمقراطي تتطلب اهتماماً استثنائياً بمصالح البلاد الوطنية. بمعنى النضال من أجل بناء علاقات اقتصادية ترفض الهيمنة الخارجية، وتدعو الى موازنة المصالح الوطنية/ الدولية. ولغرض بناء مثل هذه العلاقات المتوازنة لابد من إجبار القوى الوطنية الحليفة للاحتكارات الدولية على تحقيق موازنة طبقية داخلية. وتتحقق هذه الأخيرة عبر النضال الديمقراطي الذي يتلخص مطلبه بإنشاء شرعية وطنية تتفاعل على أساسها منظومة البلاد السياسية في إطار العملية الانتخابية.

ثانياً: وحدة الحركة العمالية:

إن التطور الرأسمالي التابع يشترط اختلالاً متزايداً في تطور الاقتصاد الوطني لصالح الاحتكارات الدولية. ويؤدي هذا التطور اللامتوازن الى إفقار شرائح واسعة من

الطبقات المنتجة، الأمر الذي يفضي الى تفجر التوترات الاجتماعية، وبهذا المعنى فإن النضال الاقتصادي سيكون كفاحاً مزدوجاً داخلياً ضد حلفاء الاحتكارات الأجنبية، ووطنياً معادياً للهيمنة الدولية.

وبهدف تطوير النضال المطلبي، وإكسابه طابعاً جماهيرياً، لابد من ترصين مؤسساته على وحدة المصالح النقابية. بقول آخر عدم تفتيت الحركة العمالية بولاءات حزبية.

إن وحدة المؤسسات النقابية يفضي الى وحدة الحركة العمالية التي تتفاعل بسبب ميزاتها الوطنية مع النضالات السياسية لتشكل رافداً واحداً مطالباً بالديمقراطية الاجتماعية.

ثالثاً: تفاعل الثقافة الوطنية والفكر التقدمي:

على الرغم من خفوت حدة الصراع الايديولوجي على أثر انهيار نموذج الاشتراكية الفعلية، إلا أن وحدانية التطور الرأسمالي الراهن، وميوله اللاوطنية، وشروط تطوره اللاإنسانية تفترض انبعاثاً جديداً للتعارضات الفكرية. وعلى أساس التطورات المشار إليها، وبسبب فعاليتها التنويرية المعادية للعسف والإرهاب، تشكل الفئات المثقفة قوى أساسية من قوى الحرية والتغيير الديمقراطي. إن وحدة المثقفين المستندة على تعدد الألوان السياسية والفكرية تستند على ركيزتين أساسيتين أولاهما مكافحة ثقافة الضياع والاغتراب، والمتمثلة بتفتيت الثقافة الوطنية، واستبدالها بولاءات عشائرية ــ طائفية. وثانيتهما بناء ثقافة وطنية يتحدد مضمونها الإنساني والجمالي بأفكار الحرية والديمقراطية والعدالة الاجتماعية.

ختاماً، لابد من التأكيد على أن الآراء والأفكار المارة الذكر ربما تساهم في إغناء وتطوير الحوار الهادف الى رسم توجهات فكرية سياسية تساعد اليسار العربي على استعادة مواقعه التاريخية، واستثمارها في المساهمة في بناء دولة القانون والعدالة الاجتماعية.

مراكز القوى المؤثرة في إيران

٢ـ السلطة القضائية

حميد سلمان الكعبي

تتمتع السلطة القضائية في إيران، كما في غيرها من بلاد العالم؛ بأهمية بالغة نظراً لاتصالها المباشر بالحياة اليومية للجماهير وتأثيرها المتشعب على هذه الحياة. وكان القضاء، منذ انتصار الثورة، مستقلاً حقاً نظراً لنصوص الدستور على استقلال السلطات، ولعدم وجود خلافات بين رؤساء السلطات الثلاث في أوائل انتصار الثورة، ولوجود شخصيتين نافذتين على رأس هذه السلطة(١)، أولاهما آية الله بهشتي، والثانية آية الله موسوي أردبيلي، الذي خلف الأول بعد سقوطه شهيداً في تفجير اجتماع حزب الجمهورية الإسلامية سنة ١٩٨١. وكان المطلعون يعتبرن بهشتي عقل آية الله الخميني، بينما اعتبروا أردبيلي لسانه.

وإذا كان المرحوم الخميني قد اضطر للتدخل مراراً في أعمال السلطتين التشريعية والتنفيذية، أو لحل المشكلات التي كانت تقوم بينهما، فهو لم يتدخل في عمل السلطة القضائية إلا مرة واحدة، حين أصدر لرئيسها خطاباً حدد فيه عقوبة امرأة أعطت رأياً في مقابلة إذاعية اعتبره مهيناً لمقدسات شيعية، وكذلك عقوبة مراسل الإذاعة الذي أجرى معها المقابلة. وحتى عندما تصرف في هذه المسألة بوصفه مدعياً عاماً وقاضياً في الوقت نفسه، وأصدر الحكم دون مرافعة أو سماع دفاع، فليس في ذلك من عجب، فإنما هو تصرف باعتباره «ولي الأمر». ولا يجوز هنا خلط حكم الكاتب البريطاني، هندي الأصل، سلمان رشدي في هذا السياق، فقد أكد الخميني منذ البدء، وأيد كل من تحدث

تأييداً له من مسؤولي إيران ووعاظها، أنه حكم شرعي، مبدئي، وعام، أي أنه ليس حكماً قضائياً[٢].

وبعد تعديل الدستور الإيراني[٣]، صارت أعلى مؤسسة في الجهاز القضائي تسمى «السلطة القضائية» بدلاً من الديوان السابق، وصار موقع رئيسه الثالث في سلسلة مراتب القيادة الإيرانية صراحة.

واختار الـ«ولي الفقيه» الجديد، آية الله خامنئي، لرئاسة هذه السلطة آية الله محمد يزدي. ويزدي هذا كان نائباً في مجلس الشورى الإسلامي، ووصل في الدورة الثانية الى مركز نائب رئيس المجلس بفعل توازن القوى السائد في تلك الفترة، وبفعل نفوذ الشيخ الرفسنجاني الذي كان رئيس المجلس آنذاك. ولكنه فشل فشلاً ذريعاً في الانتخابات التالية، فلم يستطع دخول المجلس الثالث أصلاً، وقد عوضه المرحوم الخميني بتعيينه عضواً في مجلس «صيانة الدستور»، وهذا ــ في بعض الاعتبارات ــ أهم من مجلس الشورى. وكان قبل ذلك، في الأيام الأولى للثورة، أيام جمعة قم وحاكمها الواقعي. لم يحدث طيلة السبع السنوات الأولى من رئاسته لهذه السلطة أمر مثير لجدل واسع تقريباً، وإن كان تعديل قانون المحاكم جوبه بالنقد وواجه ــ في التنفيذ ــ صعوبات ومشاكل عملية أيدت ما ذهب إليه المنتقدون، فقد صار غياب المحاكم المتخصصة ــ الناشئ عن ذلك التعديل ــ محسوساً. أما على صعيد المحاكمات، فقد شهدت تلك الفترة محاكمتين أثارتا جدلاً واسعاً، أولاهما محاكمة جلال الدين الفارسي[٤] بتهمة القتل العمد، ثم برأته منها المحكمة ولكنها أدانته بجريمة القتل شبه العمد، وأيدت محكمة الاستئناف ذلك الحكم ثم صادق عليه مجلس القضاء الأعلى، برئاسة الشيخ اليزدي. وقد اعتبر الرأي العام ذلك الحكم تساهلاً مع فارسي فرضه «تاريخه» و«وجاهته» و«ارتباطاته». كما أثير اعتراض واسع على إطلاق سراحه بكفالة قبل محاكمته. وقد نشرت صحف «اليسار» اعتراضات المواطنين وذوي القتيل على الحكم وإطلاق السراح، وتناولت سير المحاكمات بتغطية تتعاطف مع الرأي القائل بعمدية القتل، وإن كانت لم تعترض هي نفسها على الحكم.

أما الثانية فقد كانت محاكمة الاختلاس الكبير، وهو أكبر اختلاس في تاريخ إيران المعروف. ورغم صرامة العقوبات الصادرة بحق المتهمين الرئيسيين، إلا أن الأحكام كانت مهلهلة ملأى بالثقوب. خلاصة القضية أن أحد المهاجرين من إيران بفعل الثورة عاد إليها وأنشأ علاقات مع رؤساء بعض المؤسسات الاقتصادية العملاقة والمصارف،

استفاد منها في شراء منشآت صناعية وأراض ومزارع وسيارات فارهة من تلك المؤسسات بأموال تسلمها من تلك المصارف! وقد حكم عليه بالإعدام ونفذ فيه الحكم، باعتباره «مفسداً في الأرض»، أما شريكه والشخص الثاني في فعاليته، فقد حكم عليه بالسجن المؤبد فقط، بوصفه مختلساً، رغم أن دوره في الفساد أكبر، فقد كان الواسطة بين المتهم الأول ورئيس أكبر مؤسسة اقتصادية في البلاد: مؤسسة المستضعفين! ورغم اتضاح ضلوع رئيس المؤسسة هذه(٥) في عمليات مريبة، فإنه لم يستدع الى المحكمة إلا بصفة «مطلع» لتقديم إيضاحات ـــ لا شهادة ملزمة. كما لم يستدع مدير المصرف الذي موّل الجزء الأكبر من العمليات إلا كمطلع أيضاً! وكان ذلك كله ـــ إضافة الى دلال المتهم الثاني في السجن (وهو بالمناسبة، شقيق رئيس المؤسسة المذكورة) ـــ مثار انتقادات الرأي العام وأوساط «اليسار»، وقد شكل ذلك كله صفحة كبيرة حالكة السواد في كتاب السلطة القضائية لإيران الإسلامية.

ومع السنة الثامنة لرئاسة الشيخ اليزدي للسلطة القضائية، وهي السنة التي تولى فيها رئيس الجمهورية الجديد السيد محمد خاتمي مهام منصبه، وكانت الأوضاع الاقتصادية في البلاد قد تأزمت، وتسلمت الحكومة الجديدة خزانة مرهقة، وجهازاً إدارياً تزكم رائحة فساده الأنوف، أطلق الولي الفقيه نداءه بضرورة المحاسبة على «الثروات جلب الريح»، فاعتمدت السلطة القضائية ذلك النداء مدخلاً لمحاربة وتصفية أمين العاصمة، على مراحل فيما يبدو.

وإذ لعب رئيس السلطة القضائيا دوراً كبيراً ـــ هو وجهازه(٦) ـــ في محاولة إحباط انتخاب السيد الخاتمي، وعبّر عن سخطه على فوزه فيما بعد بما يشبه «زعل» الأطفال أثناء حفل أداء القسم، فهو قد أصر على إعلان سخطه بعد ذلك أيضاً، بل وتحديه، حين عين مشاوراً لسلطته محافظ كردستان السابق، الذي وجهت له تهمة القيام بمخالفات انتخابية في محافظته، وشكلت له إضبارة لم تنظرها أية محكمة!

ومع أن أمانة طهران ليست المؤسسة الوحيدة التي تثار الشبهات حول نشاطاتها(٧)، ومع أن كل النشاطات مثار اللغط والتحقيق جرت أثناء فترة رئيس الجمهورية السابق، الشيخ الرفسنجاني، إلا أن رئيس السلطة القضائية لم يظهر حرصه على العدل وبيت المال إلا حين تسلم خاتمي منصبه ـــ لإحراجه إن هو أراد الدفاع عنه؟ أو ربما لجبنه عن التعرض لأمين العاصمة الذي طالما امتدحه رفسنجاني، أثناء رئاسته؟ ـــ ولم ير الفساد أو يسمع به إلا في أمانة طهران ـــ انتقاماً من الأمين غلام حسين كرباسجي لتأييده

خاتمي وقبله مرشحي جماعة عاملي البناء لمجلس الشورى الخامس(٨)؟ أو ربما لفتح الطريق أمام نواب الأكثرية اليمينيين في مجلس الشورى لنزع الثقة مجدداً من بعض وزراء خاتمي، وربما حتى طرح موضوع صلاحيته للرئاسة للنقاش؟

وهكذا طاردت السلطة القضائية عدداً من رؤساء بلديات طهران ورؤساء الدوائر في أمانة العاصمة بتهمة الاختلاس ــ الذي لم يثبت إلا على قلة منهم، وبمبالغ أقل بكثير من المبالغ التي ذكرها الادعاء، (وهذا أهم ما في الأمر) أنه ليس اختلاساً بالمعنى الذي يعرّفه القانون ويعرفه الناس، فاضطروا الى تسميته بالـ«اختلاس للغير»!، أي صرف مبالغ لغير الأبواب المخصصة لها. وكانت الضجة الهائلة التي رافقت المحاكمات، وسوء المعاملة التي صاحبت اعتقال المتهمين والتحقيق معهم (وهي المعاملة الاعتيادية المألوفة في معتقلات إيران) لا تتناسب قط مع ما ثبت على بعضهم. وإذا ما أضاف المرء الى ذلك انتقاء أمانة طهران وحدها هدفاً وتوقيت المحاكمات مع مباشرة الرئيس الجديد، فلا يسعه إلا أن يرى بشكل واضح أنها سياسية ليس هدفها العدالة ولا يهمها صيانة بيت المال، خاصة وأن الجهات التي زعم أن الصرف جرى لها هي المقرات الانتخابية لمرشحي جماعة عاملي البناء ثم المقر المركزي للسيد محمد خاتمي.

ولم يتدخل الولي الفقيه لإلزام السلطة القضائية بملاحقة المؤسسات الأخرى التي وقعت فيها نماذج أخرى من سوء التصرف، تصح عليها صفة الاختلاس، للمساواة ــ في الأقل ــ مع أمانة طهران، ولم يسبق له أن تدخل لوقف تدخلها المفضوح في انتخابات الرئاسة، مما شجع رئيسها على أن يضيف هذا الموقف السلبي الى ما يحس به من أمن بفضل استقلاله الذي يضمنه الدستور وتحميه أغلبية مجلس الشورى ومراكز القوى الأخرى مجتمعة، ليتشجع مواصلاً خروقاته حتى يصل بها الى وقاحة فجة. فعدا عن مواصلة محاكمات رؤساء بلديات طهران، وفرحته الغامرة بالضجة الواسعة التي كانت صحف «اليمين» «تزفّها» بها، أزعجه رد فعل صحف «الوسط» و«اليسار» وانتقادها للإجراءات اللاقانونية التي رافقت اعتقال هؤلاء الرؤساء وتفتيش منازلهم وسير التحقيق معهم. ثم عقد مؤتمراً صحفياً سألته فيه مراسلة جريدة «سلام» عن موقفه من الخروقات التي مارسها مأمورو سلطته مع رؤساء البلديات، والتي ذكرت أنها متأكدة منها، رد ذلك بكلام عام، مطالباً من يزعم بوجود خروقات أن يقدم شكاية الى المحكمة المختصة داعماً شكواه بمستندات تقبلها المحاكم! وفي نهاية مؤتمره الصحفي، عاد الى تلك المراسلة ليطلب منها أن تقدم مستنداتها عن هذا الادعاء، وإلا فإنه سيلاحقها لأنها

«أهانت» القضاء! ثم عاد الى الموضوع نفسه في خطبة صلاة جمعة، فادعى كذباً أنه أمهل المراسلة أسبوعاً (وكان يخطب بعد عشرة أيام من المؤتمر!) وجدد مطالبتها. ثم أخذ يحمل في خطب صلاة الجمعة على الصحف التي تتناول أموراً اجتماعية معينة بالبحث، راسماً خطوطاً حمر للصحافة. ثم توّج ذلك كله بأن استدعى القاضي، المسؤول عن إضبارة أمانة طهران، أمين العاصمة لتقديم بعض الإيضاحات، وسط ضجة أشد صخباً لصحف «اليمين». لم يصدر أمر بتوقيف أمين العاصمة وإنما أفرج عنه بكفالة نقدية — وإن كانت ضخمة إلا أنها تقل بما لا يقاس عن مبالغ «الاختلاس» الذي كثر الحديث عنه، ومنع سفره من منطقة نظر القضية، طهران، وإن كان المرء ليتعجب كيف غادر الأمين إيران كلها بمعية الرئيس السابق، ورئيس مجمع تشخيص مصلحة النظام الحالي، الشيخ الرفسنجاني، في زيارته التي استغرقت أسبوعين الى المملكة العربية السعودية!

وقد أدت هذه المواقف مجتمعة الى تشكيل رأي عام يطالب بإبعاده عن السلطة القضائية تبلور بشكل صريح في دعوة «الجمعية الإسلامية لطلبة جامعة العلم والصناعة» بطهران، الولي الفقيه الى إبعاده وتنصيب «شخص صالح ولائق» من أجل إصلاح هذه السلطة «ضماناً لمستقبل النظام والثورة». ولم تلقَ هذه الدعوة استجابة، ولا حتى جواباً. واحتج عدد من مراسلي وكالة أنباء الجمهورية الإسلامية ونقابة محرري الصحف على موقفه من المراسلة المذكورة، خاصة بعد توجيه كتاب رسمي يستدعيها للحضور في محكمة «منطقة رئاسة السلطة القضائية» وتقديم المستندات المطلوبة، والتي تعهدت هي! بتقديمها، وإلا فستتخذ الإجراءات القانونية بحقها!

ولكن الرأي العام أو الأعراف والتقاليد الصحفية ليست مما يثني رئيس السلطة القضائية عن عزمه. فالذي يبدو أنه يتعمد تصعيد الموقف مع السلطة التنفيذية ليخلق لها مشكلة تضاف على المشاكل التي تواجهها من تركة التضخم الكبير، وازدياده بفعل سياسة «البناء» و«الانفتاح» السابقة، وما جاء به الانخفاض الكبير لأسعار النفط في الأسواق العالمية من عبء جديد، وكذلك مشكلتها مع مجلس الشورى الذي بدأ يزحف باستيضاحاته على بعض الوزراء وهجومه حتى على رئيس الجمهورية. بل لا يستبعد أن يكون موقف رئيس السلطة القضائية مخططاً له مسبقاً مع المجلس، وشخص رئيسه بالذات — مرشح اليمين الفاشل في انتخابات الرئاسة، الشيخ ناطق نوري. وهكذا، فقد أقدم قاضي محاكمات أمانة العاصمة نفسه على توجيه الضربة قبل القاضية في هذه المحاكمات، التي طالت نحو سنة. فقد كان هذا القاضي قد استدعى أمين العاصمة

للحضور الى المحكمة في أول يوم عمل رسمي منتظم من السنة الجديدة(٩)، وعندما راجع الأمين خضع لاستجواب أصدر القاضي على أثره حكماً بتوقيفه لمدة ثلاثين يوماً.

ولابد أن صحف «اليمين» المسائية كانت على علم مسبق بالطبخة، فقد صدرت بعد الظهر(١٠) زافة لقرائها الخبر بعناوين مثيرة وأطر بارزة وتعليقات ضافية وافية. وتركزت تعليقات هذه الصحف ذلك اليوم وفي الأيام التي تلته على الحديث عن قدرة السلطة القضائية وحزمها، مضيفة توابل عن بداية النهاية للمتلاعبين ببيت المال، وضرورة أن يقدم الأمين «المجرم!» حساباً عن المبالغ التي اختلسها (!) لصالح أوساط معروفة. وأذاع التلفزيون في شبكته الرئيسية العامة الخبر، دون تعليق، في موجز أخبار الساعة السابعة مساءً.

وأصدرت وزارة الداخلية بياناً استغربت فيه نبأ توقيف أمين طهران، وأعربت عن انزعاجها للطريقة التي تم بها، إذ جرى العرف أن يتم اعتقال كبار المسؤولين الإداريين بتنسيق مسبق مع أكبر مسؤول في الجهاز الذي يتبعونه، بينما اعتقلت السلطة القضائية أمين طهران دون مشاورة وزارة الداخلية، اعتقلت شخصاً يحضر اجتماعات مجلس الوزراء عادة دون مشاورة رئيس الجمهورية وأثناء غياب وزير الداخلية عن البلاد لأداء فريضة الحج.

ولما كان مجلس الوزراء عاقداً اجتماعاً ذلك اليوم، فقد بدا الناطق الرسمي باسم الحكومة، وزير الإرشاد السيد مهاجراني، منفعلاً وهو يجيب مراسل التلفزيون عن سؤال بخصوص الاعتقال، قائلاً إنه والحكومة فوجئا بالخبر، ولم يكن للحكومة علم مسبق وإنما تلقت رسالة فاكسية به بعد وقوعه، وأن مجلس الوزراء سيعقد جلسة خاصة في الغد لبحث الموضوع.

وصدرت صحف اليوم التالي، من الاتجاهات السياسية الثلاثة، المعروفة والمعترف بها، لتشبع الموضوع بحثاً وتعليقاً، وأذاعته محطتا الإذاعة والتلفزيون في جميع نشرات أخبارها، دون تعليق، وتصدر الخبر تلكسات وكالات الأنباء العالمية، وأشبعته إذاعات عالمية تعليقاً. ثم أجرت مؤسسة الإذاعة والتلفزيون الإيرانية لقاءً مع رئيس المجمع القضائي الذي ينتسب له القاضي الذي أصدر حكم التوقيف، بيّن فيه الأسباب القانونية الموجبة معتمداً على قانون «تشديد مجازاة المختلسين والمتلاعبين والمحتالين»، مبيناً أن التهم الموجهة للأمين هي: الاختلاس وسوء الإدارة وتضييع حقوق بيت المال، وأن القاضي وجد المستندات كافية لإصدار أمر التوقيف، وأن هذا الأمر غير قابل للنقض.

وعندما سئل عن إمكان بيان ماهية المستندات أجاب بأنها أوامر صرف رسمية وحسابات مصرفية واعترافات رؤساء البلديات الذين سبق أن أدينوا.

وعند المساء ظهر الناطق باسم الحكومة مرة أخرى ليعلن أن جلسة مجلس الوزراء لذلك اليوم استغرقت أكثر من خمس ساعات خصصت كلها للموضوع. وقد تحدث فيها الجميع وأجمعوا على جسامة الأمر «وانصعاقهم» له، وأن أمر التوقيف ليس «عيدية» مناسبة من السلطة القضائية للسلطة التنفيذية بمناسبة العيد! وبيّن أن أكثرية المتحدثين استغربوا توقيف الأمين بموجب ذلك القانون، وأنهم يعتبرونه مثبطاً للمديرين الفعالين. وأضاف أن مجلس الوزراء طلب من وزارة الداخلية تقديم صحيفة أعمال مفصلة عن أعمال أمانة العاصمة تعرضها عليه، كما أنه سيقدم المداولات القانونية التي أجراها مشاورو مجلس الوزراء القانونيون حول الأمر الى «الولي الفقيه»، لإطلاعه على ماهية الأمر وما ينوي عليه، كما أنه سجل اعتراض المجلس على لاقانونية طريقة الاعتقال. وبيّن أيضاً أن معاون الرئيس للشؤون القانونية ووزير العدل طلبا مقابلة الأمين المعتقل إلا أن رئيس عدل طهران رفض ذلك. ثم طرح موقفاً غريباً، إذ أعلن أن الأمين لايزال ـــ من وجهة نظر الحكومة ـــ أميناً للعاصمة يمارس صلاحياته القانونية! لذلك فإن صلاحياته الروتينية وزعت مؤقتاً على معاونيه ورؤساء البلديات، بينما يجري العمل للتنسيق مع الجهات القضائية المختصة لاستحصال توقيعاته الشخصية اللازمة على بعض المعاملات. ولمّح الى أنه وزملاءه من أعضاء جماعة عاملي البناء قد يستقيلون من مناصبهم احتجاجاً على الاعتقال إن لم يلغ أو لم تتخذ الحكومة موقفاً أشد صلابة منه.

ثم قطع التلفزيون بقية حديث الناطق باسم الحكومة! في عمل غير مسبوق، ليعيد بث حديث رئيس المجمع القضائي المذكور. وانتقل الأمر بالطبع الى مجلس الشورى الإسلامي، حيث كان ممثلو الأكثرية ـــ وهم من «اليمين» ـــ المبادرين الى بذل المدائح للسلطة القضائية على حرصها على حقوق الشعب وأمواله، وخزمها في معالجة الأمور. ولما كان مركز «اليسار» و«الوسط» ضعيفاً ـــ إذ بأية وسيلة وعن أي طريق يمكنه التدخل في عمل السلطة القضائية، وماذا يقول ولم تبدأ المحاكمة بعد؟! ـــ فقد نشط ممثلوه في مجال التصريحات الصحفية التي تناولت عموميات على إنجازات الأمين وتاريخه وعائلته. ولفت النظر من تلك التصريحات إثنان: تلميح نائب كرمان ـــ رئيس مكتب الشيخ الرفسنجاني سابقاً ومحافظ كرمان قبل ذلك ـــ الى أن جماعة عاملي البناء

قد تدعو الى تجمع جماهيري للاحتجاج على التوقيف، ودعوة نائبة طهران ــ ابنة الرفسنجاني ــ الشيخ الرفسنجاني ومجمع تشخيص مصلحة النظام الى التدخل في الأمر! وقول كلمة الحق في صالح الأمين، لأن الأعمال التي اعتقل من أجلها وقعت أثناء فترة رئاسته.

وأصدرت «جماعة عاملي البناء» ــ التي كان كرباسجي أنشط مؤسسيها ــ بياناً كان أهم ما ورد فيه، عدا ما استعرضناه سابقاً، القول بأنه «لو يجري بحث ملف أمين طهران في محكمة علنية بحضور هيئة منصفة سياسية فإن وجه كرباسجي الطاهر والعاري من كل شبهة، وخدماته الباهرة والقيمة ستتضح مزيداً لشعب إيران الكبير». وهذا، في الواقع، هذر لا محل له، إذ أن محاكمات الصحف والمحاكمات السياسية فقط هي التي تجري بحضور هيئة منصفة، بينما القضية موضوع البحث قضية مخالفات إدارية ومالية. ثم أصدر «مجمع رجال الدين المناضلين» بياناً أضعف، اكتفى بالإشارة الى المسائل العامة نفسها عن ماضي كرباسجي وعن خطر أن يؤدي اعتقاله وسوء معاملته اللاحقة الى إضعاف مبادرات المدراء الآخرين ويخيف كبار المسؤولين من تحمل المسؤوليات مستقبلاً. ثم أصدرت «منظمة مجاهدي الثورة الإسلامية» بياناً أكدت فيه تأييدها مطاردة ومحاسبة أي مسؤول، مع تأكيدها على أنها لا ترى في اعتقال كرباسجي ومحاكمته المنتظرة، وفي كل إضبارة بلديات طهران أيضاً، حرصاً على أموال الشعب بقدر ما ترى من أهداف سياسية. وحذرت أنصار السيد كرباسجي، ومؤيدي السيد خاتمي، بألا يتحرجوا في بيان موقفهم بل الثبات عليه، لأن موقف السلطة القضائية جزء من حركة منسقة يراد بها الرد على «ملحمة» انتخاب خاتمي. وأصدرت «جمعية الدفاع عن القيم الإسلامية» بياناً أكدت فيه سياسة إجراءات السلطة القضائية، وعدم إمكان هذه السلطة إجراء تحقيق نزيه في أية مسألة مهمة، نظراً لتورطها في الأمور السياسية الداخلية وعدم سماعها الانتقاد وعدم قبولها النصح. وسألت إحدى الصحف وزير الأمن عن معلوماته ورأيه بشأن المسألة فأجاب: «ليست لدينا أية معلومات، **هذه الأمور سرية، لسنا على علم بما يجري!**». أفكان يقول ذلك حقاً، أم أراد به الطعن والتلميح الى انتقاد للسلطة القضائية؟

وفي كل الصخب الذي رافق العملية يتضح أن موقف السلطة القضائية سليم لا غبار عليه بقدر ما يتعلق الأمر باعتقال أمين طهران، وأن العيب «البسيط!» في الأمر هو أن السلطة القضائية لم تصدر أمر اعتقال رئيس مؤسسة المستضعفين ومديري المصارف

ذات العلاقة في قضية «الاختلاس الكبير» رغم اتضاح علاقتهم بذلك الاختلاس، كما أنها تركت كل الدوائر الفاسدة وتعلقت بأذيال أمانة طهران وبلدياتها فقط.

كما يتضح أن طريقة معالجة «الوسط» و«اليسار» خاطئة، لأن أساسها ومنطلقاتها ضعيفة. فإنجازات أمين العاصمة لا يجوز أن تعصمه من الحساب وتاريخه في العمل الثوري والخدمة المدنية وعائلته الدينية لا يعنيان حصانته الدائمة ضد الفساد. وعلى هذا فقد كان تحرك هذين الخطين، و«الوسط» خصوصاً، غير موفق، وربما كان ذلك ما دفع الناطق باسم الحكومة، في مؤتمر تال، الى الامتناع عن الحديث في الأمر. كما أن هذا الضعف، إضافة الى ارتعاب السيد خاتمي من فتح جبهة مجلس الشورى ضده شخصياً، هو الذي منعه لا من قول كلمة في الموضوع فقط، وإنما من نشر نتائج تحقيق أجرته لجنة شكلها لبحث ادعاءات رؤساء بلديات طهران عن لاقانونية معاملتهم، أو تقديمه الى الولي الفقيه على الأقل.

وإذا كان ممثلو الجانبين ــ المؤيد والمعارض لاعتقال كرباسجي من التيارات السائدة الثلاثة المعروفة ــ قد رسموا لأنفسهم، خضوعاً لرقابة ذاتية، خطوطاً لا يتجاوزونها في ما يبحثون، فإن أطرافاً أخرى لم تجد نفسها مقيدة باعتبارات الجانبين، ولذلك فقد ذهبت جريدة «جامعة» (=المجتمع)، مثلاً، أبعد من ذلك، حين كتبت تقول:

«بما أنه قد وردت الإشارة في حكم التوقيف الى المسؤولية القانونية لأمين العاصمة بخصوص إجراءات رؤساء بلديات المناطق، فإن من المستلزمات الطبيعية والحقوقية لهذا الأمر استدعاء السيد هاشمي رفسنجاني ــ رئيس الجمهورية السابق ــ والسيد بشارتي ــ وزير الداخلية السابق ــ أيضاً لتقديم إيضاحات. لأنه، كما سبق أن أشار السيد كرباسجي مراراً، قام بأكثر أعماله المذكورة بتأييدهما. وعلاوة على هذا، ففي محاكمة المعاون المالي والإداري لأمانة طهران، جرت الإشارة الى صرف مبالغ للسيد علي هاشمي، ابن عم السيد رفسنجاني ورئيس الإنتاج بشركة النفط الوطنية الإيرانية. ولكن هذا لم يتم استدعاؤه للمحكمة لبيان الإيضاحات اللازمة، الأمر المثير للبحث بدوره.

«ومن إلزامات إجراء كهذا رعاية العدل والمساواة في تناول المسائل المشابهة التي وقعت في مؤسسات أخرى، ومن بينها السلطة القضائية. فعلى سبيل المثال، أثناء سير محاكمات الأخوة (افراشته) في العام الماضي، اعترف المذكورون صراحةً أنهم دفعوا رشوة لمجمع بلدة (شميران) القضائي وأنهم اشتروا مركز شرطة (شميران) بالمال. وقد نشرت هذه الاعترافات في الصحف وأثارت أسئلة في أذهان الرأي العام. وعلى هذا،

فالتحقيق في الفساد داخل السلطة القضائية. . . أكثر ضرورة من أي عمل آخر، لأنه إن كان لجهاز ما أن يتلوث فليس بمقدوره نيل ثقة الرأي العام.

«وضمن هذا الإطار، ثمة أسئلة تتعلق بوجود رئيس السلطة القضائية في هيئة أمناء مؤسسة (فاطمية)، التي تمتلك مصنع إطارات (دنا). . . يقال إن المصنع المذكور بيع الى مؤسسة فاطمية بسعر يقل كثيراً عن قيمته الحقيقية. ولما كان المصنع المذكور من مصانع مؤسسة الصناعات القليلة المربحة، فقد اعترض عماله وموظفوه، في بيانات عديدة، على هذا الإجراء، وبيّنوا مخالفات أخرى من بينها الامتناع عن بيع أسهمه للعمال وتقسيم مبالغ هائلة من المال بين أعضاء مجلس الإدارة و. . . مسؤولين، من بينهم رئيس السلطة القضائية، ولكن لم يجر أي تحقيق في هذا المجال. إن التحقيق في مسائل من هذا القبيل، مما يتعلق ـــ بشكل ما ـــ بأفراد السلطة القضائية، سيكون دليلاً على عدالة السلطة القضائية وحيادها».

وقد اضطر ذلك كله الولي الفقيه، زعيم الثورة، يعني السيد الخامنئي، الى التدخل أخيراً، ولكن بعد فوات الأوان. فهو لم يتدخل في الوقت المناسب لفرض فتح تحقيق في مخالفات أكبر في مؤسسات أعظم. ولم يتدخل للتحقيق في خرق حقوق المواطنين المتهمين أثناء اعتقالهم. ولم يعزل رئيس السلطة القضائية عندما أشار هذا في مجالس خاصة الى نيته في التقاعد. ولكنه تدخل بعد أن خشي ـــ فيما يبدو ـــ من فضح مزيد من التفاصيل عن الخروقات والمخالفات في الكثير من الأجهزة، خاصة تلك التي تقع تحت إشرافه هو لا إشراف الحكومة، وبعد أن خشي من الاضطرار الى جرجرة دعائم كبرى في النظام لـ«التوضيح»، في الأقل، إن لم يكن لضرورات التحقيق الطبيعية وما قد يكشفه أمين العاصمة دفاعاً عن نفسه أثناء محاكمته، وبعدأن خشي أن تجر التجمعات الاجتماعية ـــ إن قامت ـــ الى نتائج غير محسوبة لأنها ليست من نوع التجمعات التي تدعو لها مؤسسات النظام. فجمع زعيم الثورة رؤساء السلطات الثلاث، إضافة الى الشيخ الرفسنجاني، وأوعز أن يبحثوا ما يتعلق بإضبارة أمانة طهران بعيداً عن التأثيرات السياسية، وتقديم تقرير سريع له حول الموضوع. فهو إذن لم يتدخل في شؤون السلطة القضائية مباشرة، ولو فعل لكان ذلك أفضل، لأنه من حقه وصلاحيته دستورياً، وكان تدخله الشخصي سيحسم الأمر على الوجه الذي يراه صحيحاً، فقراراته الـ«حكومية» فوق كل اعتبار، بحيث يمكنه ـــ من خلالها ـــ حتى أن يوقف العمل ببعض الواجبات الشرعية. وكان سيحسمه سريعاً دون الحاجة الى تمييعه في عمل اللجان وإجراءاتها،

خاصة وأن الموضوع يتفاعل منذ نحو سنة ولم يبق شيء يتعلق به خافياً. ولكن عمله بحد ذاته إهانة للسلطة القضائية. فقد خوّل رئيسي السلطتين التنفيذية والتشريعية ـــ إضافة الى شخص ثالث ـــ بمشاركتها في أعمالها بخصوص قضية محددة. فما الذي سيتلو ذلك؟

هل سيطالب خاتمي بالتضحية بأمين العاصمة؟ لا يمكن لخاتمي أن يفعل ذلك، فمعركته مع السلطة القضائية قائمة، ولن يفعل ذلك سوى إدامة الصراع بجرأة أكبر للسلطة القضائية. كما أنه لن يفقد بذلك دعم «الوسط» ـــ الممثل بجماعة عاملي البناء ـــ فقط، وإنما مصداقيته أمام ناخبيه الذين وعدهم بمجتمع القانون وسيادة القانون. ثم ما سيكون موقف الشيخ الرفسنجاني، الذي ينعدم المبرر «الفني» لوجوده في اللجنة التي شكّلها زعيم الثورة، وهو الذي سيحاكم أمين العاصمة على أعماله أثناء رئاسته هو ـــ رفسنجاني ـــ واقترافه الكثير من مخالفاته المزعومة بإيعازه (رفسنجاني) المباشر أو بعلمه واطلاعه في الأقل؟

وماذا سيكون موقف رئيس مجلس الشورى الإسلامي؟ هل سينسى أفضال رئيس السلطة القضائية عليه أثناء معركته لانتخابات الرئاسة؟

وأخيراً، لقد تقبل الشيخ اليزدي حتى الآن إهانة فسح المجال للآخرين للتدخل في شؤون امبراطوريته، فهل سيتقبل أيضاً حكمهم؟ أم أنه سيطلب إحالته على التقاعد قبل ذلك؟ أو انتظار الحكم ليعلن تقاعده احتجاجاً عليه؟

وإذا ما اختفى الشيخ اليزدي عن المسرح، فمن الذي سينصبه زعيم الثورة محله؟ هل سينصب علماً آخر من أعلام اليمين؟ لن يحل ذلك الأزمة التي تبدو مستعصية في عمل السلطة القضائية. وإذا كان أي رئيس يميني جديد سيكون أضعف موقفاً من الشيخ اليزدي ـــ مهما تكن قوته الشخصية والثقل المضاعف الذي سيرميه وراءه اليمين كله ـــ إلا أن موقف السيد خاتمي أيضاً سيكون أضعف، إذ سيبدو أي اختلاف له مع السلطة القضائية عندئذ وكأنه عناد لا مبرر له. في كل أحوال هذا السيناريو سيستمر الانشقاق بين السلطتين التنفيذية والقضائية، ولا يعلم أحد كيف ستتم تسويته!

أما إذا أراد الزعيم تنصيب شخص من «الوسط» أو «اليسار»، فسيعني ذلك التزامه جانبهما في هذا الصراع المكشوف. فهل يريد ذلك؟ هل يقوى عليه؟ وهل يسمح له اليمين بفرضه؟

الهوامش

(١) وكانت تتمثل في «ديوان القضاء العالي».

(٢) والواقع أن تدخله الاول يمكن اعتباره، بقليل من التساهل، من هذا النوع من الاحكام أيضاً.

(٣) تم التعديل بعد وفاة المرحوم الخميني، وإن كانت الدراسات التحضيرية والمناقشات التمهيدية قد بدأت بإيعاز منه وجرت في حياته.

(٤) أول مرشح لرئاسة الجمهورية الإسلامية الإيرانية من قبل قيادة الثورة والأجنحة المختلفة، بحيث كان فوزه يبدو مسلماً حتى أنها لم تفكر في ترشيح شخص آخر معه، أو حتى باحتمال بديل له. ولكن قبيل غلق باب الترشيحات أثير اعتراض على ترشيحه باعتبار أن أحد أبويه غير إيراني (افغاني)، مما لا يجيزه الدستور. وقد اضطرت القيادة الى دفع مرشح بديل على عجل، لم تتح لها فرصة كافية لتسويقه على الناخبين، كما تقدم آخرون مقبولون أيضاً بترشيح أنفسهم، فتشتت أصوات مؤيدي الخط المحافظ، مما ساعد أبا الحسن بني صدر على إلحاق هزيمة ساحقة بمنافسيه ليصير أول رئيس جمهورية في تاريخ إيران.

(٥) هو السيد محسن رفيق دوست، الذي كان قبل ذلك وزيراً لحرس الثورة أسقطه مجلس الشورى الثالث بسحب الثقة. ولعل سابقته المهمة قيادته سيارة المرحوم الخميني يوم عودته الى إيران قبيل انتصار الثورة الحاسم. وربما شفيعه ما يقال عن ارتباطه النسبي أو السببي ببعض رموز النظام.

(٦) يتمتع مديرو المستوى العالي في إيران بصلاحيات واسعة في مجال مديرياتهم، بما فيها تغيير طاقم موظفين كامل، فكيف برئيس سلطة يكاد يعادل رئيس الجمهورية مستوى قيادياً، وهو الحاكم المطلق داخل سلطته؟!

(٧) أجرى مجلس الشورى الإسلامي تحقيقين مهمين، أحدهما عن مؤسسة الإذاعة والتلفزيون والآخر عن مؤسسة المستضعفين، وصفت نتائجهما بأنها «هازّة»، ولكن المجلس اكتفى بإصدار توصيات إدارية للأولى! ولم يجد ضرورة لبحث تقرير الثانية! أما السلطة القضائية فيبدو أنها لم تسمع بالأمر.

(٨) شكلها بعض وزراء رفسنجاني وأمين طهران ونجحت في إرسال عدد من مرشحيها الى المجلس الخامس.

(٩) تبدأ السنة الإيرانية يوم ٢١ آذار / مارس، وهو والأيام الثلاثة التالية له عطلة رسمية. ولكن العطلة شبه الرسمية تمتد لمدة أسبوعين تكون الدوائر الرسمية فيها شبه معطلة.

(١٠) تغلق صحف المساء التحرير ظهراً، وقد راجع الأمين المحكمة ظهراً أيضاً، ولم يكن أمر توقيفه قد صدر حينئذ

مقابلة مع سكرتير الحزب الشيوعي الكندي

الإتفاقية متعددة الأطراف والعولمة

أجرى المقابلة: ثامر الصفار

أواخر نيسان الماضي «توقفت» لستة أشهر المحادثات الخاصة بالإتفاقية المتعددة الأطراف للإستثمار (ماي MAI) Multilateral Agreement on Investment. ويعد هذا انتصارا عالميا هاما لجميع منظمات العمال والبيئة وغيرها من المنظمات الديمقراطية، ضد الشركات متعددة الجنسية، وذلك بسبب استمرار الاختلافات الاقتصادية والسياسية بين القوى الرأسمالية المهيمنة على السوق. ولكن بعد أيام أكد بعض المفاوضين، مثل الكندي دونالد جونسون، السكرتير العام لمنظمة التعاون والتنمية الإقتصادية OECD «ان الـ(ماي) لم تمت». وبدأ محررو المؤسسات الإعلامية بالضغط على الحكومة الكندية الليبرالية وعلى بقية أغنى الدول لإستئناف المحادثات دون إبطاء. لقد بدأت المفاوضات بشأن إتفاقية الـ(ماي) عام ١٩٩٥ تحت إشراف الـ OECD التي تضم أغنى ٢٩ دولة وتهيمن عليها مجموعة الدول الصناعية الثمان. وكانت استراتيجية هذه النخبة من الدول الإمبريالية هي الوصول الى إتفاقية إستثمار مناسبة لها جميعا أولا، ومن ثم فرض الإتفاقية، من موقع القوة، على بقية دول العالم.

قد تلجأ تلك الدول الى التحايل عند بدء المحادثات مرة أخرى. وربما، حسب ما ذكرت مجلة Economist، سيتم طرح الإتفاقية على ١٣٢ دولة عضو في منظمة التجارة العالمية WTO. وربما سيجري التأكيد على التحول الى معاهدات ثنائية للإستثمار (لدى كندا مثلا ١٨ إتفاقية إستثمار ثنائية) أو الى معاهدات إقليمية، كخطوات تمهيدية

للوصول الى الـ(ماي) مستقبلا. وسواء من خلال سياسة خطوة خطوة عبر معاهدات إستثمار ثنائية أو إقليمية، أو مرة واحدة عبر إتفاقية إستثمار متعددة الأطراف، فإن صيغة ما من صيغ الـ(ماي) ستعود لتظهر لنا من جديد لأن باعثها ومحركها هو العولمة الرأسمالية.

حول هذا الموضوع أجرينا المقابلة التالية مع الرفيق ميغيل فيغاروا سكرتير الحزب الشيوعي الكندي بهدف إعطاء صورة واضحة عن هذا الإتفاقية وما سبقها من معاهدات وتأثيرها الضار على الطبقة العاملة وعلى شعوب العالم قاطبة، وموقف الشيوعيين الكنديين.

بداية نرحب بكم أجمل ترحيب ونود أولا ان تقدموا للقراء تعريفا موجزا بشخصكم.

فيغاروا: ولدت في مدينة مونتريال وأكملت الدراسات العليا في موضوع التنمية العالمية، عمري الآن ٤٦ عاما. أصبحت عضوا عاملا في الحزب عام ١٩٧٧، كلفت بمسؤولية التنظيم لمنطقة فانكوفر (غرب كندا) للفترة من ١٩٧٨ الى ١٩٨٦، وصرت سكرتيرا للمناطق الشرقية لكندا ما بين عامي ١٩٨٦ و١٩٩٢. أصبحت عضوا في اللجنة المركزية عام ١٩٨٦، وجرى إنتخابي كسكرتير عام ١٩٩٢، ثم أعيد إنتخابي عامي ١٩٩٥ و١٩٩٧. خضت إنتخابات البرلمان الكندي كمرشح عن الحزب في الأعوام ١٩٨٤، ١٩٨٨، ١٩٩٣، وأخيرا عام ١٩٩٧.

أصدر حزبكم مؤخرا، بالتنسيق مع الحزبين الشيوعيين الأمريكي والأسترالي، نداءً الى جميع الأحزاب الشيوعية والعمالية ومنظمات التحرر الوطني تدعونهم فيه الى العمل الموحد لإيقاف إتفاقية الـ(ماي)، فوقع النداء الحزب الشيوعي العراقي ضمن ٦١ حزبا ومنظمة، نرجو ان توضحوا لنا ماهية هذه الإتفاقية؟

فيغاروا: يحاول مروجو الإتفاقية ان يصفوها بأنها مجموعة من القواعد التي تحكم سلوك المستثمرين في الخارج. وحقيقة الأمر انها إتفاقية سياسية تلغي جميع القواعد والقوانين التي تحكم أو تعيق سلوك المستثمرين سواء داخل بلدانهم أو خارجها. انها تحرم على الحكومات القيام بأي إجراء من شأنه ان يعيق أو يهيمن أو يزيد الضرائب على الشركات الرأسمالية القومية أو متعددة الجنسية. فملكية الإستثمار والتحكم به،

وبالتالي إمتلاك وسائل الإنتاج والتحكم بها، هما مسألتان أساسيتان في كل مجتمع، لرسم طريق تطوره الإقتصادي والإجتماعي والسياسي. وعليه فأن منع الدولة من التدخل في الإستثمارات المحلية أو الأجنبية سيضعف من قدرة شعبها على التحكم باقتصاده، وبالتالي إختيار طريق تطوره، وهذا هو هدف هذه الإتفاقية. لكن الشركات متعددة الجنسية تحاول إقناعنا بأن الحركة الحرة لرأس المال هي في صالح المجتمع، وان ما هو جيد لهذه الشركات جيد للعالم أجمع. ومن أجل ذلك فأنها تنتهج سياسة أو أيديولوجيا ما يسمى الليبرالية الجديدة.

ان الـ(ماي)، حسب ما جاء في مقدمة دستورها، هي إطار متعدد المستويات للإستثمار العالمي ذو معايير عالية لإضفاء الطابع الليبرالي على أنظمة الإستثمار وحماية الإستثمار. ومن خلال ذلك يتضح ان الدولة مطالبة بعدم إتخاذ أي إجراء من شأنه إعاقة الرأسمالي متعدد الجنسية، وعمل كل ما يمكن لحماية ملكيته الخاصة. بإختصار، ان الإتفاقية تعامل حكومات الدول على انها خدم للرأسمال العالمي. وإذ تفيض الإتفاقية بالقوانين والقواعد حول ما يتوجب على الحكومات ان تفعله او لا تفعله بخصوص المستثمرين الرأسماليين، نجدها خالية تماما من أية مهام ملزمة للشركات المستثمرة. بل انها لا تشير الى واجب الدول بحماية حقوق شعوبها في العمل والبيئة والبرامج الإجتماعية والتنمية الإقتصادية.

وللكنديين تجربة عشرين عاما مع الليبرالية الجديدة في شكليها المعتدل والمتهور الساحق. ان جدول عمل هذه الليبرالية الجديدة يتلخص في: الخصخصة، إزالة الضوابط deregulation، إضعاف معايير العمل والبيئة وتوسيع حرية التجارة. ونتائجها معروفة على نطاق واسع: هبوط مستويات المعيشة، زيادة البطالة، إرتفاع ضغط العمل، الإجهاد، إلغاء الضمان الإجتماعي، تقليص شديد في الإنفاق على الصحة والتربية والتعليم، والبرامج الإجتماعية، وإجبار المعتمدين على المساعدات الإجتماعية بالقيام بأعمال السخرة لكي يحصلوا على المساعدات، بالإضافة الى الأزمات البيئية وإهدار المصادر الطبيعية، وأخيرا تقليص الإستقلال الوطني، وتآكل الديمقراطية، وإحتكار وسائل الإعلام، وإزدياد سيطرة القطاع الخاص على المؤسسات الحكومية، وتفشي الفساد السياسي.

غالبا ما يجري نسيان ان كندا بلد ذو ثروة هائلة، إنتاجية متنامية، وإجمالي ناتج وطني مستمر بالإرتفاع. ومع ذلك، لا زلنا نعاني من وجود ١,٣ مليون عاطل عن العمل.

والواقع ان الأرقام الحقيقية أعلى بحوالي ٥٠٪ إذا ما أضفنا الذين يئسوا من الحصول على عمل. ولا أريد ان أورد أمثلة أخرى فمساوئ الرأسمالية ليست بخافية على أحد، وكندا أحدى البلدان الأكثر ثراء لكنها تعيش حالة مزرية بسبب سياسة الليبرالية الجديدة.

من خلال ما ذكرتم، يتضح ان إتفاقية الـ(ماي) هي الأكثر ضررا من بقية معاهدات التجارة الحرة، حيث تؤدي الى تدمير الحقوق الديمقراطية وتهدد إستقلال الدول، فكيف الحال بالنسبة الى كندا؟

فيغاروا: كانت البداية عام ١٩٨٨ عندما جرى التوقيع على إتفاقية التجارة الحرة بين الولايات المتحدة وكندا، ضمن الإتفاقية العامة للتعرفة الجمركية والتجارة GATT المشابهة لإتفاقية التجارة الحرة الأوربية عام ١٩٦٠، والبريطانية ـ الأيرلندية عام ١٩٦٥، والأسترالية ـ النيوزيلندية عام ١٩٨٣، والأمريكية ـ الإسرائيلية عام ١٩٨٥. لكن الإتفاقية بين كندا والولايات المتحدة دشنت مستوى جديداً من المعاهدات، أكثر إندفاعا بإتجاه العولمة ومعاداة للديمقراطية. أعقبتها إتفاقية التجارة الحرة لشمال أمريكا NAFTA عام ١٩٩٤، ونشوء منظمة التجارة العالمية عام ١٩٩٥. جميع هذه المعاهدات تهتم بموضوع واحد لا غير وهو الحركة الحرة لرأس المال، عبر إلغاء جميع القيود الحكومية النافذة وتقليص الفرصة لظهور قيود جديدة في المستقبل.

لم تحظ أي من هذه المعاهدات بدعم الشعب الكندي. ففي إنتخابات عام ١٩٨٨، وقفنا بالضد من إتفاقية التجارة الحرة الأمريكية ـ الكندية وكذلك فعل الحزب الديمقراطي الجديد، وحتى الحزب الليبرالي وهو حزب بورجوازي. ورغم المعارضة الواسعة تمكن رأس المال من إقرار الإتفاقية. في عام ١٩٩٣ خاض الليبراليون الإنتخابات تحت شعار أساسي ينص على معارضتهم لاتفاقية NAFTA، وهاجم كريتيان (زعيم الحزب آنذاك ورئيس الوزراء الحالي) ما سماه بالصفقات التجارية السيئة لحزب المحافظين. ووعد بإعادة التفاوض حول بنود الإتفاقية الأولى والجديدة وإلا فأنه سيلغيهما. لكنه نسي ذلك بعد فوزه ووقع الإتفاقية الجديدة دون التفاوض حتى على جملة واحدة. ودون العودة للشعب أنضمت كندا الى منظمة التجارة العالمية عام ١٩٩٤.

لقد بدأت المفاوضات حول الـ(ماي) بسرية تامة، ولم تتسرب المعلومات حول مساهمة الحكومة الكندية فيها إلا عام ١٩٩٧. وحينها كذّب الليبراليون هذه المعلومات، ولكن بعد تراكم الأدلة إضطروا الى الأعتراف بمساهمتهم فيها لكنهم حاولوا إقناع الكنديين بأنهم سيحمون إستقلال البلد وانهم لن يتسرعوا بالموافقة عليها. المعلومات المتوفرة لدينا تكشف عن الطابع الطبقي للإتفاقية، ويعرف الليبراليون وأعوانهم حقيقة انها معاهدة سياسية يمينية لخدمة النخبة الرأسمالية، وان الشعب الكندي سيقف بالضد منها. ففي أعقاب إقرار إتفاقية التجارة الحرة الأمريكية ـ الكندية عام ١٩٨٨، غدا الكنديون أكثر وعيا، وأشد مناهضة لإتفاقيات التجارة الحرة. فقد أظهرت الاستطلاعات الجماهيرية هبوط شعبية فكرة التجارة الحرة ما بين عامي ١٩٨٨ و١٩٩٣. إذ كان ٤٠٪ من الكنديين يؤيدون إتفاقية التجارة الحرة ألامريكية – الكندية، و٢٨٪ يؤيدون NAFTA.

ان أخطر ما في التجارة الحرة هو إمكانية الشركات الرأسمالية تقديم الدعم المادي للأحزاب السياسية البورجوازية، كالمحافظين والليبراليين، فكلا الحزبين مسؤول عن التشريعات الخاصة بتمويل حملة الإنتخابات، حيث يمكن لكليهما الإعتماد على التبرعات السخية للشركات الرأسمالية المحلية، بل وحتى الشركات الإجنبية إذا ما كان لها مكتب او مصنع داخل كندا. ان الحزبين لم يجهدا نفسيهما في توضيح كيف يمكن لهما التفاوض حول بنود إتفاقيات التجارة الحرة في الوقت الذي يكون فيه الطرف الثاني في المفاوضات هو نفس الشركات الرأسمالية التي أوصلتهم الى السلطة من خلال الدعم المالي. ونحن نتساءل: إذا كانت الإتفاقية في صالح الشعب الكندي فلماذا هذه السرية الصارمة في المفاوضات؟ وجوابنا هو ان الإتفاقية لم تكن ذات سمة ديمقراطية ولن تكون، لأنها معادية لمصالح الشعوب وإستقلال بلدانها.

ولكن، ألم تكن جميع الإتفاقيات السابقة معادية للديمقراطية؟ بمعنى آخر ما الذي يميز هذه الإتفاقية عن سابقاتها؟

فيغاروا: في الواقع ان الإتفاقيات السابقة سيئة بما فيه الكفاية، لكن مسودات إتفاقية الـ(ماي) فاقت الجميع في الهجوم على الديمقراطية واستقلال الدول. من المفيد ان أذكر بعض العناصر الأساسية للإتفاقية وكيف يمكن إستخدامها ضد الشعوب وضد البيئة. ففي أيلول ١٩٩٧، وضمن جولة المفاوضات التي كانت تجري

في باريس، صرح نائب رئيس الوفد الأمريكي في المفاوضات بأن العناصر الأساسية لإتفاقية الـ(ماي) هي اولا، حماية الرأسماليين من مصادرة الملكية، والحفاظ على حقهم في جني الأرباح. وثانيا، إلغاء جميع القوانين المحلية والإقليمية والدولية التي من شأنها ان تعرقل عمل الشركات متعددة الجنسية في الدخول الى الأسواق المحلية لأي بلد والحصول على العقود والصفقات الحكومية. وكل ذلك يجري عبر استخدام شعار عدم التمييز. وثالثا، إلغاء شروط الإستثمار. وهذا يعني عمليا عدم جواز التأميم وأي إجراءات ذات تأثير مماثل، وبالتالي فإن للشركات المستثمرة الحق في التدخل في الشؤون الداخلية للحكومات. ويعني أيضا إمكانية مقاضاة الحكومات إذا ما فضلت إعطاء العقود والمناقصات الى الشركات المحلية على أساس ان ذلك يدخل ضمن فقرة التمييز، بل ان للشركات الحق في إختيار العملة التي يتم فيها دفع التعويضات والغرامات. ويعني كذلك منع الحكومات من الإستفادة من وجود الإستثمار الأجنبي في بلدانها، أي السماح للشركات المستثمرة بجني الأرباح وإعادة إستثمارها في أي مجال أو أي بلد.

إذن ما الذي يتوجب على عمال كندا والعالم القيام به للرد على العولمة الرأسمالية حسب رأيكم؟

فيغاروا: تغيرت الظروف التي تواجه الطبقة العاملة الكندية تغيرا جذريا. فالقوة الساحقة للتجارة الحرة قد أظهرت بجلاء وحشية العولمة الرأسمالية، وغدا واضحا ان على الحركة العمالية ان تغير سياستها وإلا ستواجه المزيد من فقدان الحقوق الديمقراطية. ان جزءاً كبيراً من الطبقة العاملة الكندية وقيادات النقابات كان قد تبلور خلال العقود الثلاثة التي أعقبت الحرب العالمية الثانية أي في ما يسمى العصر الذي شهد نموا إقتصاديا وإنخفاضا في نسب البطالة. وتمكنت الطبقة العاملة من الحصول على الكثير من المكتسبات. لكن التوسع الرأسمالي في كندا إنهار في أواسط السبعينات وبدأت الطبقة الرأسمالية الحاكمة بشن هجمات عنيفة على الطبقة العاملة ومكتسباتها. فواجه العمال تجميدا وتخفيضات في أجورهم، وحالتي ركود إقتصادي عامي ١٩٨١ و١٩٩٠، وأزمات بيئية، وأنواعا جديدة من الضرائب، وإلغاء للعديد من برامج الخدمة الإجتماعية.

كانت الحركة العمالية في «العصر الذهبي» واقعة، نظريا وعمليا، تحت نفوذ النزعة

الإصلاحية وما يسمى بالمشاركة الطبقية. ونمت افكار من قبيل دولة الرفاه الكندية والرأسمالية المنضبطة لتصبح بمثابة الحل لمشاكل البطالة والفقر والأزمات. وتقبل معظم القادة العماليين جوهر الرأسمالية وحكم طبقتها، محددين أهداف الطبقة العاملة بصفتها شريكة، حسب ما يدعون، لرأس المال، ودعموا مفاهيم الإشتراكية الديمقراطية وحزبها السياسي، الحزب الديمقراطي الجديد. أما حزبنا والجناح اليساري من الحزب الديمقراطي الجديد فكانا يتعرضان الى شتى أنواع المضايقات والملاحقة. بيد ان العصر الذهبي الرأسمالي إنتهى منذ عشرين عاما، وأثبتت الحياة فشل الإتجاه الإصلاحي في تقديم حلول للطبقة العاملة في كندا او في العالم. ان التعجيل في تمركز رأس المال وفي العولمة منذ السبعينات، والذي أعطى زخما قويا لليبرالية الجديدة، قد دمر مصداقية الإتجاه الإصلاحي وقلص الى حد كبير من دعم الطبقة العاملة له. وفشلت «المشاركة الطبقية» في إيقاف التدهور في أوضاع الطبقة العاملة وحقوقها وقوتها السياسية.

إننا لا نعتقد بأن العولمة الرأسمالية هي سيرورة حتمية أو طبيعية، بل إنها سيرورة يمكن تحديها وإيقافها. فبالرغم من تأثير العولمة الرأسمالية في إضعاف الطبقة العاملة إلا ان القوة الكامنة لدى العمال لا تزال قائمة. فقد إزداد عددها، وتغيرت تركيبتها، وتنامت مشاركة مجاميع النساء والأقليات العرقية والقومية، وأرتفع عدد المتعلمين وكذلك إمكانية الوصول الى المعلومات من خلال تطور شبكة الإتصالات، أي بإختصار أصبح للطبقة العاملة طاقة أكبر للتنظيم والنضال، وهناك حاجة الى بناء حركة عالمية للطبقة العاملة وكل القوى الديمقراطية لإنهاء سيطرة الشركات متعددة الجنسية.

وما الذي يتوجب القيام به لمواجهة إتفاقية الـ(ماي) تحديدا أو ما يشابهها بشكل عام؟

فيغاروا: البداية هي إفشال الإتفاقية بأكملها. إذ لن تتمكن التحسينات أو التعديلات في بنودها أو أية إتفاقيات جانبية من تجميل وجهها القبيح. ويمكنني القول ان أكثرية الشعب الكندي لا تؤيد الإتفاقية ولكن ثمة قضايا أساسية يمكن لها ان تضعف وتشتت المعارضة. وأهمها الاتجاه، الموجود لدى بعض قيادات النقابات العمالية ولدى الجناح اليميني للحزب الديمقراطي الجديد، الذي يدعو الى قبول الإتفاقية أو إتفاقيات التجارة الحرة المماثلة إذا ما تضمنت فقرات تتعلق بالعمال والبيئة. وهو للأسف إتجاه سائد في

العديد من الأحزاب الإشتراكية الديمقراطية في الإتحاد الأوربي. فقد دعموا، علناء التجارة الحرة وإتفاقيات الإستثمار التي تدعم الحركة الحرة لرأس المال طالما انها توفر الحد الأدنى من الضمانات للعمل والبيئة. ومثل هذا التناول هو ما يتوجب على الكنديين مواجهته، خصوصا إذا ما عادت إلينا الإتفاقية مع بعض الفقرات الخاصة بالعمل والبيئة والتي تصمم خصيصا لتمزيق المعارضة.

القضية الثانية تتمثل في ان بعض منتقدي الإتفاقية ومن المحسوبين على اليسار يحاججون بأن تضمين الإتفاقية فقرات خاصة بالعمل والبيئة سيجبر البلدان الفقيرة على تبني معايير البلدان الغنية فيما يتعلق بالعمل والبيئة، وبالتالي لن تتمكن من المنافسة. والواقع إننا سمعنا نفس الشيء من ممثلي الحكومات اليمينية للعديد من الدول الفقيرة الذين يطرحون هذا الموقف دفاعا عن مصالح رأسمالييهم فقط، إذ لا علاقة لهم بمصالح الطبقة العاملة في بلدانهم. وإذا شئنا الدقة فأن مثل هذا الطرح يمكن ان يستخدم ضد أية معايير عالمية بما فيها التي تخدم الطبقة العاملة.

ثم تأتي قضية الديمقراطية التي تعتبر قضية أساسية في مجرى النضال ضد الإتفاقية والقوة الساحقة للتجارة الحرة. والديمقراطية تتمحور حول السلطة السياسية في أيدي الشعب. وهكذا فأن الدفاع عن الإستقلال الوطني هو دفاع عن الديمقراطية، وعن سلطة الشعب، لأن الدولة تبقى الإطار الأكثر أهمية الذي يمكن، ضمنه، ممارسة الحقوق الديمقراطية والسياسية. ان الحملة ضد الإتفاقية يجب ان لا تأخذ طابع المصالح القطرية الضيقة. وأقصد بذلك، على سبيل المثال، المطالبة بتوفير الوظائف والحياة الهانئة للعمال الكنديين على حساب عمال البلدان الأخرى. إن الديمقراطية والسيادة الوطنية الكندية تمتلكان أساسا طبقيا. فالطبقة الرأسمالية الحاكمة في كندا هي المسؤولة، أولا وأخيرا، عن التفريط بالديمقراطية والسيادة الوطنية، وليس عمال وشعوب البلدان الأخرى. إن الدور الذي تلعبه الإمبريالية الأمريكية، في هذا الشأن، لا يقلل من دور الطبقة الحاكمة الكندية التي تهيمن على الدولة بإعتبارها شريكاً للإمبريالية الأمريكية. إن مفهومنا عن الوطنية هو الدفاع عن مصالح الشعب العامل الكندي وتحرر كندا من الإمبريالية، بما فيها الإمبريالية الكندية. إن حركة الطبقة العاملة العالمية هي من أجل المساواة بين جميع شعوب العالم، صغيرها وكبيرها. إننا نحب وطننا، لكننا ضد القول بتفوق الشعب الكندي على الشعوب الأخرى. أما ضيقو الأفق الذين يدّعون بأنهم وطنيون، فهم يغضون النظر عن الدور الأساسي الذي تلعبه الطبقة

الحاكمة الكندية في تعزيز وتوسيع الإستغلال الرأسمالي داخل كندا أو خارجها. فهم يهاجمون الشركات الرأسمالية الأجنبية أكثر من نظيراتها الكندية، بمعنى إلقاء اللوم على الأجانب فيما يعانيه الشعب الكندي من إستغلال.

على أساس ما ذكرت، فأن حزبنا يعمل على الصعيد العالمي من أجل:

أولا: تشكيل تحالف عالمي ديمقراطي مناهض للإمبريالية يعمل من أجل إنهاء سيطرة الشركات متعددة الجنسية وتوزيع ثرواتها، وإلغاء الديون المتراكمة على البلدان النامية، وإعادة بناء العلاقات الإقتصادية العالمية على أساس العدل والمصالح المتكافئة، وتقسيم عادل للعمل على الصعيد العالمي، وإنهاء المضاربات العالمية في النقد والسلع.

ثانيا: وضع ميثاق عالمي جديد للعمل والحقوق البيئية والمسؤوليات ليكون أساسا لحملة عالمية لكسب الدعم من الحكومات والمنظمات العالمية على إختلاف مستوياتها.

ثالثا: إعادة بناء حركة سلام عالمية، وإزالة الأسلحة النووية وأسلحة الدمار الشامل، وتطوير برامج التعليم وبرامج الأبحاث ضد النزعات العسكرية، العنصرية، العرقية وجميع أسباب العنف والحروب.

أما على الصعيد الكندي، فإننا نعمل من أجل:

أولا: وقف المفاوضات حول أية إتفاقية جديدة، ثنائية، إقليمية أو متعددة للتجارة الحرة أو الإستثمار، وإلغاء إتفاقيتي التجارة الحرة الأمريكية ـ الكندية و NAFTA.

ثانيا: ملكية عامة وتعاونية لقطاع البنوك والمال الكندي، وفرض حدود صارمة على زيادة الفوائد على القروض بكافة أنواعها، ومنع المضاربة على الدولار الكندي.

ثالثاً: أسبوع عمل من ٣٢ ساعة دون تخفيض الأجور، وإعادة تطوير الصناعة الكندية باستخدام التكنولوجيا المستديمة والموارد المحلية، وتوسيع العناية بالصحة، التعليم، والخدمات الاجتماعية، النقل والاتصالات، الثقافة والعلوم الكندية.

رابعاً: توسيع حقوق المفاوضات الجماعية، وتنظيم النقابات، وتطوير معايير العمل والبيئة، وإلغاء التمييز على أساس الجنس، العرق، العمر والسن.

خامساً: إصلاح جذري لنظام الضرائب.

سادساً: وضع دستور كندي جديد من خلال مجلس نواب منتخب على أسس ديمقراطية، يضمن تعزيز الحقوق الديمقراطية والسيادة لكندا ويقر بالتعددية القومية في كندا.

ختاماً أود أن أؤكد ان البديل الوحيد للعولمة الرأسمالية هو الإشتراكية. ففي الوقت الذي تقوم به التجارة الحرة في إطلاق حركة رأس المال لإستغلال العمل والبيئة، فإن الإشتراكية ستحرر العمل والمجتمع من سيطرة رأس المال الذي سيغدو تحت سيطرة المجتمع. والواقع ان العولمة الرأسمالية هي نفسها التي تضع الإشتراكية في جدول أعمال الطبقة العاملة، وبالتالي حاجتها الى بناء حركة إشتراكية قوية، واضحة في إلتزاماتها في النضال من اجل سلطة الطبقة العاملة، وإنهاء الإستغلال الرأسمالي، والإمتيازات الطبقية.

ملاحظة: والمجلة ماثلة للطبع نقلت الأنباء أن المباحثات التي جرت في باريس تمهيداً لإقرار اتفاقية MAI قد تعرقلت بفعل الخلافات وانسحاب فرنسا منها فتأجلت الى عام ٢٠٠٠، مما أبهج نشطاء الحملة ضد الاتفاقية ـ ث جـ


أدب وفن

قصص عراقية في المنفى

أقلُّ من ملفٍّ بكثير
أكثرُ من ملفٍّ بقليل !

منذ عام ويزيد، وجّه باب (أدب وفن) دعوة للمساهمة في ملف مخصص للقصة العراقية القصيرة في المنفى... القصة المكتوبة في المنفى عن المنفى، كما القصة المكتوبة عن الوطن في المنفى، ولقد حاولنا بلوغ الجميع بهذه الدعوة، ولكننا لم نبلغ ما نبتغي وما أمّلناهُ، لأسباب منا، ومن محيطنا الاستثنائي والملتبس، فوصلتنا مساهمات عديدة، نعتزُّ بها، مثلما لم تصلنا أخرياتٌ كنا ننتظرها، وهي ذات شأن مهم دون شك، فهل نقول إن سعينا قد خاب مثلما «خاب سعي العشاق» عند شكسبير، والمتنبي، وكل المجانين القيسيين، مثلما عند أهل (ألف ليلة وليلة)، وأساطين الجاحظ المرويين كالقصص؟!

جاءتنا مساهمات نعتزُّ بها.

وغابت عنا مساهمات نرجوها.

نقول ذلك، لأننا أردناه ملفاً حقاً، حتى لو أخذ من صفحاتنا مأخذاً عظيماً... على عدد، أو عددين... أو أكثر.

نقول ذلك، لأننا أردناه ملفاً حقاً، يقول حقاً... إزاء الباطل الذي استسهلته غير واحدة من المجلات والدوريات التي مافتئت تطلع علينا بملفات ما أنزل الله بها من سلطان... وهي مجلات ودوريات مرموقة وسيّارة، ولكنها ــ ويا للأسف ــ

استمرأت اللعبة الصحفية، مُزيحةً ــ جانباً، وعرض الحائط ــ المهمة الصحفية الحقّة، فصرنا نرى «ملف القصة السعودية» أو «ملف الشعر الكذا. . .» أو «ملف الأدب العراقي في المنفى». . . أو. . . أو. . . الخ، وحين نتصفّح كل ذلك، لا نرى أي موجب أو مسوّغ لذلك الملف، سوى تراكم نصوص شعرية، أو قصصية، لدى المحرر، فيلجأ الى وضعها كلها، مرة واحدة، في عدد واحد حاسم، ليتخلص من هذا التراكم الكمّي. . .
إذن، فالمسألة هي حلٌّ صحفيٌّ ــ ذكيّ على وَهْم ــ لمعضلة كثرة النصوص الواردة ــ عفواً وصدفة ــ في نوع أدبي معين، ولكن ذلك اعتداء على مفهوم (الملف) الذي ينبغي أن يتضمن وجهة معينة، أو إضاءةً ما. . . صورة فصيحة، أو تحليلاً ما. أو في الأقل مسحاً تقريبياً لواقع مادة الملف المعيَّن.

وبناء على ما تقدَّم نقول بأننا لا ننشر ما سيأتي من نصوص إلا لسبب أوّلَ ووحيد، هو الوفاء لقرائنا وللمساهمين بما وَعدْناهم، إذ علينا ــ نحن ــ الوفاء، وشفيعنا على هذا الذي هو دون ما ابتغينا، ودون ما أمَّلنا، هو قولنا إنه أقلُّ من ملفٍّ بكثير، ولكنه أكثر من ملفٍّ بقليل، وهذا القليل الذي نعتزُّ به، إنما هو كوننا كَشَفْنا حساب هذا الملف، كما ورد في سطورنا السالفة، وسمّيناه (قصص عراقية في المنفى)، متنازلين عن كلمة «ملف»*.

المحرر

* سُلسِلَتْ القصص حسب التسلسل (الألفباء) لأسماء كتابها.

أدب المنفى

بين المفهوم والإنجاز

اسماعيل شاكر الرفاعي

-١-

لم يلصق أدباء المهجر، صفة المنفى بأدبهم. هذه الصفة وليدة ممارسة حديثة اقترنت بأنظمة حكم الاستقلال، تلك التي لفّت على صدرها شعارات عريضة وأطلقت على نفسها صفات: الوطنية، الثورية، التقدمية، الشعبية. لقد أوهمت هذه الأنظمة نفسها بتصور يرى حقيقة السياسة كامنة في الشعار لا في الممارسة الخلاقة.

-٢-

المهجريون: أدباء (جلهم من الشعراء) خرجوا طوعاً، وكان الدافع الاقتصادي — الى جانب دوافع أخرى — هو حافزهم الأول. لقد بحثوا في هجرتهم عن فضاء يزودهم بالثروة، فزودهم — بالإضافة الى ذلك — بمفاهيم ورؤى جديدة، منحتهم القدرة على ريادة تيار أدبي تمثلت نماذجه الأرقى في شعر أبي ماضي ونثر جبران وانبثقت من بين صفوفهم حركة نقدية رافقت إنجازهم الإبداعي، يمكن عد (غربال) ميخائيل نعيمة، مثالها الأوفى.

-٣-

يتميز الإثنان: أدباء المهجر وأدباء المنفى عن بعضهما بدافع الخروج وبفارق

الزمن. والمشترك بينهما الرحلة الى والسياحة في مكان ذي فضاء جديد (حضارياً وثقافياً). والسؤال: كيف عبّر الإثنان عن هذه المشاهدة والمعايشة للمكان الجديد؟

الإجابة عن هذا السؤال فيها من الظلم والتجني الكثير، إذا ما جاء الجواب تجريدياً، غافلاً للسياق متجاوزاً للمرحلة. فبين ظروف خروج الإثنين بون شاسع، يجسده الفارق الضخم بين التكوين الثقافي للعرب في نهاية القرن المنصرم وبواكير القرن العشرين، وبين حالة العرب عموماً وما آلت إليه الأمور: ثقافياً وسياسياً واجتماعياً في نهاية العقد السابع من القرن العشرين (تاريخ خروج أول دفعة ضخمة من الأدباء والمثقفين العراقيين، وهم، في الغالب الأعم، من الشيوعيين أو الديمقراطيين أو الذين يدورون بالقرب من هذين التوجهين).

- ٤ -

سمّى الدكتور شكري محمد عياد، جيلاً كاملاً من الأدباء الشبان الذين نشأوا في ظل ثورة ١٩٥٢، بجيل الضياع، مستخلصاً ذلك من شهادات واحد وثلاثين أديباً مصرياً أجابوا على استطلاع لمجلة (الطليعة) في عددها الصادر في سبتمبر عام ١٩٦٩. كانوا في شهاداتهم هذه كما يقول الدكتور: «يشعرون بأنهم مخدوعون وممتهنون ومسؤولون أيضاً... وهذه أحوال لا تنتج إلا حالة من العدمية المقترنة بالسلبية واللامبالاة... وهذا المناخ المرضي الكئيب تربة صالحة لانتعاش الحداثة... للتعبير عن إحباطهم ورفضهم المطلق للماضي وشكهم في الحاضر ويأسهم من المستقبل»[1] ذلك لأن الحداثة مذهب أدبي له جذوره الفكرية وليست، كما يتصور البعض، مجرد نمط شكلي لغوي. وتكمن هذه الجذور في «التغيرات الجذرية التي طرأت على أضلاع المربع الأربعة: عالم الميتافيزيقا (الله) والإنسان والعالم المادي الفيزيقي من حوله (الطبيعة)، ثم اللغة»[2]. هذه التغيرات أدت الى انفصام إنسان القرن العشرين وإحساسه المأساوي بالتعارض «الحاد بين التوقعات التي ولدتها الثورة الصناعية... التي أعادت تأكيد الأنا والذات عند الشاعر انطلاقاً من ذلك التفاؤل الأولي بقدرة الإنسان على صناعة عالمه أو التحكم فيه، وبين فشل العلم الأمبيريقي في نهاية الأمر في تحقيق تلك السيطرة الكاملة التي كان الإنسان يحلم بها، بل تأكده في نهاية المطاف، من أن العلم بمذاهبه التجريبية قد فشل في تفسير الوجود، ناهيك عن التحكم فيه. إنه الإحباط الذي تولد عن التسليم النهائي بحدود العقل وملكاته»[3]. الحداثة إذن

موقف فلسفي منطلقه الشك في الوصول الى حقيقة الكون والحياة وعجز المنهج العلمي التجريبي عن ذلك ومحدودية العقل البشري. وهذا ما يوضح لنا الاستنكاف من العمل السياسي لدى (الحداثيين) أو البحث عن معنى في النص (لدى التفكيكيين ونظريات القراءة الحديثة) حيث تصبح (كل قراءة للنص هي إساءة قراءة).

الضياع أو الحساسية الجديدة كما سماها بعض النقاد والأدباء، تعني فقدان الإيمان بأي شيء والشك في كل شيء. إنه بإيجاز افتقاد للمعنى وضياع لليقين.

هل يمكن المقارنة بين هذه (الحساسية الجديدة) — التي تبلورت في مصر وتجاوب معها جيل كامل من الأدباء العرب (ربما لتشابه الظروف والمعطيات) — وبين المنجز الإبداعي لأدباء المنفى العراقيين؟

أدباء المنفى العراقيون، كانوا قبل النفي، ينظرون الى الأدب والى الحياة بنظرة أخرى. كانوا بأغلبيتهم مهمومين — الى جانب همومهم الأدبية والفنية — بقضية السلطة في خصوصيتها السبعينية، وكان أملهم كبيراً في أن يحسموا الصراع داخل السلطة لصالح التوجه الاشتراكي والديمقراطي. لقد جاء هؤلاء الأدباء الى المنفى من مكان كانوا فيه فاعلين لا مهمشين (هذا الحديث عن أديب في سياق مضى، قبل التقييم اللاحق للتجربة من قبل هؤلاء الأدباء أو من قبل حزبهم للمنتمين منهم). لقد كانوا إذن أصحاب قضية، معنى أو يقين. وكانوا يجدون معنى لحياتهم في هذا اليقين، وكان الأفق الفكري والثقافي الذي يغرفون من معينه ويتفاعلون معه، يرسخ لديهم هذه القناعة ويعمق هذا التوجه (مفهوم التطور اللارأسمالي، المراحل الانتقالية، الجبهات الشعبية، الواقعية الجديدة، النقدية، واقعية بلا ضفاف، حُمّى ايتماتوف. . . الخ).

وحين تهاوى ذلك كله لم يتهاوَ يقينهم. . . لقد أحسوا بأنهم مقتلعون من مكانهم وأنهم مدفوعون الى المنفى بالرغم من إرادتهم. فخرجوا، وهمُّ المكان الأصلي ومشاغله يعيش في وجدانهم. وقد عاد البعض من هؤلاء الأدباء — بعد سنتين أو أكثر — الى منطقة خاصة من هذا المكان (كردستان) باليقين نفسه: محاولة إعادة اللحمة الى المكان الأصلي (العراق)، بعد أن اضطرب فضاؤه نتيجة نفيهم ونفي آخرين (الأكراد الفيليون) الى جانب فرار الكثير من الشخصيات الوطنية والتجمعات السياسية. لقد مارس هؤلاء الأدباء تجربة الكفاح المسلح في عودتهم هذه، ضد النظام الذي حسم توجهه لصالح الميل الاستبدادي، بقصد إسقاطه وترجيح الميل الذي كانوا يساومون، في السبعينيات: التوجه الاشتراكي في نظام حكم تتحكم به آلية ديمقراطية.

ثم خرجوا مرة أخرى تحت ضغط وقسوة كيمياوي (الأنفالات) في نهاية الثمانينيات، مضيفين الى ملامح أدبهم ملمحاً آخر هو ملمح تجربة الكفاح المسلح التي خاضوا معمعتها على مدى عقد الثمانينيات. كان الملمح الأول من ملامح هذا الأدب: الحضور الطاغي للمكان الأصلي بإشكالاته المختلفة «لم يكتب غائب طعمة فرمان في المنفى عن المنفى بل عن المكان الأصلي (العراق) وظل فاضل العزاوي مشدوداً إليه في (مدينة من رماد) وكذلك جنان جاسم حلاوي في (ياكوكتي) وسلام ابراهيم في (رؤيا الغائب ورؤيا اليقين) والشاعر مهدي محمد علي في (البصرة جنة البستان) كذلك سعدي يوسف في قسم كبير من روايته (مثلث الدائرة) وسالمة صالح في (زهرة الأنبياء) وعامر بدر حسون في كتاب (القسوة)، وعبد الغني الخليلي في (سلاماً يا غريب) وكذلك في الكثير من القصص القصيرة التي اطلعتُ عليها في دوريات وصحف مختلفة»(٤).

بين أدباء الهجرة الأولى القسرية في نهاية السبعينيات والهجرة الثالثة المتواصلة في التسعينيات، ثمة هجرة لأدباء أثناء حريق الثمانينيات الكبير فراراً من الحرب ومن روح الإيعاز التي عسكرت المجتمع برمته. لقد نفذ هؤلاء من ثقوب حفروها في الجدران العالية التي سوّر النظام بها العراق وراحوا يواصلون طيرانهم في فضاء المنفى تأكيداً لذواتهم وتعبيراً عن امتلاكهم لشرطهم الإنساني: حريتهم التي غيّبها النظام في الداخل. لقد تمرد هؤلاء الأدباء على سجّانهم وهربوا بحريتهم فصارت موضوعة التمرد مقترنة بالحرية بإطلاق... التمرد بالهروب والهروب من التزام موقف بالتمرد... تلك هي الثيمة التي يمكن مقاربة عطائهم الإبداعي بها. أما ضياع اليقين فقد جاء مع الموجة الثالثة من الأدباء المهاجرين، وهم مهاجرو التسعينيات الذين عايشوا المأساة الى نهايتها. فقد تحطم بين أيديهم وأمام عيونهم: ما أسهموا هم في بنائه من مؤسسات، وصاروا شهوداً على انهيار تاريخ، كان تاريخهم الشخصي جزءاً منه، وعلى فجيعة حلّت بالمكان وطالت حتى ما توارثه من نواتات تحديث أُنجزت في مراحل سابقة لـ١٧ تموز ١٩٦٨.

لقد شعر هؤلاء الأدباء ــ الذين تربوا على انضباط إعلام متشدد، كرّر على مدى ربع قرن معاني السيادة والعزة والكرامة الوطنية ــ بالمهانة، وهم يرون المكان بأكمله، بكل رموزه الدينية والتاريخية والسياسية، مُستباحاً: إن في الزيارات الدورية لفرق التفتيش، أو في الوصاية الدولية، غير المعلنة رسمياً عليه.

جاء إذن أدباء الهجرة المستمرة في التسعينيات، من منطقة متزعزعة اليقين (هذا إذا لم يكن مسلحاً بالوعي الذي يجعله يضع اليد على أسباب وجذور الكارثة) وحلّ في المنفى وهو يحمل ضميراً يُشعره بين آن وآخر بمسؤوليته حيال النكبة (في دراسة لي، نُشر الجزء الأول منها في جريدة الوفاق المعارضة، لمجموعة من الشعراء الشباب، أطلقتُ على نتاج واحد منهم: النص الأعمى. إنه نص يمجد العمى ويكثر من استعمال أفعال السماع لا القول، والتلصص لا التحري، وتضمر فيه أفعال الخروج والمواجهة).

في موضوعة أدب المنفى

هل كتب أدباء هذه الموجات المهجَّرة أو المهاجرة: أدبَ منفى، أم كتبوا في المنفى أدباً تمايزت ثيماته بتمايز الهجرات؟، لكن قبل ذلك ما أدب المنفى؟ أدب المنفى: نتاج إبداعي جديد كتبه أدباء عراقيون في مكان جديد حلوا فيه طوعاً أو كرهاً. مكان آخر: عاداته وتقاليده وطقوسه ورموزه لا مثيل لها في مكانه الأصلي. وفيه من الظواهر ما لا شبيه لها في مكانه الأصلي، وتنتظمه علاقات لا تماثل العلاقات التي تنتظم مجتمعه. وتسيره آليات سياسية يكون فيها الحاكم والمحكوم على صورة مناقضة لعلاقة الحاكم والمحكوم في مكانه الأول. هذا المكان الجديد له نظرة خاصة للجنس، للعلاقة بالآخر، لطريقة السكن واللبس والأكل والنوم والإتكيت وتنظيم السير. الأديب العراقي الخارج من منظومة فكرية وفضاء ثقافي وحضاري [نتحدث عن فضاء يشبه الغابة. لم يسمح للحالات الفردية ـــ تمرد حسين مردان أو تصعلك بعض الشعراء أو جهر البعض منهم بالعداء للموروث! ـــ بالتحول الى ظاهرة لأنه ينطوي على آليات عمل خاصة، تشتغل بطرائق تسمح لها باحتواء هذه الحالات أو التغطية عليها ومنعها من الانتشار أو تهميشها، بمعنى ترذيلها...] معين، كيف تسنى له مواجهة ظواهر اجتماعية محددة، في المكان الجديد هي من صلب قيمه في تنظيم علاقاته. كيف واجهها بمنظومة قيم مختلفة؟ هل صدمته... ما انطباعاته الأولى عنها، وما آثارها الأولى عليه؟

أتقبّلها من غير تساؤل... هل قاومها؟ أكان حيادياً في نظرته إليها كما لو كان بمنأى عن تأثيرها؟ كيف تكيف لها إن كان قد تقبّلها لاحقاً؟ وإذا لم يتكيف: هل

همشته؟ والأهم، كيف نظر الى كثافة استخدام الآلة في الحياة الاجتماعية، هو الآتي من سياق حضاري أقل استخداماً لها؟

يتمثل إنجاز الخطاب الإبداعي في المنفى، في الاشتغال على هذه الدائرة تحديداً، دائرة المشاعر والأحاسيس المتناقضة والمتضاربة الناشئة من تلاقي دائرتين لكل منهما منظومته الفكرية وأفقه الحضاري. وما تفرزه حالات التلاقح والتفاعل والصراع هذه، هو ما يشكل مادة أدب المنفى.

هوامش

(١) المذاهب الأدبية والنقدية عند العرب والفرنسيين، تأليف د. شكري محمد عياد، عالم المعرفة، الكويت ١٩٩٣، ص٤٥.

(٢) المرايا المحدبة من البنيوية الى التفكيكية، تأليف د. عبد العزيز حمودة، عالم المعرفة، الكويت ١٩٩٨، ص٦٧.

(٣) المرجع نفسه، ص٦٨.

(٤) هذا هو الكم الذي استطعت الاطلاع عليه، وما لم أذكره يعني أنني لم أطلع عليه، مثال ذلك أنني لم أقرأ (أطفال الـCNN) لإبراهيم أحمد، ولم أستطع الحصول على رواية فاضل العزاوي (آخر الملائكة).

جنان جاسم حلاوي

المدينة البنية

لأن الشوارع متشابهة الأرصفة، والبنايات مكعبات بنية لا تختلف شيئاً عن بعضها البعض، ولأن الحدائق تحتضن أشجاراً من صنف واحد، وكل الأبواب بلون أخضر والشبابيك بلا سمات، ولأنني (الأهم من ذلك كله) كنت قد كرعت كمية رائعة من علب البيرة، فلقد ضعت في أرجاء المدينة، وتهت في ساعة لا تقل عن منتصف الليل، باحثاً عن شاخص يدل على مكان غرفتي. تلك الليلة ذاتها سهرت مع أحد المجانين، فطردني من وكره على حين غرة، والأنكى أنني كنت مفلساً، وإلا لأوقفت أحد التاكسيات الفالتة بتهور في دروب المطر؛ نعم كانت الدنيا تمطر، فانتبذت مظلة موقف باص ناوياً الرقود على مقعدها حتى الصباح، سوى أن واعزاً ملحاً ورغبة دهمتني أخيراً للتسكع أملاً في العثور على خيط جغرافي أو طوبوغرافي يهديني الى مأواي.

عند ناصية شارع مبلل تنعكس على إسفلته رقائق ضوء أصفر، ترتعش في برك الماء، في ذلك العري الموحش لليل، وتحت عمود نور رأيت قطرات المطر تتلبث على قمته ثم تتضوأ، وتساقط حبيبات وهاجة. وقفت لألتقط أنفاسي قبل أن أشرع في رحلتي الكئيبة، في مدينة النوم والصمت والقفر تلك؛ ولا أدري بالضبط كيف حطت سيارة البوليس جنبي، ورفع زجاجها المجاور لوقفتي رجل كبير الرأس أشقر، وحملق فيّ، اختلج الهواء حولي، فارتبكت، لمحت قربه شرطية لم أتبين ملامحها جيداً. سألني مثل طعنة:

ــ من أنت؟

ــ مواطن بني من الدرجة اللونية الثانية.

ــ ماذا تفعل؟

ــ لا شيء، أبحث عن داري.

طلب هويتي، قلت:

ــ نسيتها في البيت.

ــ الوقت متأخر.

ــ كنت عند صديقي أسكر.

ــ أين بيتك؟

ــ في الحارة البنية.

ــ أوكي، سنساعدك، إصعد!

فتحت باب السيارة الخلفي، ونططت الى جوفها، تلقفني مقعدها الجلدي، وطرنا على عواء صفارة مركبتنا المتموج على دورات ضوء أزرق يتقطع، مددت عنقي الى لوحة الأرقام الفسفورية، المتوهجة باخضرار شعاع، مكبوت في العتمة؛ وخشخشات جهاز الإرسال تخدش سمعي.

ــ ألو... ألو... معك الرقم عشرة، هل تسمعني؟

ــ نعم... نعم... أسمعك بوضوح.

ــ معنا شخص مجهول الهوية... نحن في الطريق الى بيته.

ــ ألو... ألو... عاجل... عاجل... غيّر المهمة وتعال فوراً الى المركز... هناك حالة ملحة وطارئة... هل تسمعني؟

ــ نعم أسمعك... صحيح... صحيح... نحن في الطريق إليك.

علّق السماعة على حامل، فوق الأرقام الوضاءة، وعجّل في السرعة، كانت مصابيح الدروب تتخاطف، والليل يمضي وراءنا، يركض قدامنا. وأنا أكاد أغوص في إغفاءة لذيذة: في متعة مجهولة.

* * *

داخل ممر طويل ممشوق بانوار الفلورسنات الباردة دلفت وشرطي يرتدي ملابس بنية (وهو ذاته من أفرغ محتويات بنطالي وجيوبي في غرفة الأمانات) فيما تداعت الى جانبينا أبواب مرتجة ومرقمة ومريبة .. قلت موصوصاً وراجياً:

ــ سيدي. . لم أفعل شيئاً، سوى أنني أضعت الطريق الى غرفتي.

حدق إلي بنظرة فاترة، ابتسم مواسياً، ونق:

ــ نعرف. . . إجراءات روتينية فقط وتعود الى بيتك.

ــ قلت غرفة وليس بيتاً.

لم يهتم، سحب كمشة مفاتيح من حزامه، دس واحداً منها في أحشاء القفل، فتح الباب الكامد، ودفعني الى أمام: الى غرفة مستطيلة، توزعت فيها أربعة أسرة، كل إثنين الى جهة، وكل واحد فوق الآخر كما في حجرات البواخر، وفي سكون وترقب قعد في ثلاثة منها ثلاثة سجناء، يشبهونني ويزدرون خلقتي: شعور سود، وعيون سود، وسحنات نحاسية، بارزة التقاطيع. الزنزانة منورة يضويها مصباح حليبي النور، وثمة طاقة مقضبنة تطل على مشهد بناية بنية بشبابيك يغشاها ضوء فضي، وهناك عند الركن الأخير تسطع مغسلة بلا صابون أو معقمات. . . تسلقت سلم السرير الى فراشي الفارغ العلوي وانطرحت ثم غبت في وادي نومٍ سحيق.

***

فككت عيني دون أن أدري ما إذا كان الوقت صباحاً أو مساءً، فالسطوع ذاته والسقف الشاهق يهبط عليّ بصمته وسماكته وثقله. يبدو أنني فززت على صوت مزلاج بويب انفتح أسفل الباب، حيث دفع الحراس برؤوس عصي ألمنيومية صحون الفطور وصينية فيها أربعة أقداح شاي. كل شيء جرى بصمت ودقة وقوة أيضاً.

سمعت ذلك الراقد في موازاتي ومواجهتي يقول بلهجة باردة:

ــ هَيْ! أيها الوغد، إنزل ووزع الطعام علينا!

خزرته وصرخت به غاضباً:

ــ لست خادماً في بيت أمك القحبة يا مجرم.

ترك فراشه وانحدر الى الأرض وعاط كالمسعور:

ــ إنزل ولاعبني يا جبان.

لم أكن أتوقع مشاجرة فجائية كهذي، لكنني مازلت أملك فكرة عن حياة السجون، خبرتها في بلدي الأصلي، لم أتوانَ، فانزلقت إليه مسرعاً، إذ أن أي تأخير أو تلكؤ سيجعل مني خادماً ذليلاً لهؤلاء الرجال الأشداء، وما أن بتنا كالممسوسين في دائرة التحدي حتى تبادلنا اللكمات والركلات واشتبكنا في صراعٍ دامٍ، لم يفضه الآخران المسترخيان، لأنهما كان يتفرجان بلذة، ويبتسمان أو يبرطمان.

فرقع باب الزنزانة، وكأن هبة هواء قوية خلعته، وهجم بضعة رجال شرطة، طرحونا أرضاً، كلبشونا، وشدوا عيوننا. جرجروني عبر كوريدورات تخيلتها مثل أذرع أخطبوط، سامعاً حفيف هواء خفيفاً حولي وطقطقات كعوب أحذية الحراس الذين رافقوني، أوقفني أحدهم، حرر يدي وعيني، كنت أمام باب حديدي واطئ، فكه شرطي آخر ثم دُفعت بعنف الى زنزانة صغيرة شبه مظلمة، بسرير خفيض كأسرة اليابانيين وشباك منقط بفتحات شائكة ناعمة، وحنفية واحدة تقطر في مغسلة قزمة، مصفرة السيراميك.

لا أتذكر كم مرّ عليّ من وقت، غير أنني نمت أربع أو خمس مرات لفترات طويلة، فقدرت بأنني راقد هنا منذ أربعة أيام مرت على مشاجرتي السخيفة.

فجأة داهم مكاني شاب مدني تزين جيب قميصه شارة بنية وقال آمراً:

ـ اتبعني! هناك من يود رؤيتك.

غاب، لحقته، طوقني شرطيان، خطوت أمامهما كمجرم عتيد، أشارا فقط الى باب موارب، تجاوزته فإذا بمواجهتي صديقتي الفرفورة، الحلوة، اللعوبة (نومي)، احتضنتني، أجلستني قربها، وهمست في أذني:

ـ سأنقذك.

ـ لا، القضية سهلة مجرد اشتباه.

لوت شفتها بصورة قردية، وبربرت:

ـ أي سهلة، أي بطيخ. . . ستقدم للمحاكمة بسبب المشاجرة وأشياء أخرى.

ـ وبطاقتي الشخصية، ألم يجلبوها؟

ـ فتشوا غرفتك، واستولوا على البطاقة، والله أعلم عماذا يفتشون.

ـ لاشيء عندي أخبئه.

ـ أهلاً، ألم تكن مع المقاومة الفلسطينية ذات يوم؟

ـ آآآ. . . ذلك منذ زمن بعيد جداً، ثم ما أدراهم بذلك؟

ـ أخبرني ذلك المدني الذي ناداك قبل لحظات، إنك إرهابي، وأوصاني أن أقنعك بتسليم كل المعلومات التي بحوزتك، وإلا سيستخدمون معك وسائلهم الخاصة!

ـ يا نومي أنت تخرفين بلا شك، كنت مع صديقي (بوبو) أسكر فطردني، فتهت، فضعت فـ. . .

ـ يا عزيزي، وفّر حكايتك لنفسك!

ـــ وأين أدلتهم الملموسة ضدي؟

ـــ أهلاً يا بطيختي الحلوة والصورة التي وجدوها في ألبومك الأنيق؟

اصفرّ وجهي فعلاً كشمامة ناضجة:

ـــ أية صورة؟

ـــ صورة بطولاتك وعنترياتك، وأنت تحمل الكلاشنكوف مع مجموعة من الفدائيين في لبنان، أروني الصورة، وماذا كتبت وراءها يا رجل العصابات القاهر؟! (مخيم المية ومية، فوق تخوم صيدا، ١٩٨٦، مع رفاقي على طريق الحرب الشعبية الطويلة الأمد حتى تحرير فسطين)، لماذا لم تكتب مذكراتك أيضاً، يا جيفارا زمانك؟!

ـــ يبدو أن القضية تعقدت.

ـــ إنهم متشنجون وغاضبون لأنك خدعتهم كل هذه المدة، وحصلت منهم على لجوء سياسي في بلدهم المحايد، كونك مضطهداً في بلدك الأم: العراق.

ـــ نومي! هل تؤدين خدمة من أجلي؟

ـــ شرط ألا تخدعني أنا الأخرى.

ـــ نومي، هذا المبنى ليس سجناً قدر ما هو مكان توقيف المشتبه بهم، ويستطيع زائرو المحتجزين الدخول بسياراتهم الى الكراج، ما رأيك بأن تقومي مع صديقك...

ـــ وهل عندي صديق غيرك؟

ـــ أقصد مرافقاً لك، يساعدك على ربط شباك الزنزانة بحبل، ثم تسحبانه بالسيارة لخلعه.

ـــ سأحاول، إذا كانت هناك فرصة، لكنني لا أعدك بنجاح الخطة كلياً، حضّر نفسك الليلة، الساعة التاسعة... باي باي يا سكر!

قبلتها وأنا أتمطق بـ:

ـــ باي باي يا قرص شهدي!

ثم عدت الى زنزانتي برفقة الشرطيين ذاتهما، غير أنني انتبهت الى شريطين بنيين معقودين في زنديهما وتذكرت أن ساعة يدي في الأمانات، كيف سأستدل على الوقت إذن؟ سوى أن الأمر لم يعنِ لي شيئاً، فأنا موجود هنا والآن، وقائم مثل هرم في صحراء، الساعة التاسعة أو العاشرة أو الألف؛ لم أقلق كثيراً، قدر اضطرابي من وقوع تلك الصورة المنسية، في أيدي رجال السلطة البنية.

الساعة التاسعة أو الثامنة أو عند هذا الوقت تقريباً، تناهى الى سمعي خبط على

الحائط، وصرخات، وضربات، ودبدبة كائنات تركض، ثم انطفأت الأصوات تماماً، وحل صمت مريب وسكون، واستمر الليل المجهول السمات خامداً، ملولاً، يابساً، وبلا معنى.

جرني حزني الى النوم، فغطست في كوابيس تلد بعضها بعضاً كخلايا الأميبا المجهرية.

ومع كل يوم يمر كنت أتعرض لتحقيق مضن حول علاقتي بالمقاومة الفلسطينية، وما إذا مازلت أتصل برجالاتها، وعن روابطي بـ(نومي) و(بوبو) وآخرين، فعرفت أن نومي ومن معها يضطجعان في السجن إثر فشل محاولتهما إنقاذي.

وتتالت الاستجوابات التي دام بعضها ساعات، حتى جاء اليوم الذي أستدعيت فيه لحلق رأسي وذقني وثم إلباسي ملابس مدنية، بعد تجريدي من ملابس السجن البنية الخاصة، إذ أجبرت على ارتدائها أزمان التحقيقات المضنية.

أجلسني شرطي في غرفة داكنة، إلا من ضوء حاد محمول على طاولة وأوراق، برك وراءهما مخلوق بني بدا وكأنه عبّ جردلاً من القهوة والكاكاو؛ فك فمه مثل آلة الروبوت المتخيلة في روايات إسحاق عظيموف، لينطق:

ــ قررت إدارة بلدنا إبعادك الى بلادك الأم لأنك إرهابي، وتشكل خطراً على أمن مجتمعنا، وعلى سمعتنا الدولية كبلد محايد، وهاك القرار إقرأه!

ولم أكد ألمس الورقة، حتى سحبني شرطي من الخلف، لأختفي معه في غياهب ممرات طرقتها طولاً وطولاً بأضواء فلورسناتها الباردة كأنوار برادات الجثث.

* * *

كان الطقس في بلادي حاراً جداً، ورأيت كيف أن الشرطيين اللذين لازماني تعرقا كأنهما ذابا ماءً، في لفحات الشمس القاسية.

تحلق حولنا رجال أمن المطار، وساقونا الى غرفة ترتدي جدرانها صوراً عملاقة لرئيس جمهوريتنا، قرأت تحتها شعارات تمجده وتشيد بثورته، فشعرت بانقباض في بطني وأوشكت أن أتغوط هلعاً.

دفعونا الى ضابط كث الشاربين، رفيع، صلب، يتربع وراء طاولة فخمة، ترتاح في هواء مكيف، بارد لطيف ومنعش، وكنا نسمع أزيز جهاز التبريد المثبت تحت صورة هائلة لرئيس جمهوريتنا وهو يبتسم كأنه يقدم بأسنانه اللامعة الناصعة أعلانا لمعجون أسنان.

تناول الضابط الأوراق من أحد الشرطيين دون أن يدعونا للجلوس، تصفحها، ثم رماها بوجهه صائحاً:

ــ بلادنا لا تستقبل إرهابيين وخونة، إنه ليس منا، ولا نريده، ولترجعوا الى أوكاركم البنية التي جئتم منها، أيها الصليبيون!

وقوق الشرطي باحترام زائد، وإن تضايق من صلافة هذا الكائن الشرس:

ــ لكن أوراقه تثبت أنه من جنسكم وبلدكم.

ــ لا لا... إن جده السابع عشر هندي، وجدته الخامسة عشرة أفغانية، وخالته الرابعة عشرة إيرانية، وعمه الثالث عشر من الأكراد الفيلية، وابنة خالته العاشرة تركية، وابن عمته التاسع شكرسي، وخالة عمته الثامنة أرمنية، وخالة خالته السابعة زنجية من زنجبار، وعم عمه السادس سلجوقي، وخال جده الخامس بويهي، وجد عمه الرابع من أقوام الخروف الأبيض، وصهر خاله الثالث من قبائل الخروف الأسود، وخال صهره الثاني فينيقي، أما جده الأول فمن جماعة موسكو... إن جذوره تثبت عدم انتمائه لبلدنا، لذا خذوه وارحلوا وإلا اعتقلتكم جميعاً!

اغتبطت لهذا القرار الجميل، وعجبت من ثقافة الضابط الرصينة، وتساءلت مع نفسي مستغرباً، عن سر معرفته الدقيقة بشجرة عائلتي الموقرة، الأممية المنشأ.

اضطرب حارساي، وانسحبا بأدب الى الطائرة الجاثمة كطائر الرخ، وما هي إلا ساعة حتى طرنا بعيداً بعيداً عن شمس بلادي الضاحكة.

الى الزنزانة عينها أعادوني، ورموني ككيس تبن، ولحسن حظي كان الحبس فارغاً، ففرحت بعزلتي، وبعدم وجود جحيميين يخدشون راحتي.

الأيام تطوف بلا زمن، وتذوي، ففقدت إحساسي بالمكان وطبيعته، واستحكم بي شعور بأنني غير موجود، وألا فائدة من وجودي، وخسرت قدرتي على التذوق، ونسيت أنني أتنفس، بل قل إنني أضحيت شخصاً يشبه الجدران في بياضها، وكتمانها، وعزلتها.

انشق الباب كما كان ينشق سابقاً لاقتيادي الى الحمام، أو لتعقيمي، أو لتعريضي لفحص سريري روتيني.

هذه المرة قذفوا عليّ رجلاً واهناً، يلوح من سحنته النحاسية مهاجراً ركلته ضواحي قارتنا المزركشة بدانتيل الحروب؛ تفحص المكان، رمقني، ثم مط كتلته على الفراش وذهب في إغفاءة حسدته عليها.

صباحاً أخرجت عيني من كهفيهما، على صرير دفع صينيتي الفطور. كان ذلك المجهول الآسيوي يبحلق فيّ ساكتاً بحدقتين مسكينتين. أمرته بعنجهية:

ــ قم أيها الوغد وناولني الفطور!

تحرك الرجل بهدوء، وجلب الصحن ووضعه في حضني، ثم آوى الى فراشه، افترست طعامي كما التهمت الرجل الخادم ببصري. صحت به:

ــ تعال أيها التافه، وقبّل قدمي!

ولما وصل قربي شددته من أذنه وعطت به:

ــ لماذا أنت ذليل ورخو أيها المهاجر، لماذا لا تقاومني؟

غمغم وعلى سيمائه ابتسامة خبيثة:

ــ وهل أبدو غبياً في نظرك، الى هذه الدرجة يا صديقي؟

١٩٩٧/٦/٣٠

أسوج ــ مالمو

اصـــدارات وردتـــنـــا

شاكر خصباك : قصة حب/ الطائر ، روايتان ، رقم ٢١ من (الأعمال الكاملة) ، مركز عبادي ، صنعاء ١٩٩٧ .

شاكر خصباك : الخاطئة ، رواية ، رقم ٢٢ من (الأعمال الكاملة) ، مركز عبادي ، صنعاء ١٩٩٨ .

هاتف الجنابي : فراديس أيائل وعساكر ، شعر ، دار المدى ، دمشق ١٩٩٨ .

كريم الدريعي : الأسد خلق الغزالة .. خلقها ليأكلها ، شعر ، دار الكنوز الأدبية ١٩٩٦ .

سعاد الجزائري

بقعة ارتجاف حرة

اختارت هذا اليوم بالذات لتطلق في سكون بيتها طيور همومها وأفكارها التي تتفنن في البحث عما هو مؤلم منها. استيقظت مبكرة على غير عادتها، من النوع الذي يهرب من مشاكله بإغفاءات أقرب الى الموت منها الى النوم.

سكون ساحر يسبح في البيت كأنه غيمات ناعسة، بدأت بممارسة ما تقوم به يومياً، وهي اليوم أكثر التزاماً بعاداتها اليومية. . . أطعمت السمك، سقت شجيراتها المنتشرة هنا وهناك. . . ثم عصفورها. فتشت عن المكان الذي تضع فيه طعامه، تذكرت أنها لم تطعمه منذ ثلاثة أيام. إلا أن صديقتها التي تشاركها السكن تقوم بهذه المهمة في أغلب الأحيان. . . إنه لم يغرد اليوم. . . أو أنها نسيت، فربما سمعته صباحاً كما تعودت. مشغولة بما هي فيه لدرجة أنستها إن كانت سمعت صوته أم لا، هل شربت قهوتها أم لا. . . اتجهت الى الممر الجانبي حيث قفصه. . . كان ملقياً على أرض القفص. . . ضاماً جناحيه كمن يحس برداً قارصاً. . . دافناً رأسه الصغير بين جناحيه. . . ارتعدت فرائصها وشهقت بعبارة: إنه فأل سيئ. مدت يدها. . . أهو مريض؟. . . حركته، إلا أنه كان جافاً كخشبة. . . وبمرارة وحرقة طلبت غفرانه. . . إذن فهو لم يأكل شيئاً منذ ثلاثة أيام أو أكثر. . . لقد استلبها لقاء اليوم. . .

حملت جثته الصغيرة بحنو ولفته بمنديل ورقي اختارته جميلاً. . . دفنته بين

شجرتي زهر الروز الأحمر... ومن هذه اللحظة بدأت ترتجف بدون توقف... فقد اقتلعت حياته اقتلاعاً.

اقلتعت بعض مراحل حياتها، سنوات نهبت والتهمت بتلذذ... تواريخ صودرت دون أن تعرف السبب في ذلك... فترات أشبه بمقاطع من فلم تعرضت بعض أجزائه للضوء واحترقت لتتحول الى قطعة معتمة... تحاول ربط ما تبقى من السنوات بعضها ببعض وتجهد لتشد مراحل حياتها الواحدة مع الأخرى... ربطت خمسينيات عمرها بسبعينياته، ولكن أين سنوات الستينيات... ضائعة في بلد ما أو عند أحد ما... وهل العودة الى ما مرت به مجد... بحثها يشبه من يعمل على إصلاح شيء ثمين تعرّض للكسر ولكن أجزاءه المهمة غير موجودة... سيبقى مكسوراً مهماً تم ترقيعه بقطع أخرى أو بسنوات أخرى.

تقف عربة المترو لتفرغ ما بداخلها من بشر تراصوا معاً ليصلوا محطة المطار... شاب يحمل حقيبة صغيرة بيده اليمنى ويحتضن باليسرى فتاة تحمل حقيبة أخرى... ما أسهل السفر بالنسبة لهم، إنه أشبه بدعوة لشرب فنجان قهوة... ربما اتخذا قرار سفرهما في لحظة صفو، ثم رتبا كل الأمور خلال يومين أو ثلاثة... وإعداد الحقائب لم يستغرق إلا ربع ساعة أو أكثر قليلاً.

حين سافر والدها لأول مرة خارج البلد، انقلب البيت رأساً على عقب... أكداس من الرسائل والأوراق والمعاملات تدخل للبيت موقعة من هذه الدائرة لتعاود الخروج منه لغرض توقيعها في دوائر أخرى. مخافر شرطة، مكاتب سفر، محاكم ووكلاء، شهادة دفن وشهادة حياة، شهادة حسن السلوك... أوراق تتطاير هنا وهناك، كل هذا لترتيب إجراءات السفر لرجل مسن جاوز الستين من عمره ولمدة أسبوعين فقط... تنتهي أفواج الورق لتظهر أفواج أخرى من المودعين والزوار، بعضهم جاء من جنوب الوطن وأخر من شماله ومجموعة ثالثة من وسطه... هناك من اصطحب العائلة بكل أركانها، الزوجة، الأم، الأخت، زوج الأخت، واثني عشر طفلاً تركوا بصماتهم في كل ركن من أركان البيت... وبعد انتهاء أفواج البشر تلك تثور معمعة الحقائب التي أعدت وأغلقت ثم عاودوا فتحها وترتيبها من جديد لعشر مرات متتالية...

صور تتقافز أمامها فتبتسم في سرها... عملية إلهاء النفس بأفكار لم تطأ رأسها منذ سنين. . يوم ولادة أختها الصغرى مثلاً... أو تطفو على سطح أفكارها فكرة الهجرة الى بلد آخر... أو بزوج أختها الذي خطب شقيقتها الكبرى ثم الوسطى وعندما

رفضتا تقدم لصغراهن وكأنهن فاكهة يختار ما يلذ له منها. . . تبحث في رفوف العمر المرصوصة عن فكرة أخرى إلا أنها تعجز، فلقاء اليوم أكثر الأفكار حدة وحرقة في روحها وبه ينتهي مصب النهر، في المطار. . .

الصور تتلاحق أمامها، تزاحم بعضها البعض، كل صورة تحاول أن تكون هي الأقرب الى عينيها، الى الذهن أو الروح، الى مركز جهازها العصبي. تحس بارتعاشة الخوف التي سحبتها الى الأعلى حيث النشرة الضوئية تعلن عن وصول وإقلاع الطائرات.

تريد تقليد الأوروبيين الذين حولها، يتصرفون بهدوء كامل في الاستقبال أو في التوديع، تبطئ في السير، ترفع رأسها عالياً، ثم ترسم ظل ابتسامة على شفتيها. عليها أن تبدو أكثر تحضراً مما يتصوره الأوروبيون عنا، إلا أن رعشات الخوف تحولت الى رجفة فضحتها وهي تحاول أن تشعل سيكارتها التي كانت ترتجف بوضوح يصعب إخفاؤه، أو ارتعاشة الشفة التي رسمت لها وعليها ابتسامة.

سعدت حيث لا أحد يراقبها سوى شخص يبدو من ملامحه أنه عربي، بل هو بالتأكيد عربي، فليس سوانا من يراقب الآخرين بهذا الإلحاح. . . خاصة إذا اشتبه بأن مَن يراقبه عربي وامرأة فوق ذلك. . . تركت مكانها الى أبعد نقطة يمكن أن تتصورها. . . الى المكان الذي لا تُرى فيه. . . كانت تريد أن ترتجف وتخاف بحرية دون أن يضايقها أحد. . . تحاول بارتجافها أن تنفض بعض ما حملته من هموم وخطايا عالقة في ثيابها منذ زمن غابر. . . تريد أن ترتبك كما تشاء وبالطريقة التي ترغبها. . . ستطلق العنان لكل قلقها وخوفها أن يفعلا بها ما يشاءان.

ارتكنت في بقعة صغيرة مظلمة نسبياً، أو هكذا تبدو لها. . . وربما كانت أكثر ظهوراً بين كل البقع بسبب ظلامها وسط الأماكن المشعة بالأضواء في صالة الاستقبال. . . وفجأة كبرت الملاحظة في رأسها، لم تشع المطارات بالأضواء، أهي عملية مقصودة للكشف عن مشاعر وانفعالات الناس في لحظات خاصة جداً. . . لحظات توديع واستقبال، لحظات خوف أو فرح. . . فهي شبيهة بعملية تصوير فلم سينمائي، حيث تسلط الأضواء على الممثلين لإظهار الدور بشكل ملائم جداً وبوضح أكبر. . . الأضواء عدسة مكبرة للكشف عما هو أمامها بشكل مفصل، لكشف الذات والخوف. فتجعلنا نتكور على أرض المكان أو نتدحرج من جهة الى أخرى، أو نتغير من حالة لأخرى، وقد نتسامى حيث لا يبقى لنا ملمس أو طعم أو حتى رائحة. . . وخطرت

لها فكرة استبدال الأضوية الصارخة بالشموع والفوانيس الصغيرة في المطارات. لو تم ذلك لتصرف المستقبلون والمودعون بحرية وتلقائية أكثر. . .

بحثت عن كرسي يحتضنها ويخفي ارتباكها. . . إلا أنهم سبقوها إليه، وها هي مَن تنتظر حبيباً أو زوجاً، آخر يبدو وكأنه ينتظر والده فهو كالطفل الذي ارتكب حماقة، وذاك الطويل المتأنق بشكل مزعج، قد يكون في انتظار مدير مؤسسته، هناك تجلس هندية مسنة غارقة في نوم عميق، بالتأكيد حضرت للمطار صباحاً لاستقبال طائرة قادمة مساء. . .

مئات من العيون تتطلع باتجاه واحد، مئات من الأحاسيس والمشاعر ابتداءً من الخوف وانتهاءً بالسعادة، كلها باتجاه واحد لا غير. . . باتجاه ممر وصول القادمين. . . ممر طويل نظف بعناية فائقة لدرجة أنه يجعلك تحس بوصول القادم قبل أن يضع قدمه على الممر. . . حيث تعكس الأضواء خياله، ويرن صوت حذائه بصدى طويل يخترق الممر ليصل الى أعماق كل منتظر في الصالة، فتبدأ القلوب بالخفقان تحسباً بأن القادم يخص هذا المرتبك أو تلك الخائفة أو هذا المتلهف. . .

هناك. . . هناك حيث البقعة المظلمة نسبياً تجلس لوحدها. . . تعبأت بكل ما هو قديم وجديد، محاولة إشغال الروح بكل شيء إلا بما جاءت من أجله لهذا المكان. . . تدخن سيكارتها بنهم حتى كادت تتقيأ لكثرة ما بلعت من دخان السكائر الواحدة تلو الأخرى. . . جوفها فارغ من أي شيء، من أي طعام أو شراب، لم تتحسس طعماً منذ الليلة الفائتة سوى دخان لفّها وجعل لونها رمادياً. . .

«ترى ماذا لو لم تعرفها؟»، «هل تغير شكلها أم صارت أجمل مع خطوط الشيب التي زحفت على سواد شعرها؟»، «هل ستأتي على كرسي المقعدين أم أنها تسير بشكل عادي؟»، «هل ستصرخ عند رؤيتها أم أنها تكتفي بالبكاء فقط. . .؟» أسئلة حملتها منذ شهر وتكررها يومياً ولأكثر من مئة مرة، لم تكتف بذلك بل كانت توجهها لكل أصدقائها علهم يساعدونها في إيجاد جواب تتوازن به نفسياً، وها هي في هذه الصالة انتظاراً للجواب.

أرعبتها فكرة وصولها على كرسي، بعد فراق سبعة عشر عاماً ثم تلتقيان وإحداهما مقعدة. . . أهي واحدة من تلك الفترات التي اقتلعت من حياتها دون أن تسأل حتى عن السبب في نهب واغتصاب هذا الزمن منها.

لماذا هذا الكرسي؟ لا تقلقي إنه لتسهيل إجراءات السفر ليس إلا. هذا ما أخبرتها به في التلفون الأخير. . . ولكن هل قالت الحقيقة؟

كانت تترك عشر دقائق لتعاود السؤال على موظفة الاستعلامات حول وصول الطائرة. . وفي كل مرة تؤكد الموظفة نفسها، وليس غيرها، أن الطائرة وصلت، إلا أن الإجراءات الرسمية تأخذ وقتاً طويلاً. . . تعودنا عدم الثقة بالآخرين، لذا عليهم أن يكرروا كلامهم لمرات متتالية، ومع هذا لا نصدقهم، بل ننساق وراء غرائزنا وأحاسيسنا التي قادتنا الي ما نحن فيه. . .

لا تريد أن تستقر. . صار الإرهاق أكثر ملاءمة لها، والوقوف أكثر راحة من الجلوس، بل الركض أكثر استقراراً من الاسترخاء. . . تحاول أن تكشف مشاعر الآخرين، فتبدأ بمراقبتهم. . . ربما كانوا يرتجفون مثلها، إلا أن ارتعاش الأضواء امتزج بخوفهم فلم يلحظهم أحد. . . إنهم خائفون مثلها. . . أكدت ذلك لنفسها وأحست براحة عندما اقتنعت بهذه الفكرة. . . تخيلتهم يقبعون معها في تلك البقعة المظلمة وينفثون دخانهم بنهم في وجهها. . . تفجرت مكامنهم عن أسئلة تتعلق بهذا الاستقبال. . . تخيلت ذلك واقتنعت به، ومع ذلك ظلت الأكثر ارتجافاً بينهم، فالكل مشغول بما هو فيه. . .

تقدمت الى الأمام. . . اقتربت من الحد الذي يفصل بين المستقبل والقادم، خط النار في معركة مشاعر وأحاسيس قادتها الى حلم إغفاءة قصيرة، أمسكت ببطنها المنتفخة وسألتها: لمَ هذا الانتفاخ، وما علاقته بمرضك؟. . . ردت عليها:

ـ أنا حامل بحكايا لم نروها منذ سبعة عشر عاماً وبهموم حربين. . . جلست على الأرض تعبة من ثقل الانتفاخ الذي في بطنها فوضعت الأخرى رأسها في حضن شقيقتها. . . أمسكت البطن وراحت في إغفاءة عميقة وهي تستمع لها وللحكايا التي لم تنته بعد. . . فقد أدركت بأنها عثرت على الجزء الذي كان مفقوداً، تاريخ ما من حياتها لم تعرف أين كان منذ سنوات. . . وبه ستحاول إصلاح عطب ما أو سدّ فراغ كان متروكاً لزمن غير معلوم.

ظهر واحد وإثنان، لا معالم لهما، أو إنها لم تعد ترى شيئاً، ثم تكوين شبحي له بقعة بيضاء وفي الوسط باقة ورود، امرأة أو عروس. . . سير عجلات على أرض الممر. . . إنه كرسي يدفعه شاب مرتدياً ملابس المطار. . . توضحت الصورة. . . تماسكت لتكون أكثر قوة لحظة اللقاء، إلا أنها بعد التمعن أيقنت بأنها ليست هي. . . إنها عجوز مسنة، مرّ آخر قصير وثالث طويل، وتلك البدينة والخامس الذي ارتكز على عكازته. . . وأخرى ببلوزة برتقالية صارخة اللون. . .

انتظرت للحظات أو دقائق... فقدت الإحساس بالزمن.. كأنها في هذه الصالة منذ أن ولدت... كأن طفولتها وصباها تجذرا هنا، وفجأة أحست بقوة اللون البرتقالي الذي مرّ قبل قليل... أدارت رأسها ببطء وكأنها منومة مغناطيسياً، نظرت الى ظهرها... شعر مربوط بشال أسود، تسير ببطء من لا يعرف أين سيتجه... ليست هي بالتأكيد، أكدت ذلك وتبعتها وكأنها مسحورة بهذا اللون الذي شدها إليه بقوة... تركت كل ارتجافها وخوفها وتبعتها وفي داخلها سؤال يكبر ويكبر: «ماذا لو كانت هي؟».

أبطأت الأولى في السير، وبتأثير سحري فعلت الثانية... كانت ترى لوناً فقط، لا أكثر من ذلك، لا وجود لكائن يرتدي هذا اللون... إنه تكوين عائم في جو هذه الصالة... تقدمتا حتى انتهى الحد الفاصل بينهما... استدار اللون البرتقالي وصارا بمواجهتهما... نسيت كل الأسئلة والأجوبة... نسيت الهدوء الذي حاولت أن تقلد به الأوروبيين، بكت بصوت عال... بكتا معاً... كانتا تحت أشد الأضواء سطوعاً... احتضنت اللون البرتقالي وغاصت فيه... إلا أن مشهدهما لم يكتمل.

لندن

تشرين الثاني ١٩٩٣

سلام صادق

ثلاثية

١- المطاردة

بدلاً من أن أُعدَّ العدةَ لامتحانات اليوم التالي، نمتُ الظهيرةَ بعد يوم مضن، مليء بما يصدع الرأس. وفي عمق نومي، داست حوافر خيل على جبيني فقفزتُ مذعوراً من سريري، جلت ببصري زوايا الغرفة فلم أجد أجساداً منطلقةً من عقالها، ولم أسمع وقعَ حوافر في الأقل.

عرفتْ أمي ـــ التي مازال باطنُ كفها يمسحُ على رأسي ـــ ما جرى. وأدركت بحس أمومي سرّ الغرابة التي تشعّ من عيوني. وقالت رغم أني مازلت مشدوهاً ومحتاراً بصمتي ولم أنبس ببنت شفة، أو لم أطرح تساؤلاً ما في الأقل.

ـــ لا تستغرب فكل شيء ممكن في الأحلام!

وببراءتي المعهودة تمالكتُ لعثمتي وضعتُها على شكل قول واضح:

ـــ ولكنني أحب الخيول يا. . .

فقالت محاولة إعادة رأسي الى وسادتي دون إرادتي:

ـــ إن من يحب الخيول لا يأمن حوافرها.

وجلستْ بمحاذاتي على السرير، فأعدتُ رأسي الى حضنها ثانيةً خشيةً أن تتركني وحدي في الغرفة. . . فقد انتابني الخوفُ من جديد بمجرد ذكر الحوافر وقلت متلعثماً:

ـــ إنني أحب الخيول. . . لكنني أمقت حوافرها الحديدية القاسية.

وتحسستُ جبيني الذي بدأ العرقُ يتقاطر منه بكلتا يديّ.

سحبتني أمي من يدي خلفها الى خارج الغرفة باتجاه المغسلة، رشقتْ وجهي بقليل من الماء البارد ومسحتْ عليه بقطعة من القماش المستخدمة كمنشفة.

وبينا أنا لم أزل مغمضَ العينين طلبت مني كالعادة:

ـــ أخرج الآن والعب في الشارع! وأردفت:

ـــ خُذ عصاك الطويلة من تحت سريرك، وامتطها في الخارج مع أبناء الجيران، إن شئت ذلك.

وحين أنهت عملها ورفعت قطعة القماش عن وجهي، شعّ عليه ضوءُ النهار الحاد فتطايرت شظايا بصري تجوب أرجاء البيت، ولم أرَ خيولاً تعدو، ولم أسمع وقعَ حوافر. . . غير أنني لم أكف لحظةً واحدة عن أن أتحسس جبيني، وأصبحت كالمهووس بذلك. فقد فعلتُه من جديد مرات عدة. . . من أجل الوثوق من سلامتي أو مما حصل لي فعلاً.

خطوتُ خطوتين مترنحتين باتجاه الغرفة لتناول عصاي، فوجدتُ نفسي فجأةً أعزلَ ـــ بدون عصاي ـــ بمواجهة عدد جمّ من الطاقيات، تتجول جيئةً وذهاباً خارج النافذة الوحيدة لبيتنا والتي تطل على الشارع الترابي، فانزويتُ عنها بأقصى سرعتي ومفاصلي تصطكّ هلعاً.

لم أتبين ملامحَ الوجوه التي تعتمد الطاقيات نظراً لارتفاع النافذة أو لانخفاض بيتنا عن مستوى الشارع أو لقصري آنذاك.

عندئذ اختُزلتْ لعثمتي الى صمت مطبق. ولم أبادر حتى لسؤال أمي. كما لم أُمنح الفرصة الكافية للعمل بنصائحها والتي تتخذ على الأغلب شكل أوامر ينبغي تنفيذها، في أن أتناول عصاي مثلاً وأمتطيها في الخارج مع أبناء الجيران، متقمصين دور الفرسان على ظهور خيولهم المطهّمة. فقد كنتُ خائفاً بما فيه الكفاية لأسمع صهيل لعنتهم يسحقُ أعماقي، يلكزه حدسُ الفضول الطفوليّ الصادق القائل بأنهم كانوا بانتظار أبي. . . هناك خارج النافذة منذ سنين.

أيلول/ ١٩٩٣

٢- الوصية

في الشارع المضاء قليلاً، وقع بصري فجأة على معطف أبي الأبيض الشفاف يخفقُ في الريح متدلياً من عمود الكهرباء قبالة دار أم الحُسن المتهمة بالدعارة والمتهم أبناؤها باللواط فاستهجنتُ ذلك في قرارة نفسي:

ـ لماذا هنا بالذات؟ ورفستُ الأرضَ بقدميّ متوعداً.

حاولتُ أن أمطَّ مفاصلي المتكلسة ما استطعت، لبلوغه فلم أفلح. بينما بدأ المطرُ يهطلُ، تحتضنُ كل قطرة منه ذرة من الغبار، فتضاعف خوفي من أن يتعكر لونه الناصع، فيستحيل عليّ استخدامه في المستقبل، وهو إرثي الوحيد. لباسُ عرسي أو كفنُ ذكرياتي، الذي لا أريده ملوثاً ببقع داكنة تشبه آثاراً تخلفها طعنات قديمة.

حاول زوج أم الحُسن المسكين والذي لا يعرف ما الأمر مساعدتي بسحب سريره من فناء الدار بغيةَ إيصاله الى عمود الكهرباء ـ سريره الذي ألقتْ به زوجته وأبناؤه في الزاوية البعيدة من فناء الدار ـ لينامَ عليه هناك بعيداً منفرداً عن غرفة نومها المحروثة بضجيج الأنفاس، وفحيح الثعابين الشرهة آخر الليل. إلا أن جهده الشريف هذا ذهب أدراج الرياح نظراً لضيق الباب الخارجي لدارهم.

أحسستُ بالعجز يشلني تماماً عن القيام بمهمة هي من صلب واجباتي حيال تاريخ أبي وفضول الآخرين، ومارستُ هذيان هذا العجز متسائلاً:

ـ عجباً كيفَ تمّ لكم إدخال هذا السرير المزدوج عبر هذا الباب الضيق؟

فردّ عليّ بهدوئه وانكساره الشائعين في الحي:

ـ لا بل كيف تمّ لأبيك تعليق معطفه الناصع هذا تحت الأنواء وعلى هذا الارتفاع الشاهق؟

بعد سنوات عدة، أخبرني أحد أبناء الحي ذاته والذي التقيته صدفةً في مكان بعيد بأن معطف أبي مازال معلقاً هناك ممزقاً رثاً ومتآكلاً له لونُ النفط والتراب. لا يستطيع أحد إنزاله، أو لا يكترث أحد لذلك على وجه التحديد. إذ لا قيمة لفعل من هذا القبيل. غير أن أم الحُسن ـ التي شاخت الآن بالتأكيد ـ مازالت تنظر إليه في أخريات كل ليلة مقمرة، من نافذتها التي تطل على بستان النخيل، فيدخل الفرح الى روحها المتهدمة، ظانةً بأنه عميل جديد في الطريق الى مخدعها، وفي الصباح تتكور على نفسها خلف فنجان من قهوة السهر المرّة وسيكار من الليلة الفائتة، لاعنةً أبي والريح حيث تذعن

يوماً للحقيقة نفسها والتي مؤداها بأن معطف أبي مازال معلقاً يرفرف هناك لإيهامها وإغواء الفجر.

قبل أن يغادر، علّق أبي معطفه فزّاعة تهشّ على عملاء أم الحُسن، من الذين يتسللون الى مخدعها تحت جنح الظلام. وترك في أحد جيوبه قصاصة ورقٍ لم أطلها عندئذ، ولم يقرأها أحد للآن. قصاصة بلغة ماجنة وبدلالة مبرأة تقول:

ــ لماذا جميعُ اللائي يمتلكن فروجاً واسعة، يُحبذن أبواباً ضيّقةً؟

هذا كل ما أورثني إياه أبي وغاب. . . أعرفه غير أني لا أمتلكه. سؤال في صيغة جواب.

تشرين ١/ ١٩٩٣

٣- الجثمان

لم أعرف ــ للوهلة الأولى ــ هذه المرأة الغريبة التي تبكي على جثمان أبي المُسجى بكاءً مراً، يضاهي بكاء أمي عليه. حيث لا أخواتَ لأبي على حدّ علمي. لا بل إن هذا ما حدثني هو نفسه به، وكذلك أمي وجميع الذين يكبرونني سناً في العائلة. حيث اعتاد الجميع القول بأنه ليس لأبي من أخوات تُذكر، غير أن له سبعةَ إخوة، بعضهم غادر الحياة حينما كان أبي طفلاً. ويشيرون ــ وكأنما بشكل إلزامي ــ وبصوت تختلط فيه الخيبة بالندم الى الأخ الأصغر لأبي، الذي مازال في مستشفى للأمراض العصبية منذ نصف قرن تقريباً، ولا يُرجى له شفاء.

وترعرعت مع حقائق من هذا القبيل، ألفتُها رغم أن بعضها كان يُصيبني بالذعر أحياناً. ورغم هذا كله، أعني دقة التفاصيل التي أمتلكها حول العائلة التي أنحدر منها، فمازالت تساورني شكوكٌ تتعلق بحقيقة الرابطة التي تشدّ هذه المرأة الى أبي، بعد أن أغرقت بدمعها المكان، ولطمت خديها حتى سال دمهما ومزقت ما عليها من ثياب أكثر من مرة.

غير أن معرفتها بالصفات النبيلة التي يمتلكها الجثمان المسجى جنبها، جعلني أفرغ من التفكير من بديهة أولى، وهي أن هذه المرأة ليست غريبة عن أبي وعني كذلك، غير أن هذا الاستنتاج تعوزه البراهين، ولذا فسوف لن يرضي طموحي. وقررتُ مواصلة البحث الجاد عن السرّ المتخفي وراء صمت هذا الجثمان ووراء عويل هذه المرأة عليه.

كما أن الوقتَ لم يكُ قد حان بعدُ لمغادرة جميع الغرباء لكي تسهل عندي عمليةُ الفرز أو تتضح أمامي بعض التفاصيل الجديدة التي ربما ستضعني في الطريق المؤدية الى الإجابة الحاسمة. من خلال ما سيؤول إليه موقف هذا الوهم المتلفع بالسواد من هامته وحتى أخمص قدميه، والذي اعشوشب كالطحلب في رأسي وشغلني عن القيام بمهامي ومنعني حتى عن التفكير بأبي الميت لتوه.

كان الإعياء قد هدّني فانتحيت جانباً مقتعداً أحد الكراسي. موزعاً بين العويل وبين ما يستنفر هذا العويل ويعطيه مداهُ الأقصى، كلما مرّت لحظة تتضاءل حدته فيها.

وبينما أنا في شبه غيبوبة، تناهى الى سمعي صوتُ أمي المبحوح وهي تشكر جميع الباكيات وتطلب منهنّ بلباقة مغادرة الغرفة هذه الى غرفة أخرى مجاورة، ليرقدَ أبي بسلام على حدّ تعبيرها. بينما كانت تهمّ بإطفاء الضوء. وفعلاً بدأ الحشد بالتفرق، ولم يخفِ البعضُ منهن دهشتهُ لتأخر الساعة. غادرن الى بيوتهنّ بعد أن ودّعن أمي بآخر زفرة متبقية لديهن ربما لتلك الليلة، على أمل العودة فجراً قبل نقل الجثمان.

إلا تلك المرأة المبهمة ـــ التي أصبحت صورتها في ذهني تقترب تدريجياً من صورة الخصم ـــ فقد أصرّت على البقاء حيث هي رغم انطفاء الأضواء ومغادرة الجميع، وكانت تدافع عن نفسها ووجودها قرب جثمان أبي وتردّ على الاعتراضات بصراخ يشقّ عنان السماء، متذرعةً بأنها اعتادت النوم في ظلام دامس يلفّ أعماق الأشياء ويُضفي عليها طمأنينة أبدية. فكان لها ما أرادت بعد أن استسلم الجميع أمام صلابة إصرارها، شريطة عدم البكاء بصوت مسموع، يقلق راحةَ الموتى والأحياء في هذا الهزيع الأخير، قالت لها أمي بعصبية ظاهرة وهي تغادر الغرفة.

مع أولى خيوط الفجر، بدأت طلائع المشيعين من الرجال والنساء تتوافد على البيت فانتهزت أمي الفرصة لإلقاء التحية الأخيرة على أبي في مثل هذا الصباح الباكر قبل نقله الى مثواه الأخير.

كانت المرأة قد اختفت ولم يعد لها أثر، تاركةً خلفها إشارات غامضة يصعُب تفسيرها لا بل إن مجرد التفكير بفكّ رموزها، قد يزيد الأمر تعقيداً. فقد كانت النافذة مشرعة ونورُ الصباح يغمرُ الغرفة، والهواء السري يداعب الستائر البيضاء. بينما كان جثمان أبي قد اقترب خطوة من النافذة وابتسامة وداعة خجولة شاحبة تغطي محياه.

شاعت الحكاية في طابور المشيعين وأثناء مراسيم الدفن التي رافقها مطرٌ شديد أغرقَ الحفرة المعدّة لمواراة جثمان أبي، لا بل المقبرة بأكملها. ولم يُبد أحد استغرابه لذلك

سواي، فقد كان الأمر وفق مقاييس ذهني المُتعب والذي جاوز حدود احتماله يعني طوفاناً جديداً يجب أن يستحوذ على الاهتمام، نظراً لما يحمله بين طياته من وعيد.

لكنه وبمجرد الانتهاء من مواراة جثمان أبي توقف المطر فجأة، وبلعت المقبرة بسرعة مذهلة، ذلك البحر الهائج. مما أعطاني الفرصة للبحث عن أمي ومطاردتها كظلها على طول وعرض المقبرة، مطالباً إياها بإيضاح لما حصل، ومحتجاً بأنني الابن الأكبرُ للراحل والذي يجب أن يعرف أدق التفاصيل عن حياة أبيه ولو في موته.

كان دأب أمي أن تتجنب الإجابة بوسائل شتى، مُظهرة عدم أهمية موضوع كهذا الآن في الأقل ونحن في حداد وحزن على حدّ تعبيرها.

أخيراً. . . وبينما كانَ شتاتُ العائلة يلتئم لمغادرة المقبرة، أوكلَ عمي المجنون المهمة طواعيةً الى نفسه، ورغم أنه لم يعد باستطاعته استذكار جميع ما حصل، فقد استطاع أن يُرضي خوفي وقلقي وفضولي بكلمات قليلة. تتلخص في أن أبي أحبّ امرأة أخرى قبل أن يتزوج من أمي، ماتت غرقاً في عزّ شبابها وقبل حوالي نصف قرن من الزمان. وأضاف بأنه لم يتمّ العثور على جسدها إطلاقاً، ليتم دفنه كالمعتاد.

لا أدري لماذا اعتمدت رواية عمي منذ البداية وآمنت بها وتبنيتها كتفسير معقول الى حد ما لانتشالي من المتاهة، ربما لأنه لم يعد هنالك من مجال للوثوق من واقع لم يجرّك نفسك لممارسة التجربة المرة ومعايشتها. أو لعلمي المُسبق والثابت بأنه ليس مثل المجانين من يفوهُ بالحقيقة.

ويبقى السؤال نفسه ماثلاً، ولكن في خصائص التباسات وتوقعات سرّه الآخر الدفين: ــ لماذا تمتنع أمي عن الإجابة بنفسها حتى هذه اللحظة، رغم مرور عدة سنوات على رحيل أبي.

تشرين ٢/ ١٩٩٣
السويد

شاكر الأنباري

أهواء غامضة

على بقعة من العشب فرشنا البسط بعد أن مهدنا الأرض بأيدينا، وأزلنا أعواد الشجر والعروق من الأرض، ثم أخرجنا من الأكياس ما جلبناه من المدينة. الظل ممتد بنصف دائرة حول ساق غليظة تتخلله مشحات من الصفرة الذهبية، والعازف كان ممسكاً بعوده، مقرفصاً في الشمس، يبدو على وجهه المكتسي بلحية حمراء زهو غير عادي خاصة وقد راحت الصبايا ينظرن له بإعجاب وأعينهن تتلامع في انتظار شيء غير متوقع.

سهير، المرأة التي أعرفها ودعتني الى هذه السفرة، تجلس ابنتها في حضنها وتلقي توجيهاتها الى الآخرين، شعرها ناعم يتهدل على كتفيها الصغيرين ضفرته بطوق قماش أحمر، وشفتاها مطليتان بالحمرة الفاقعة. أنا وهي الأكبر سناً من بين المجموعة، كانت تحاول جهد الإمكان إدخالي الى الجو لأنني لا أعرف أحداً عداها، هي وابن أخيها الشاب الذي لم يبلغ العشرين سنة، رأيته يعمل بصمت وينفذ رغبات عمته دون أن تفارق السيجارة شفتيه.

مضت مجموعة لاكتشاف المكان وجلب الأعواد الجافة والزهور، تلونت الحقول بحمرة القمصان وصفرة الكنزات وبياض السراويل فبدت الغابة كما لو كانت تواجه غزو فراش هائل الحجم، ينوس تحت تيجان الشجر وبين الأغصان المتدلية نحو التراب، وبدأت مجموعة ثانية بتجهيز المائدة. العلب أخذت تنهال على البسط، مارتديلا وسردين

ولبن رائب، وأكياس تحتوي بزر البطيخ وشرائح البطاطا والبندورة والخيار مع الملح والسكاكين والصحون البلاستيكية، بينما أخرج شاب صغير السن كان جالساً قرب صديقته ذات الشعر الأصفر قناني خمرة سرعان ما تخاطفتها الأيدي، ثم فتحتها بعجلة معدة إياها للاحتساء.

جلسة مبعثرة تحت ظلال شجرة التوت، وكلام كثير يمهد النفوس لتحلق في فضاء الغابة، عشب أخضر ونبيذ أحمر وشفاه طازجة ونغمات خافتة تعكر بخفة حيوات المخلوقات غير المرئية في دبيبها بين قصيبات الثيل وعروق النباتات وبقايا روث البقر وأجساد الديدان الميتة، وكنت مأخوذاً بكل ذلك. مأخوذاً بالأشجار التي تحيطنا وقد ميزت بينها الدراق والمشمش والتفاح، زرعت بصفوف متناسقة، مليئة بأعشاش الربيع إلا أن أوراقها ساكنة، كأنها تحاكي روح الفضاء السارية ببطء في المخلوقات أجمع، وكانت هناك أيضاً ألواح مزروعة بالريحان والبصل والباقلاء، الشارع بعيد والأصوات نائية، رغم وجود بيوت قريبة لفلاحين، بدت هادئة هي الأخرى تحت شمس الظهيرة.

لم يكن الجو حاراً، الشمس تهطل والخمرة تتوهج، ثمة نسيم ناعم يغازل وجوهنا، لم يلبث أن لمّنا حول المائدة ورحنا نغني، أغاني جماعية في البداية، غير واثقة الإيقاع، شائعة يحفظها الكل تقريباً، يوجهها صاحب العود الذي كان يؤديها ببراعة نالت استحسان سهير فنهضت وبدأت ترقص. كعب حذائها يغوص عميقاً في التراب الرطب ووجهها شاحب معبأ بالأهواء، وكانت الأهواء مثلها غامضة، راقصة ملمة.

قالت ذات الشعر الأصفر: لمَ لا نشعل ناراً؟

لم تلاقِ الفكرة أي إعجاب من الآخرين. اعترضوا بحرارة الصيف أولاً ثم بخطورة إشعال النار وسط غابة، ففي غفلة صغيرة يمكن أن تلتهم الجذوة الصغيرة كل ما يقع تحت البصر. جلست سهير تصب النبيذ لابن اختها وتقدم له شرائح البطاطا بينما مضت ابنتها الى ساقية ضيقة وجمعت زهوراً برية صفراء لفتها على شكل باقة ثم قدمتها هدية لأمها، وهذه بدورها أعطتها لي، أنا القريب إليها.

قالت: شم رائحة الريف.

شممتها، كانت الرائحة فاغمة، ذكرتني بطفولتي البعيدة والقريبة التي ولدت فيها، ثم حلمت بنهر عريض وضفاف رملية وامرأة عارية ترش المياه على جسدها، تخيلتها سهيراً.

قام عدد من الصبايا والشباب وعقدوا حلقة صغيرة راحت تدور على صوت العود

في المسافة الضيقة بين الشجرة الضخمة، ذات الساق الغليظة المشقق، وبين المائدة المفروشة على رخاوة العشب. تتماسك الأيدي، تتوحد ضربات الأقدام، موسيقى العود تنهمر على قرط سهير وباقة الزهور التي وضعتها في كأس النبيذ ورحت أشرب ثم أشم. أخذت الخمرة ترقق الأشياء حولي فتبدو أكثر جمالاً كما لو كانت لوحة رسمها شخص رائق المزاج، غاو لسحر العيون، وحين تطلعت الى صديقتي سهير وجدتها جميلة أيضاً.

إنها تسكن في طرف المدينة، في بيت صغير لابد للمرء أن يصاب بالتعب إذا رام الوصول إليه، يقع على تلة تشرف على شوارع وعمارات وغابات معتمة وقرى نائية. كنت أزورها بين حين وآخر، أحمل لها هدايا صغيرة من برتقال وموز وشوكولاتا وجوز هند وكانت تعترض على ذلك لكنني أقنعها كل مرة في أن ما أجلبه للصغيرة وهو يسليني كثيراً. تسكت ونجلس في الصالون الصغير نتهامس حول كل شيء أو نشاهد مسلسلاً في التلفزيون أو نقرأ الكتب. أجدها دائماً وحيدة مع ابنتها سوى مرة واحدة كان فيها ابن أختها الذي غادرنا بعد ساعة من وصولي. أمتلئ، حين أجلس في ذلك البيت الصغير، بالطمأنينة، لا أحد يعرف مكاني ولا أعرف أحداً في الحي. على بائع الذرة لا ألقي التحية ولا أتطلع في وجه البقال، وهذا ما اعتبرته متعة بحد ذاته. مالت لي هي الأخرى كما أخبرتني ورغبت بإدخالي الى جوها، جو الأقرباء والأصدقاء وأوقات الفراغ التي تقضيها، كذلك اليوم الذي دعتني فيه الى الخروج صباحاً للركض، فوجدت الاقتراح أكثر مما أطيقه فرفضت.

هذه الدعوة وافقت عليها مباشرة، سأجد نفسي في غابة، قلت لنفسي، حيث كنت بحاجة لأعيد شيئاً من علاقتي مع الطبيعة، أستنشق هواء نظيفاً وأمتع بصري بالزهور والطيور والحقول الفسيحة المزروعة بالخضرة والفراش والندى، محاطاً بالصبايا الجميلات والموسيقى.

نعم نحن في الغابة التي حلمت بها، نحتسي الكؤوس الحمر ونرقص، نغني ونتبادل النكات، نتغازل بالعيون ونستحم بالأوراق ونفك الإشارات غير المفهومة أو النظرات ذات المعاني والإيحاءات. لاحظت مثلاً أن ابن أخت سهير يشرب النبيذ بطريقة غير طبيعية، يعب كأسه عباً، لا يتريث ولا يستطعم كمن لديه طريق في رأسه يريد أن يجتازه سكران. سكران من خوفه ومهاويه، من وحدته فيه أو عبث الخطى نحو النهاية. ولاحظت كذلك سهيراً ترمقه بنظرات عميقة، تطلب منه آمرة تخفيف نهمه، أو التوقف فلا

شيء يجدي. نعم لا شيء يجدي، رأسه صارت تميل الى الأسفل، نحو زهو العشب وحركة الديدان ومغاور الحشرات في ظلمة الأرض، حيث لا يتسلل الضوء إلا بصعوبة. لم يعد يتطلع الى أحد، الموسيقى لا يسمعها والغناء لا يطربه، فالأرض مركز عينيه، لا أدري في أي عالم هو وأي الأفكار تغلي في رأسه. حاولت التقرب منه بالحديث، لم يستجب، ظل نافراً شكاكاً يكتم في قلبه سراً يخاف أن يفر منه ويلتقطه الآخرون.

نهضت عمته وجلست قربه، راحا يتهامسان بضع دقائق، كان الباقون مشغولين برقصهم وغنائهم، حاولت صبية إشعال النار في كوم الأعواد التي جلبوها لكن رفيقها منعها بقوة، قال لها سيطردوننا من البستان إذا شاهدوا النار. مرور الوقت دائم وميلان الشمس الى الغرب سار وبدأت الأجساد تتكاسل، قلّ الحماس للرقص والغناء، وجاءت اللحظة التي وضع فيها المغني عوده في بيته الخشبي وتحولت الجلسة الى ثرثرة لا أحد يستطيع تتبعها.

لهوت أنا مع ابنة سهير، كنا نطارد فراشة تحوم على قناني النبيذ الفارغة وأعقاب الخيار والصحون وبقع الطعام على البساط، رائحة النبيذ غلفت المكان، الأجساد والظلال والشجر، كأنها نداء خفيض لجذب مزيد من الفراش الى الجلسة.

قال لها بصوت غاضب، أظنني الوحيد الذي التفتّ إليه: عمتي اتركيني وحدي.

أوقفنا أنا وصديقتي الصغيرة المطاردة وجلسنا نحدق في الوجوه، هي صامتة وأنا سكران.

قالت سهير: السيارة على وشك المجيء، حانت العودة الى المدينة، ما رأيكم لو نمشي قليلاً الى الشارع.

نهضنا بتثاقل، لملمنا بسطنا، جمعنا النفايات في كيس ولبسنا أحذيتنا ثم اخترقنا حقل الريحان بحذر متجهين الى شارع الإسفلت. تطلعت الى الخلف تراءت لي الحقول داكنة فيها أشباح فلاحين وحيوانات وطيور كانت تحلق في سماء كأنها بحر. الضحكات، غمزات العيون، بوح السكارى، حنين الكؤوس المراقة وأجنحة الفراش الملون، كل ذلك لما يزل خلفنا، لابثاً في الهواء، معلقاً تحت شجرة التوت. في الأمام تجسمت الأشجار والبيوت على ضوء الشمس الغاربة، ولم يعد ثمة ظلال، كنا نمشي اثنين اثنين، رفيقي أنا ابن أخت سهير.

سألته: هل استمتعت بالنبيذ؟

قال: لو كان كحولاً أفضل، أريد أن أغيب عن الوعي.

سألته: لماذا؟

قال: السكر حلو في الريف.

رأيت طيف ابتسامة غامضة على شفتيه، ونحن نتكلم عن الفراش وألواح الريحان والبقر والمدينة وناسها وطرق الريف الضيقة المحفوفة بالشجر البري، وعن عمته التي اندمجت بالحديث مع الصحاب. تنبعث من حولنا رائحة لذيذة لنباتات لم نعد نميز أنواعها، ثم انطلقت من السواقي القريبة أصوات الضفادع والصراصير الليلية والحمام.

قال: أقيم حالياً في فندق، أريد الحصول على عمل في العاصمة. تعبت من العيش في مدينتنا الصغيرة، لا أحد لي سوى عمتي.

سألته: لماذا لا تقيم معها؟

قال: أطمح أن أكون حراً في حياتي اليومية، ثم إن البيت ضيق لا يسعنا. أنت رأيته بعينيك.

وصلنا شارع الإسفلت وبدلاً من انتظار السيارة مع الآخرين، اتجهنا الى نار قريبة أشعلها أحد الفلاحين أمام البيت، كان يلقي فيها الحطب والأشياء القديمة، نورها يندلق الى مساحة تصل حتى الجدار، جلسنا على بعد أمتار من اللهب، وإذا به يباغتني بسؤال لم أكن أتوقعه.

قال: ما رأيك بعمتي؟

سكت، حدقت بوجهه، بعينيه المشعتين، بقسماته العكرة المهمومة، وقررت أن أجيبه بترو.

قلت: إنها نشطة ولطيفة، أنا أحترم فيها استقلاليتها.

حدّق في اللهب بعينين ثابتتين، غادرت العكارة تعابيرة وجهه وكشف النور رفيفاً من تأنيب ضمير وانسحاق داخلي، لم أعد قادراً على سبرهما. تركته دون كلام وجلست أتطلع الى النار والظلال المتراقصة على مخزن الحطب القريب وواجهة البيت ورقعة الإسفلت. بعيداً عن النار كانت السيارة الصغيرة تتجه نحو المجموعة، الغروب راح يهبط بخفة على الدنيا.

ظننت أن حوارنا قد نضب وأن سفرتنا انتهت.

قلت له: دعنا نمضي الى هناك.

كأنني أخرجته من جب عميق، أو أضأت له طريقه المعتم السائر فيه دون دليل،

حدق في وجهي وقبل أن نبدأ مسيرنا قال بصوت راعش: دعني أبُح لك بسر عسى أن تساعدني في حله.

قلت له: سأحاول.

قال: أنا واقع في ورطة تخص زوجة عمي، سكت برهة وتابع بالصوت الراعش نفسه، إنها شابة جميلة أوقعتني بالخطيئة.

قلت له: أية خطيئة؟

قال: أغرتني بحبها، وأنا أعرف أن علاقات من هذا النوع محرمة.

قلت له: لماذا لا تتركها؟

قال: بدأت أحبها أيضاً، أو قل أحب جسدها، أنا ضعيف أمامها، ما إن تخلي بي حتى أنهار.

الفراش الليلي كان يحوم على اللهب، أسراب قادمة من الحقول وحظائر الفلاحين، تقترب بعضها من النار فتحترق، طنين الأجنحة لا يرى، وخيالات أرواحنا الطائشة لها نكهة الغروب، وكان الطريق معتماً، والريح غائبة، هسهسة الحطب رحلة طويلة الى الرماد.

لم أعد أعرف ما يدور، إن هي إلا أفكار غير واضحة وظنون. شعرت بالعجز، لا أدري كيف أسدي له نصيحتي. صمتُّ، نهضت، رحت أسرع الخطى للوصول الى الجماعة، وهو يهرول خلفي كمن ينتظر إخراجه من ورطته. ألفيناهم يتسابقون الى الصعود في السيارة، يحشرون البسط والأواني وأجسادهم داخل العتمة.

حشرت جسدي أيضاً، دون أن أنسى باقة الزهور. وضعتها في جيبي بحذر ثم غصت أنا وأفكاري في متاهة الليل. اتخذت قراري في أن لا أرى سهيراً بعد هذه الليلة.

لؤي عبد الإله

سر الأفعى

ستظل خالتي تردد كلما عبّر أحد عن إعجابه بجمالها المتجدد: «بهذه الحقيبة سأهزم الشيخوخة دوماً»، ولم يكن أي من الحاضرين يفسر ما تقوله حرفياً، سوانا نحن الصغار. ستظل أعيننا ملتصقة بالحقيبة المكعبة الزرقاء، مرفوعة للحظات أمامنا، لتختفي من بعد، تحت عباءتها السوداء، المشلوحة على الكنبة جنبها.

تصر أختي، عند استرجاعنا لذكريات الطفولة المشتركة، بأن صفية لم تكن خالتنا، بل هي خالة أمي الكبرى. على يديها وُلد الجميع: أمي، خالاتي، وأبناؤهن، بل ومعظم أبناء المحلة الذين ولدوا بعد الطوفان الشهير. ولأن جميع الأقارب الكبار، الذين عاصروها قد ماتوا أو أصيبوا بفقدان الذاكرة، أصبح بإمكاننا نحن الإثنين التمتع بالاستذكار، وتبديل الأحداث وأمكنة وقوعها كيفما نشاء. وحتى عند الاختلاف على حقيقة هذه الواقعة أو تلك، سننتهي بالتسليم بصحتها. لن نختلف، يوماً، في حقيقة هوسنا بحقيبة الخالة صفية، وكم مرة اقتربنا منها تحت تأثير مغناطيسي غامض، أملاً بملامسة جلدها المتألق تحت أضواء الليوان الشاحبة، لكن نظرات الخالة اليقظة، ستوقفنا في الوقت المناسب، لتبعث الخوف في أنفاسنا، وتجبرنا على الاختفاء بين زوايا البيت.

بين الافتتان بسحر حضورها وبين الرهبة منها، خيط رفيع يتحسسه الجميع؛ في الأعياد يلتقي الأقارب ببعضهم في بيتها، هناك، ستُحل الخلافات بينهم، وتنزاح

الضغائن عن القلوب، ثم تصفو السرائر وتشف، لتندمج في طقوس الذوبان ببعضها، تحت ظلال شجرة العشيرة الدائمة الخضرة: خالتنا صفية. هناك، كنا نراها نحن الصغار، جنية خارجة علينا من حكاية خرافية، بثوبها النيلي، ببشرتها البيضاء، بشعرها الأسود الكثيف، المنسدل حتى منتصف ظهرها، جالسة بأبهة فوق سجادة الكوشان العتيقة، وأمامها يبعث السماور ببخاره، مختلطاً برائحة المستكي والياسمين.

«بهذه الحقيبة سأهزم الشيخوخة دوماً». بين وجوه الكبار المتغضنة بالتجاعيد والخطوط، سيظل وجه صفية صفحة مرمرية، ناصعة، يسخر بإزميل الزمن وقسوته. نسترجع، لماماً، ما كانت تردده جدتي، نقلاً عن أبويها: في ليلة ولادة صفية، ظهرت نجمة، بذيل طويل، ممتد حتى قبة السماء. كان حجم النجمة الكبير وقربها من الأرض، مثيراً للهلع، لكن ذيلها المتألق بنثار الضوء الطباشيري، كان آسراً للأبصار، حتى بدا المشاة كالنيام، مشدودة أعينهم الى السماء، وعلى ألسنتهم آيات الدعاء والاستعاذة.

وكم استبشر الناس بقدوم صفية، حينما ابتدأ ذلك النجم بالانسحاب تدريجياً، والتلاشي بين قرني برج الثور. أكدت جدتي، بأن أحجاراً نارية سقطت من ذيله، أشعلت حرائق مهولة في البلاد، لكنها خلّفت وراءها قطعاً صغيرة، شبيهة بالعقيق والفيروز، تتوهج في الليل كالكهرب، ومن حصل على ثلمة منها أصابه حظ وفير.

«بهذه الحقيبة. . .»، لم تكن صفية قد تجاوزت الثالثة عشر، عندما طلبها تاجر الحبوب، سرحان، من أبيها، ولم يكن ثدياها آنذاك إلا خشفتين ناعمتين، لكن الأرمل العجوز، كان قادراً بعينيه الكليلتين، على رؤية ما تخفيه تلك الملامح الصبيانية، من حلاوة، تنتظر يومها. كانت صفية تأخذ كل يوم طعام الغداء الى دكان أبيها. وكان الأب يراها كأنها ابنه الذكر، وسط بناته الخمس، إذ معها تتجلى كل الصفات التي يتمناها الآباء لأبنائهم: الجرأة، اللباقة، وقوة الإرادة، لكن تقدم ذلك الثري إليها، وضع الأب أمام الحقيقة القاسية: على صفية أن تترك اللعب مع الصبيان، وأن ترتدي العباءة والنقاب فوراً.

لن تسبب خطبة سرحان أي أذى لصفية، بل أمام التردد الذي غمر أبيها، باتخاذ قرار منصف بحق أحب بناته، أظهرت جرأة غير طبيعية: هناك شرط واحد على التاجر تنفيذه؛ أن يساعدها على تعلم القراءة والكتابة.

تؤكد أختي، بأن تاجر الحبوب، كان يمتلك مزرعة وبستاناً واقعين على النهر. وهناك، كانت صفية تفضل قضاء معظم الصيف. في المزرعة، ستنكب تلك الصبية

على مراقبة الأبقار والخيول والخراف، ستتابع دورات حياتها: لحظات السفاد الساخنة، لكل فصيلة، حيل الذكور في التقرب، وردود أفعال الإناث، فترات الحمل، ساعات الولادة القاسية، ومن مساعدة إناث الحيوانات، في إخراج صغارها، تعلمت صفية أسرار مهنة العمر.

كان على سرحان التكيف مع نزق صفية ومزاجها المتقلّب: في النهار، ستقضي وقتها مرتدية ملابس رجال، متجولة على ظهر حصان، أو منشغلة في إدارة شؤون المزرعة، وفي الليل، ستنقلب الى فتاة ساحرة، متمنعة، ومولعة بإبقائه على حافة التلهف المريع.

سيظل ذلك التاجر يطارد سراباً؛ ما أن يألف حياته مع زوجته الصغيرة، ويبدأ بتذوق عطاياها السرية، حتى تغمرها روح التغيير الشريرة؛ الانتقال من المدينة الى الريف، أو بالعكس. ولن تمضي سوى سبعة أعوام، كي تبدأ تجارته وأملاكه بالتلاشي. آنذاك ظهرت عليه أعراض المرض، الذي عجز الجميع عن معالجته: اليقظة الدائمية. في الليل، سيراه الناس، هائماً على رجليه أو على ظهر فرس، ولم يفاجأ أحد حين عثر عليه أحد العسس، طافياً فوق ماء البئر، وعلى عينيه دهشة مثيرة للحيرة.

ستضج الحياة من جديد، في بيت أبيها، وبالنقود التي ورثتها، سيتم تصليحه وتجميله. فوق الباب الخشبية ذات المصراعين، ستعلّق قطعة مطلية بماء الذهب: «قابلة مأذونة»، ومن الداخل ستنبعث الأغاني الشجية، قادمة من أول غرامفون يدخل الحارة.

لم يتوقف عمل صفية عند حدود منطقة معينة، كان الكثير من رجال الأحياء البعيدة، يأتون إليها، حين تظهر أعراض الولادة على نسائهم، مدفوعين بتلك الشهرة التي رافقتها منذ ولادتها، وكم أطلق الآباء اسم «صفية» على بناتهم. في حضورها، كانت تصيب الرجال مشاعر ممزوجة بين الرهبة والانبهار. بالمقابل، بدأت الأواصر تتشكل بين تلك الأحياء المنعزلة، والمعادية لبعضها، تحت تأثير نفوذ صفية الغامض، لتنفتح تدريجياً الطرق بينها.

ولم يكف أبوها عن الافتخار بها، يوماً، مقتنعاً في قرارة أعماقه بأنها تعادل أكثر من عشرة أبناء ذكور. بعد عودتها بفترة قصيرة، أقنعت صفية الأب ببيع دكانه، والتفرغ لحفلات الذكر التي كان مولعاً بها. تحلف أختي، بأنها سمعت كثيراً عن خوارقه المرحة، التي ارتكبها في آخر سنوات حياته: عبور النهر مشياً فوق سطحه، الظهور المتزامن في مكانين مختلفين. . .

حينما نقارن، أنا وأختي، بين جدتي وأختها صفية، نكتشف في كل مرة، فوارق أخرى تفصلهما عن بعض. كانت جدتي، على سبيل المثال، محكومة بخجل عميق، يتجلى في ألوان ملابسها الغامقة، في انكسار نظرات عينيها، في نبرات صوتها الواطئة، بينما تعكس خصائص صفية النقيض المتطرف.

نكتشف، باندهاش، كم كان مسموحاً لصفية القيام بأي فعل محرم، آنذاك، على النساء، كأن الرجال اعتبروها واحدة منهم. ستبعث، يوماً (تحت وطأة نزوة غريبة)، لإمام المسجد الناسك، مع خادمتها، بهدية غريبة: علبة من عسل الجبال النادر، ملفوفة بمنديل مخضل بماء الورد، ولن يأتيها الجواب إلا بعد انقضاء أسبوع: أبيات غزل صوفية، قابلة لأكثر من تأويل، مدروزة بخيوط ذهبية، على قطعة حرير. سيتحدث الكل، بانبهار، عن ذلك الحب العذري، الذي ظل حياً، في ذاكرتهم حتى بعد موت شيخ الجامع، بالسل، بسنوات.

أو حين عادت، ذات مرة، الى بيتها، بعد نهار عمل مضن، حاملة تحت عباءتها وليدة لم ير الناس مثيلاً لها من قبل: عينين بلون الزمرد وبشرة بصفاء الثلج. ستتكاثر الإشاعات، مع بروز ملامح تلك الطفلة الآسرة، أكثر فأكثر، حول أصلها: سيدّعي البعض بأنها ثمرة علاقة سرية بين جني وأنسية، سيجزم آخرون بأن أبويها أوروبيان، فضّلا التخلي عنها، سيهمس قليلون بأنها من صلب القابلة نفسها. لكن صفية ظلت محتفظة بصمتها وبرودها، وكأن شيئاً لم يحدث، ولن يمضي وقت طويل قبل أن يغير الناس رأيهم، ليعتبروا تلك الطفلة هبة سماوية لهم. ستطلق خالة أمي على ابنتها المتبناه اسماً لم تعرفه الحارة من قبل: «وجد القلوب».

تتدارك، أختي، خيط ذكرياتها وخيالاتها، لتتحدث عن ذلك الدرويش، المولع بالسحر والتنجيم، وعلاقته بصفية. ولابد أنها تعرفت إليه عبر بعض زوجات الأعيان. كانت لخالة أمي آنذاك، علاقات واسعة بعوائل المسؤولين الكبار، وغالباً ما كانت تُدعى لحفلات الزواج والختان التي ينظمونها من وقت لآخر. كان أبناء الحي ينظرون الى صفية كسفيرة تمثل مملكتهم المعزولة، إذ عبر صوتها كان العالم يعرف بوجودهم واحتياجاتهم. ولن يتردد أي منهم في الذهاب إليها، إن هو احتاج الى توصية تساعده في الحصول على عمل.

حال لقاء الدرويش بها، ذكر لها اسمها، واسم أبيها، على الرغم من تلفعها بالعباءة ونقاب الوجه، أخبرها عن ماضيها، كشف لها عما يخبئه لها الغيب في أوراقه، وقبل أن

تتركه وضعت ورقة مطوية بين يديه، تحدد له ما كان يجهله حتى ذلك الوقت عن مصيره: «أتمنى أن أجتمع بك على سنّة الله ورسوله». ستسافر صفية مع الشيخ كثيراً، لزيارة الأولياء، المنتشرين في أصقاع الشرق، الأحياء منهم والأموات، ستنغمر معه في تجارب روحية، ساكنة عند حافة الجنون، كان الحاضر، خلال تلك الفترة، يختلط بالماضي والمستقبل في روح صفية: قبل أن تسمع طرقاً على الباب، ستنهض لتفتحه، ذاكرة اسم الزائر، متحدثة عما جرى له قبل يوم أو يومين. وكان على زوجها أن يأخذها الى شيوخ ضليعين في الأسرار الباطنية، كي يعيدوها الى قيود العقل وضوابطه.

سيحتفي الناس بعودتها، بطريقة عجيبة: الذبائح في كل مكان، زغاريد النساء تصدح في الهواء، صواني الشموع الطافية فوق النهر. تنذهل صفية لما تركته سنوات الفراق على وجوه الأقارب والجيران من ندوب وحفر، بل وحتى البيوت والشوارع بدت لها هرمة، تغفو فوقها طبقات الغبار. مقابل ذلك كان الآخرون يتمعنون في وجهها باندهاش، فكأن الزمن تحرك باتجاه معاكس معها: ها هي تعود إليهم أكثر توهجاً، وأكثر شباباً من قبل.

حين فتحنا أعيننا، أنا وأختي، على عالم الكبار، كانت «وجد القلوب» شابة، تقيم في حي مجاور مع زوجها وطفليها، وكم كان عسيراً على من يلتقي بها برفقة صفية، اكتشاف فارق العمر الحقيقي بينهما.

لم يتوقع أحد حضور صفية، في ذلك المساء الموحش، إذ ظل المطر يهطل، بجنون، طيلة ساعات النهار، ليجبرنا، نحن الصغار، على المكوث في البيت. كان الكل جالساً في الليوان، عندما رفعت ستارته السميكة الفاصلة عن الحوش، وكم بث حضورها المفاجئ في شراييننا بالبهجة. قالت معتذرة إنها لن تبقى سوى دقائق، فعند باب البيت ينتظرها الحوذي. كانت في طريقها الى حفلة عرس، فقررت أن تعرج علينا قليلاً. ومع إلحاح الكبار جميعاً، رمت بعباءتها، وحقيبتها، وتناولت قدح الشاي من أمي. وفي لحظة نهوضها للمغادرة، سمعنا طرقاً عنيفاً، قفز أخي الأكبر، واندفع صوب الباب الخارجي، ليعود بعد لحظات شاحبا؛ هناك رجل يطلب إسعاف زوجته التي حضرها المخاض. عبست صفية، قليلاً، لملمت نفسها بصمت، ثم قالت لأخي بحزم: «اصرف الحوذي»، ثم التفتت الى أمي سائلة إن كانت ترغب في مساعدتها

هل هي المفاجأة وحدها التي جعلت صفية تنسى حقيبتها فوق الكنبة؟ كانت الريح

الهائجة سبباً في انقطاع الكهرباء. أشعلت جدتي الفانوس، ثم راحت في إغفاءة عميقة، على إيقاع ثرثراتنا وضحكاتنا المتواصلة، وكاد النوم يسرقنا إليه، لولا التماع الشرر المنعكس فوق حقيبة صفية أمام أعيننا، وللحظة واحدة. نهضنا ببطء ووجل، وكأن الفكرة حضرت إلينا، في آن، للتسلل نحو الحقيبة الغامضة وفتحها، خشخشتْ بين أصابعي قطع معدنية، توقفتُ عند جسم صغير لدن، وحين سحبته، واجهتنا محفظة صغيرة مصنوعة من جلد الأفعى. بعد لأي تمكنّا من فتح السحاب القصير، وعند قلبها سقطت قطعة ملتمعة صغيرة واختفت بين خيوط سجادة الكوشان الواسعة.

بين الماضي واسترجاعه تسكن حقيقة زئبقية أخرى، تتبدل في كل لحظة، وتمنح لحياتنا الداخلية تنوعاً لونياً خصباً. كان بإمكاني رؤية هذه الحقيقة، طافحة فوق عيني أختي، المنفعلتين، وهي تسرد هذه النهاية، التي أشك بكل عمق في صحتها: كانت تلك القطعة حجراً كريماً، جعل الليوان مضاءً بنور أزرق ضبابي. منذ زمن طويل كانت تسكن بين خشب السقف أفعى كبيرة، تتحدث معها جدتي، من وقت لآخر، وكأنها فرد من العائلة. وفي لحظة بحثنا عن الحجر المفقود، برزت أمامنا الأفعى رافعة رأسها بغضب، مما جعل الدماء تجمد في عروقنا، ولن تمضي سوى ثوان كي تقتنص ذلك الكنز من بين وشائع الزريبة العتيقة، وتهرب كومضة برق، تاركة وراءها جلداً متآكلاً.

بعد انقضاء الليل، وانفتاح بواكير الفجر على حدود العتمة، عادت خالة أمي، منهكة. وكم فوجئنا بالشيخوخة، المفزعة، التي زحفت إليها خلال ساعات غيابها الأخيرة.

مؤيد عبد الستار

فنجان قهوة

تناثرت حبات المطر بعنف وضربت أرنبة أنفه رغم قلة المطر المنهمر، فالرياح تصفر في سماء روزنكورد منذ ليلة أمس، إنها تجعل المطر يضرب كالسهام ذلك الجزء من الوجه المختفي خلف قبعة فرنسية زرقاء حجبت جبهة الرجل المتوجه الى المدرسة.

حاول دس رقبته وحنكه في لفاف الرقبة الذي لفه بإحكام ولكن قطرات المطر الباردة كانت تلسعه بين آونة وأخرى.

أسرع الخطى فقفزت أمامه حمامة ابتل جناحها فاختبأت خلف صندوق القمامة الحديدي. كان عليه أن يصل الى المدرسة التي لا تبعد عن سكنه سوى ثلاثة كيلومترات، إلا أنها بدت اليوم بعيدة جداً، وشعر للحظة أنه سوف لن يصلها، لقد بدا تعباً أكثر من أي وقت مضى. استطاع أن يغذ السير بفرح حين شاهد أطفال الروضة التي في طريقه يمرحون ويتأرجحون في الأراجيح وهم يرتدون ملابسهم الملونة وأغطية رؤوسهم الصوفية المزركشة. نظر إليهم بحنان طفولي وأكمل طريقه.

حين دلفت الى المدرسة فضّل الصعود الى الطابق الرابع بالسلم بدلاً من المصعد الكهربائي رغم كون السلم لا يتميز بأية ميزة مغرية، فما هو إلا سلم يلتف كالأفعى، ومع أنه نظيف جداً إلا أنه لا يحمل سوى رائحة المواد المنظفة المشبعة بالكلور. . . أين من هذا السلم ذلك السلم الذي كان يفضي الى سطح دارهم الطيني؟ سلم مشيد باللبن

والجص الأبيض يفوح بعطر التراب الخالد حين يرشه الجد صيفاً بالماء الذي ينثره من إبريقه الفضي قبل صلاة المغرب...

وقبل أن تستغرقه رائحة البيت القديم وجد نفسه لاهثاً أمام الرقم (٤) الذي يشير الى الطابق الرابع حيث بدأ يدرس اللغة السويدية منذ بضعة أشهر.

ظن لأول وهلة أن صعوده السلم ينفعه في التغلب على آلام الظهر التي أخذت تزداد مع ازدياد البرودة في فصل الشتاء، وقال له أحد معارفه إن الرطوبة العالية هي التي تسبب آلام الظهر، بينما علق آخر مشيراً الى الثلج قائلاً إنه هو الذي يسبب الآلام، آلام الظهر وآلام الروح، أين نحن من هذه البلاد الباردة، ألا لعنة الله على ذلك اليوم الأسود الذي جاء بنا الى هذا الصقيع...

ـــ شدعوه يابه، ليش ما عدنا ثلوج بالعراق؟؟ علّق أحدهم وكان يحتسي القهوة. حين شاهده يرشف القهوة بنشوة، غلبته الرغبة في تناول فنجان يشربه، فنجان قهوة يبعث الدفء في الأوصال المقرورة ويفتح الدماغ...

ـــ يا دماغ... أكو دماغ بعد هذا العمر من القهر؟؟

بحث في جيب معطفه الرمادي عن قطع النقود اللازمة، أخرج عدة كرونات، اختار منها ثلاث كرونات بيضاء وبدأ يلقمها الماكنة واحدة إثر الإخرى، وبين كل كرونة وأخرى كان أبو حليمة يحدث نفسه بحديث متقطع لا يتبينه إلا من يقف قريباً منه. سمعته يتنهد ويدمدم قائلاً: ايه أيتها الماكنة، أتعلمين أية قهوة أريد؟؟

إن قهوتك لا تناقش، ولا تخضع لرغبة الزبون الذي يدفع النقود، إنك اخترت القهوة التي تقدمينها إليه، أتحسبين ما تبيعينه لنا قهوة؟ لا والله، سم زعاف، زقنبوت... ولكن مع ذلك سأدفع لك ما تريدين، وسأشرب...

حين سمع الرجل الواقف الى جانبه شيئاً من هذا الهمس تدخل ضاحكاً: اشرب أخي، سقراط شرب السم قبلك بألف عام... بقت عليك!!

لم يعره أبو حليمة أي اهتمام فكأنه لم يسمع تعليقه، ألقم الماكنة آخر قطعة نقدية، وله الآن أن يختار ماذا يشرب، ضغط على زر القهوة، ثم ضغط على زر السكر، وتوقف هنيهة مفكراً: أأضغط على زر الحليب؟ هل أشربها بالحليب؟ لا، لست معتاداً على شرب القهوة مع الحليب، كان أبو عامر يعدها لي سادة، وأحياناً مع شيء من السكر، شكرليه، أبياه... طعمها مازال تحت لساني... إنك لا تعرفين أبو عامر، كان أبو عامر يقدم لي القهوة صباح كل يوم حين أفترش التخت الذي يتصدر مقهى

المصبغة على شاطئ دجلة، كان يعرف مزاج وذوق كل رواد المقهى، ماذا يفضلون وماذا يشربون. . . كان يعرف من يشرب القهوة سادة ومن يشربها مع السكر، من يشربها مرة ثقيلة ومن يشربها رائقة، يا لطعم تلك القهوة المعطرة بالهيل. . .

أبو عامر الله يخليك أريد قهوة خفيفة، لم أستطع الإفطار صباح هذا اليوم، أحس فمي جافاً، لقد سمعت أخباراً مزعجة يوم أمس.

ـــ أعرف. . . أعرف زين أبو حليمة، كلنا نسمع هذه الأيام أخباراً مؤلمة، يوم أمس طوقوا محلتنا واقتادوا أكثر من خمس عوائل في سيارات الزيل العسكرية، يقولون إنهم سيرمون بهم على الحدود، الى الذئاب، تصور أبو حليمة، حملوهم مع أطفالهم. . . من يستطيع الاحتجاج على الحكومة. . . من؟؟

ـــ سأزيد لك ملعقة سكر في القهوة تعوضك عن الفطور. . .

أبو عامر كان حريصاً على مداراة دلة القهوة، يداريها بهدوء حذر كي تصل الى درجة الغليان في اللحظة المناسبة، كانت قهوته تنعش الروح، حين أشربها أنتعش وأصعد الى فضاء فسيح أحلق فيه بلا أجنحة، أما أنت أيتها الماكنة، فستبقى قهوتك ماء أسود لا غير، ولكن مع ذلك ليس لي إلا أن أشربها. . .

السويد

محسن الرملي

عيون

[الى الذي فقد عينه في غيابي.. . أخي حسين]

سألت القادم من قريتي الى مدريد عن أهلي فقال: «أغنامهم زادت وصغارهم كبروا. . .». طلبتُ منه أن يوطّن إجاباته المحلقة فسارع الى وضع سلّة التمر ــ التي بعثوها ــ أمامي وألقم جهاز التسجيل شريط ربابة من أمي. توسلتُ به فتنهد وقال: «سأخبرك وأخلص. . . حسين. . . أخوك. . . (ما به؟) فقد إحدى عينيه. . . (كيف؟ أين؟) شظية في اشتباكات جنوبية. قالت ربابة أمي: «يا عين أمطري دمعاً. . . طوال الدهر يا عين». جرى دمعي على وجنتيّ وسقط فوق التمر. تذكرت لقاءنا الصدفوي في اشتباكات شمالية قرب عين كاوه، أيام جنديتي، حين ترجل من مدرعته جوار دبابتي دامي الوجه فتعانقنا وسط الدخان والغبار وصخب التحارب الجنوني. . . تعانقنا. . . كعناق في يوم قيامة وقال: «لا تبك. . . إنها مجرد شظية صغيرة في الحاجب». . . قالت أمي: «معلولة وعلّتي من قدمي الى هامتي. . . كأن ربي قد خلقني مخصّصة للهموم». دمدمتُ لنفسي أخاطبه: «هذه المرة. . . أصابت عينك». قال القادم. «عينه الأخرى سليمة». أخذتُ سلة التمر وشريط الربابة لأنطلق راكضاً على امتداد شارع Ferraz متحاشياً النظر الى مئات العيون المحمولة الى دور السينما والمراقص بمناسبة السبت. يا عيني اسكبي دمعاً/ دماً حتى تلاقيهم. . . دفعة واحدة. . . أنتبهُ

الآن لتوالي انطفاءات عيون أحبتي من حولي، فتهطل عيناي بمسكوبهما... عزلة أو خجلاً من صحتها والقلب ينقبض، يراوده التوقف... هكذا مثل مصابيح حفلة تدنو من نهايتها؛ أخي وأصدقائي، أما التي أحبها فهي بعين واحدة منذ أن كانت بارتفاع زهرة الباميا حين فقأ ديك الجيران عينها في آب. أواصلُ الركض متناسياً قوانين إسبانيا الجديدة المنسجمة مع تحضّرات الاتحاد الأوروبي. أمر جوار المعبد الفرعوني الذي أهداه عبد الناصر لإسبانيا (وكأن معابد الفراعنة ملك أبيه...!). أعبر الجسر بين ساحة إسبانيا والقصر الملكي (عيون المها بين الرصافة والجسر، جلبن الهوى من حيث أدري ولا أدري). أضم التمر والشريط الى صدري وأضاعف الركض... كأني أسعى الى التعجيل بإيقاف انسحاب عينيّ صديقي خلف نظاراته الطبية. انعطفتُ بمحاذاة مبنى مجلس الأعيان، مستعيناً بفتح فمي على الصعود الى مسكننا في الطابق الرابع. وصلتُ لاهثاً وكان صديقي كعادته: يقرأ في «أساطير بلاد النهرين» قرب النافذة. صحتُ به وأنا ألهث: «عبدو... هيا انزل معي الى طبيب العيون». رفع رأسه وأزاح نظاراته ليرمقني بنظرات مستنكرة، أدركتُ منها بأنه يُذكرني بحيرتنا هذا الصباح في الاستدانة لدفع إيجار الشقة. قلت له وأنا أشير الى أعلى مكتبتنا؛ حيث نرفع نموذجاً مصغراً من الفخّار لملوية سامراء حملناه معنا من بغداد حين غادرناها قبل سبعة أعوام: «نبيع الملوية في سوق الحرامية». فاضت عيناه. أعاد نظاراته وعاد الى قراءة «أسطورة الفيضان». توجهتُ الى الهاتف واتصلت بصديقي الضائع في ثلوج القطب الشمالي الذي انطفأت عينه في آخر رسالة بعثها لي: «منذ أسبوع، استيقظت لأجد نفسي بعين واحدة. قال الأطباء لا علاج لها... جلطة عينية». قلت: «أترك الشعر الذي فقأ عينك». قال: «فقدنا العراق فهل نأسى على فقد عين أحبته...» أغلقتُ السماعة وانفتح الصدى في القلب (عيناك يا بغداد أغنية... يُغنى الوجود بها ويُختصرُ/ لم يُذكر الأحرار في وطن إلا وأهلُكِ فيَ العُلى ذُكروا)... شاخصة أبصارهم، ترهقهم المنافي... اصبروا وصابروا فإن مصيركم العودة الى بلد من نهرين وعيون، تحيتكم فيها من دون بلاد العالمين (شلونك عيني). توجهتُ الى بيت حبيبتي المغربية، أحث الخطى خجلاً من عيوني أو سارقاً بها النظرات الى عيون المارة، راغباً بسرقة عيونهم: الزرق، الخضر والسود لأمنحها لأخي، لأصدقائي، للمعري وواحدة لحبيبتي (من أجل عين تكرم ألف عين). قبّلتُ عينها الكريمة حال وصولي فقالت: «أهي حلوة حقاً؟» مستندة في سؤالها على ما أخبرتني

به سابقاً عنها، حين كانت في ربيعها الرابع وحملتها أمها الى بيت الجارة، أجلستها على بساط في الظل جوار شجرة بامياء مزهرة في شمس آب، وتوجهت كي تعين جارتها في توليد بقرة أسترالية. جاء ديك جميل ونقر إحدى عيني طفلتي فصرخت، وسالت عينها. جاءت أمها بالعجوز الطبيبة، لحّاسة العيون في القرية من رمل وتبن وحديدة أو شعرة. ارتابت أمها وهي ترى العجوز تطيل اللحس مستطعمة ما سّال منّ العين بتلذذ. وظل ارتيابها يعصرها كلما قابلت العجوز التي تنحني من فورها مقبلّة العين الأخرى، ولم تسترح حتى ماتت اللحاسة بعد عام... كررتُ تقبيل عين حبيبتي فكررت عليّ السؤال: «أهي حلوة حقاً؟». قلت: «حلوة... حلوة الى الحد الذي يؤجج خلاياي رغبة في الحياة».

مدريد
١٩٩٨

اصـدارات وردتـنـا

المدى: العدد (٢٢)، وقد ساهم فيه كل من: سعدي يوسف، بثينة شعبان، قاسم البريسم، جان بيير فرنان، أبو العيد دودو، محمد حسين الأعرجي، طالب الرفاعي، هوشنك الوزيري، برهان الخطيب، عدنان محمد، كينزابورو أوي، فهان كيركوس، صباح رنجدر، مهدي محمد علي، إدريس عيسى، أحمد مشتت، سالم محسن، علي عوض الله كرار، عبد اللطيف السعدي، فاروق أوهان، أحمد عبد الحسين، روجيه أفيرميت، هادي المهدي، محسن الرملي، طاهر البني، شاكرّ الأنباري، ادوار الخراط، هبة الله الغلاييني، هـ.غ، زهير الجزائري، لوحة الغلاف للفنان سعد يكن، الفوتوغراف للفرنسية آن ديلانو، تخطيطات العدد: كفاح محمود.

محمود البياتي

قصتان

احتفال

انفتح الباب. دخلت وداد مجللة بمنشفة وعلى ثغرها ابتسامة وسؤال عريض:

ـــ كم سنة وشهر ويوم وساعة ودقيقة مضى على حبنا؟

ـــ بُممم... وانفجر الكومبيوتر!

ضحكا. صعدتْ السرير بخفة لتندس تحت الغطاء الى جانبه. فاحت منها رائحة صابون كرستيان ديور. قالت بدلع وهي ترى المنفضة:

ـــ أين سيجارتي؟

ـــ تحولتْ الى رماد.

أوشك أن يضيف: نحن سنتحول يوماً، مع الحاضر الراهن، الى رماد، لكنه سكت. خشي أن يشيع كلامه الكآبة في جو غير مناسب. ارتكز على المرفقين وزحف بقفاه الى الخلف ليتمكن من الجلوس فيسهل عليه أخذ سيجارة. قالت:

ـــ ناولني الكاس أيضاً.

ـــ تفضلي سمو الملكة.

اتخذت هي الأخرى وضع الجلوس، مسندةً ظهرها العاري، الأملس، الى وسادة ريش. قالت كطفلة ماكرة:

ـــ لا أحد يعرف سوانا بهذا الحب.

ـــ يرهقني ذلك.

شرب كل ما في كأسه، وأضاف:

ـــ لكم بودي البوح بحبنا.

ـــ لمن؟

ـــ لصديق واحد على الأقل.

ـــ أنا كذلك أحتاج الى من أبوح إليه.

ـــ ربما يوسف...

ـــ أجل. إنه عاش تجربة مماثلة.

ـــ وهو كتوم.

أزاحت المنشفة عن رأسها وتنهدت:

ـــ متى أستطيع التمشي معك يداً بيد في شارع فاتسلافسكي؟

ـــ اليوم.

ـــ لا أمزح. أريد أن تعرف براغ كلها أنني أحبكَ؟

وضع كاسيت فيروز في المسجل وهو يبتسم:

ـــ عندئذ سيقتلني المعجبون بك.

ـــ تستحق (قرصتْ أنفه) أنت الوَحيد الذي أفلح في نيلي.

ـــ وستمزق قصص كثيرة كتبت عنك، وقصائد، ورسوم، وصور فوتوغرافية...

ـــ أما أنا فسيتهمونني بالجنون لأنني اخترت أصعب رجلين، أحدهما كزوج والآخر عشيقاً. كل واحد منهم أشطن من الثاني.

خفض صوت المسجل وعلق بتردد:

ـــ أتدرين؟ يخيل لي أحياناً أنني أحب صارم أكثر مما تحبينه أنت.

ـــ وأنا أحب نسرين أكثر مما تحبها أنت. إنني أحبكما بالقدر نفسه. لا أستطيع الاستغناء عن أحدكما. هذه مشكلتي.

ـــ المشكلة هي العلم بأننا نرتكب خطأ غير قابل للتصحيح.

دفعت الغطاء عن صدرها وأخذت رشفتين من الكأس:

ـــ إذا ارتكبت خطأ لا يمكن تصحيحه، إنساه.

ـــ من قال هذا؟

ـــ أنتَ.

ـــ لا. أنا قلت إن كولومبوس اكتشف العالم الجديد عن طريق الخطأ.

سحبتْ آخر نفس من السيجارة وسحقتها في المنفضة:

ـــ لا أصدق أنني أنا وداد خنت أعز صديقة لي.

ـــ إنني مستعد لأن أخون الوطن من أجلك.

ـــ تكذب. وهذا لا يشرفني على أية حال.

نفخ دخان السيجارة باتجاه السقف وصبَّ كأسين جديدين:

ـــ كيف ساقنا القدر من العراق الى مدن كثيرة حتى نجتمع هنا ونتعارف؟

تأمل لوحة تزين الحائط أمامه: عشّ محكم البناء عند ملتقى أغصان متشابكة لشجرة سرو. قال:

ـــ إنني أحلم به دائماً يعاملني بمودة، أو يسدد لي نظرات عتاب، أو يتجاهلني. . . أتظنين أنه سيتفهم ملابسات الموقف ويغفر؟

ـــ لا. لا أدري.

فكّر بتغيير مجرى الحديث. بعد قليل سيدركهما الوقت. سألته:

ـــ لماذا يقطب مليكي الجبين؟

رد ساهماً وكفه تعبث بشعرها الندي:

ـــ ما إن نتذوق السعادة حتى تتلاشى مثل قطعة سكّر.

ـــ أنت قطعة سكر. لي فقط. أو شيء منك إليها كذلك.

أشعل شمعة حمراء مغروسة في فوهة زجاجة، وقال بيأس:

ـــ أنا مر وحزين.

ـــ معي وحزين؟!

ـــ حزين من فرط السعادة.

رفعت يدها:

ـــ قف. لا تخدعني. فسّر قصدك.

انبطح على بطنه فصارا متقابلين:

ـــ سيأتي يوم يا وداد لا أرى فيه وجهك هذا، بل أتذكره فحسب. أتذكر هذا الفم، هذه الأسنان، هذه الشامة. أتذكر فقط. بينما أرى الآن كل شي، ألمسه بشفتي، أشمه، أقبّله.

قبّلها بعنف وشهوة:

ـــ هذه اللحظات الملتهبة ستغدو جزءاً فاتراً من الماضي.

ـــ ماذا؟

ـــ الماضي تأريخ للمستقبل.

ـــ قبّلني ولا تتفلسف.

ضحك وقلب الكاسيت فانبعث صوت فيروز خافتاً. قال:

ـــ عندما أريد أن أتذكرك بالبيت أسمع فيروز، وبخاصة الأغنية التي أهديتيها إليّ في عيد ميلادي: سهار بعد سهار. . .

ـــ أنا أتذكركَ مع كل أغنية لفيروز. الكلمات، الموسيقى، الألحان، تغسل الروح.

قبّلته من شحمة الأذن والشاربين وسكنت. شعر برموشها الكثيفة تلامس حاجبه وهي تطبق الأجفان وتفتحهما ببطء. كان شذى الزفرات طيباً. وفجأة تبلل خده. أدرك أنها تذرف الدموع:

ـــ لماذا؟

ـــ من السعادة.

قبّل العينين الدامعتين فأحس بطعم مالح.

ـــ لا. لا تقبّلني من عيني.

نهرته برقة وأضافت:

ـــ القبلة من العين تفرّق.

وبعد برهة قالت باستنكار: ـــ أتُعد هذا احتفالاً؟

ـــ لم نحتفل بعد.

ـــ هيا إذن.

سينما

لوس أنجلس ـــ أ ف ب:

تفوّق «المريض الانكليزي» على الأفلام الأخرى في حفلة توزيع جوائز الأوسكار الأربعاء ٢٦ آذار ١٩٩٧. يروي الفلم الذي وصف بأنه «ملحمة رومانتيكية» قصة حب جارف في الحرب العالمية الثانية تكشف خيوطها بالتدريج ممرضة كندية (جولييت بينوش) في غمرة معالجتها لجريح فاقد الذاكرة (رالف فينس). وعبر تداعيات متقطعة تتضح هوية «المريض الانكليزي» المشوه. فهو أرستقراطي وباحث آثار مجري يدعى

لازلو دي المازي، عاش قصة حب مجنونة مع زوجة أحد رفاقه (كريستين سكوت توماس).

طوى الجريدة:

ـ لمناسبة عيد زواجنا السابع أدعوكِ مساء اليوم الى السينما.

ـ وأخيراً.

ـ ثم نشرب النبيذ في مكان ما ونرجع لمواصلة الاحتفال بالبيت.

ـ موافقة.

مضى الزوجان الى حانة ايفاسبولن بعد انتهاء الفلم. أخذا من البار قدحي بوشوليه وجلسا يدخنان عند نافذة تشرف على شارع آفنين.

ـ يا له من وغد.

قال الزوج. تململت الزوجة في كرسيها ولم تعلق. أعقب بامتعاض:

ـ إنه بلا ضمير.

ـ تعتقد؟

ـ طبعاً. وإلا كيف يقع في غرام زوجة رفيقه؟

ـ لكن الوقوع في الغرام لا علاقة له بالضمير أو العفاف.

ـ لا؟

سأل باحتجاج. أجابت:

ـ لا. الغرام الصادق ورطة.

ـ انتظري. هل أنت مستعدة للوقوع في غرام بيتر؟

ـ لا (وأضافت باستخفاف) هه. بيتر.

ـ أترين؟ الضمير يمنعك. . .

قاطعته

ـ هيا نذهب.

ـ لم تردي.

ـ على ماذا؟

ـ أليس الضمير هو. . .

هزت الأكتاف:

ـــ ربما بيتر لا يعجبني.

ـــ ما قصدك؟

ـــ لا شيء.

ـــ ها أنت تتهربين من الرد كالعادة.

ـــ انظر. الغرام الحقيقي. . . إنه دائماً هكذا. . .

ـــ لا أفهم.

أوضحت بتلكؤ:

ـــ إنه يحدث. لا أدري كيف. هكذا بدون قرار.

ـــ وأين الإرادة؟

ـــ تتعطل.

شرب ما في القدح وأعاده بعنف الى الطاولة:

ـــ في الحلم فقط تتعطل الإرادة وتلغى الحدود.

ـــ الغرام كالحلم، لا يكترث بحدود الواقع ومحرماته.

نهضتْ. رد بحدة وهو ينهض:

ـــ هراء. يجب الامتثال لمبادئ المجتمع.

ـــ حتى لو اقتضى ذلك التضحية بمصدر سعادتنا الوحيد؟

ـــ دون أدنى شك. وأنت مخطئة يا عزيزتي لو ظننت العكس.

ـــ وأنتَ دائماً على صوابٍ يا عزيزي.

صارا في الخارج. تأبطتْ ذراعه وهما يعبران باتجاه محطة الترام.

غاتنبورغ ١٩٩٧

نجم والي

فالس مع ماتيلدا

ما بقي عندي من هذه القصة: بدلة كاريبية بيضاء وقبعة بَنَميّة وشريط تسجيل واظبت على حمله في الجيب، على يسار قميصي، عدا ذلك حذاء ابيض لولا إضاعتي له أثناء الرحلة لكان أكثر ملاءمة للحُلة التي أرتديها الآن.

لابد أنه كان الخريف، في شهر أكتوبر بالذات، فلا يمر عادة ربيع طويل على البصرة، وإلا فما كان إرتداء هذه الملابس ممكناً إلا في فصل معتدل كهذا. وربما كان ذلك العشرين من أكتوبر لأني كما أتذكر الآن، سمعت جملة من ماتيلدا، جملة ما زالت تطن في أذني لحد الآن: «اليوم أكملت الثلاثين من عمرك، عليك الرحيل من هذه المقبرة!».

كانت وحدتنا قد جاءت إلى البصرة قبل ذلك التاريخ بسبعة وعشرين يوماً. لم نُرسل مباشرة إلى الجبهة كما حصل للجنود الآخرين، فبطريتنا كانت تختلف عن تشكيلة البطريات الأخرى ومهامها. كنا في الحقيقة تجميعاً لرعائل الأنواء الجوية، تلك الفصائل الجديدة التي نشأت بعد الحرب. وبما أنه ـــ ربما ـــ لم يُستخدم السلاح الكيمياوي حتى تلك الأيام، فقد أبقوا علينا في المدينة، إلى حين مجيء المناسبة الملائمة لإستخدامنا.

كانت البصرة مكتظة بالوحدات العسكرية تلك الأيام، بحيث أنهم لم يجدوا مكاناً لنا لا في القاعدة البحرية ولا في معسكر ابو القاسم، مثلما لم يبغوا إرسالنا إلى القاعدة

الجوية في الشعيبة أو الزبير. يقيناً، كانوا يريدون إبقاءنا قريباً من شط العرب ومن الحدود، لذلك أسكنونا في شارع الوطني، في أحد الأقسام الداخلية التابعة لجامعة البصرة، والتي كان يسكنها غالباً قبلنا الطلبة العرب الذين اختفى القسم الكبير منهم بعد إندلاع الحرب، أما الباقي منهم فقد أرسلوا إلى الأقسام الداخلية الجديدة التي بنوها للطلبة قرب مدينة كرمة علي.

هكذا، كان بيننا وبين طرف البصرة الآخر عَبارَةٌ فقط، تقطع الشط العريض كل ربع ساعة في أوقات عدم وجود القصف. وعند ذلك الصوب — صوب التنومة — لا تبعد الحدود بعدها أكثر من عشرين كيلومتراً. ولكن تلك كانت جغرافية ما قبل الحرب، إذ بعد إندلاع المعارك بدأت الجبهة عند جهة شط العرب من ناحية الكورنيش مباشرة، بهذه الصورة كنا مفصولين عن الجبهة فقط بخندق ماء وسخ، ممكن إجتيازه سباحة إذا إستدعى الحال.

في تلك الأيام إعتدت زيارة ماتيلدا. كنت أعرفها منذ أيام الجامعة وكنا نأتيها أنا وصديقي البغدادي ملهم بعد نهاية الدوام عصراً، أو ننزل إليها من القسم الداخلي مباشرة، لكني هذه المرة لم أستطع زيارتها إلا عندما تكون البطرية قد ذهبت لإجراء تمارينها وإستطلاعاتها. كنت أبقى مع سبعة جنود آخرين. كانوا يطلقون علينا إسم «خفرقاعة»، لأن مساعد البطرية — بعد إطلاعه على ملفاتنا التي جاءت من مديريات أمن مدننا — كان يعتقد بأننا — بالتأكيد — نشكل خطراً على الجيش العراقي إذا ما استلمنا السلاح، ولم يعرف ماذا يفعل معنا، حتى خطرت في ذهنه فكرة تسليمنا تلك المهمة. كنا نحن «العظماء السبعة» — كما أطلقنا على أنفسنا — نبقى نحرس قاعتين كبيرتين حيث كان ينام الجنود، وصالة خاصة لنوم الضباط. وكنت إذا ما أنتهى واجبي، أغادر المكان دون أن يلحظني أحد منهم. كانت ماتيلدا بشكل ما، سري الخاص، حتى في الليل لا يستطيع الجنود النزول إليها، لأن الضباط كانوا يشربون الخمرة هناك كل ليلة. كنت أنسل إليها كل نهار بين الساعة الثانية عشرة والساعة الثانية. أضرب على الزجاج ضربتين قويتين، ثم واحدة خفيفة، لتعقبها ثلاث أخرى خفيفات. حينها تزيح الستارة الحمراء، وعندما تتأكد من أنني أنا القادم، تفتح الباب فادخل حانتها التي لا تُفتح في النهار عادة.

كانت ماتيلدا قد دخلت في الستين من عمرها على ما أعتقد، فيما دخلت أنا للتو الثلاثين. وكما قلت: كان لابد أن يكون شهر تشرين الأول، وبالذات في العشرين منه

لأنها كما أتذكر، هي التي قررت الإحتفال بعيد ميلادي قبل إسبوع من ذلك، قالت لي:

ـ ألا تذكر، كان صديقك ملهم هو الذي أوصاني ذات مرة بجلب زجاجة شمبانيا.

ضحكت، ثم أكملت: ـ قال لي من أجل الإحتفال بعيد ميلاد صديقنا العنيد الأرعن.

بالفعل كان ملهم يفاجأني بالكثير من الأشياء. وقضية عيد ميلادي لم تكن قد خطرت على بالي مطلقاً لولاه هو الذي ذكرني بالمناسبة تباعاً. فأنا لم أذكر ذلك إلا مرة واحدة وفي حضوره عندما إقترحت ماتيلدا مازحة إعتبار الأول من تموز عيداً وطنياً للعراقيين جميعاً بسبب تدوين هذا التاريخ الموحد في بطاقاتهم الشخصية، حينها علقت، وفي ذهني فقط رد الإعتبار إلى جدي، مفتش التمور في مديرية تمور البصرة الذي لم يرتكب في حياته سوى حسنة واحدة هو تسجيله اليوم والشهر والسنة، بل والساعة التي وُلدت بها في دفتره الخاص، الذي كان يحمله في جيب سترته طوال كل سنين حياته: يوم الأربعاء، العشرين من أكتوبر، الساعة العاشرة وثلاث وثلاثين دقيقة. حينها كما أتذكر ايضاً علقت ماتيلدا التي إعتدنا على مزاحها: ـ هل كان جدك جالساً بين فخذي أمك وفي يده ساعة رياضية؟

كانت ماتيلدا تتحدث اللغة العربية الفصحى معنا، التي تعلمتها كما تدعي بسهولة. ولكن في حالات تصاعد الخمرة في رأسها تبدأ بالتداعي باللهجة البصرية، التي لو تُرك الأمر لها وحدها لتحدثت بها فقط، ولكنها كما تقول تتحدث الفصحى بأوتوماتيكية منذ أن بدأت تسمع بعض التعليقات التي كان يُثيرها الوزراء في حضور زوجها في الخمسينات، وتحذيراتهم له من الإنحياز الكامل للبصرة. كان زوجها وزير التمور في الأربعينات وهو الذي جلبها معه بعد أحدى رحلاته إلى اليونان، أثناء الحرب العالمية الثانية. بالرغم من معرفتها بالقصص الكثيرة التي تدور حول قدومها إلى العراق، إلا أنها لم تشأ حكاية القصة لنا كلها دفعة واحدة. كانت تحكيها لنا بتقطيع مشوق، أمر جعلنا نعتقد بعض الأحيان أننا نعيش في عالم متخيل.

هكذا نسج أهل البصرة القصص الكثيرة عنها، بل أن جدتي ذهبت في ظنونها إلى حد القول أنها هي وليس غيرها، بنت الفلاح التي خطفها الإنكليزي والتي رجعت متزوجة من وزير! ولكن جدي كان يسخر من ذلك، بينما لم يكف هو نفسه من رواية القصة لي بأكثر من مناسبة. كان كعادته يتذكر اليوم والساعة والشهر والسنة، فلقد ظل أميناً لمهنته كمحاسب حتى في الأمور التي ليست لها علاقة في المحاسبة. هكذا، كان قبل أن يروي قصته يستل دفتره الصغير من جيب سترته ويقرأ التاريخ. في ١٨ أبريل

١٩٤٥، في الساعة التاسعة وسبع عشرة دقيقة، كان على مفتشي التمور الثلاثة، الذين كانوا يعدون عدد صفائح تمور الدرجة الأولى المخلوطة مع اللوز والجوز والذاهبة إلى الصين وبريطانيا العظمى، أن يتركوا شغلهم ذلك اليوم، ويغادروا فاركونات المحطة العالمية للسكك الحديد، حيث إصطفت الصفائح، وأن يذهبوا إلى بناية المديرية الكائنة في المعقل، ليشرفوا على أطباق التمور واللبن التي يعد تقديمها للزوار، وايضاً ليكونوا ضمن وفد إستقبال الوزير وعقيلته. في ذلك اليوم الربيعي — يقول جدي — رأينا شابة في العشرينات من عمرها، متوسطة القامة، نحيفة بشكل رقيق، عيناها سوداوان كبيرتان، تتأبط ذراع الوزير الذي لبس بدلة بيضاء، وقبعة بَنَميّة وأحذية بيضاء. كانت الشابة تحمل مظلة بيضاء حجبت في الأول شعرها الأشقر الغامق اللون الذي قصته بشكل قصير — يقول فيه خيط حموضة! — «تشبه شعر فريدا غابو» يضيف أبي (عاشق السينما)، مواضباً هو الآخر على إضافة جملته المحببة كلما سمع جدي يروي القصة، أمر كان يحمل جدي على التعليق «بطل من هاي غابو، عبالك مكتشف البنسلين».

بغض النظر عن ذلك لم يُقصر جدي بوصف جمالها وهو يقسم على أن عينيها كانت مليئة بسحر لم يره إلا مرة واحدة في حياته، في عيون حورية بحر ظهرت لهم في الخليج عندما كانوا يصلّون صلاة المغرب فوق الباخرة، في طريق رحلتهم إلى مكة، وإلا — إذا ما عبرت عن شكي لما يقوله — ماالذي جعل إذن من طاسة اللبن الثانية — التي طلبت منه أن يقدمها لها، لأنها أحبت اللبن والتمر الذي أُعطي هدية للوفد — تسقط من يده عندما تطلع إلى عينيها وهو يمد الطاسة لها.

في ذلك اليوم بالذات كانت قد مرت على زواج الإثنين سنتان، وبهذه المناسبة نظمت المديرية إحتفالاً لهما. تلك الليلة شربا ورقصا التانغو والسالسا كثيراً، ولم يعرف آنذاك إلا القليلون بأصل تلك الرقصات وإلا لتكهنوا بإصولها منذ البداية. بغض النظر عن أنها هي التي كانت تتعمد — ربما — إثارة الغموض عن أصلها، فهي تصر أمامنا على القول بأنها مواطنة عالمية، وأنها غادرت قريتها ماكوندو المحاطة بملاعب الدلافين منذ زمن بعيد. ولكن المواطنة العالمية قررت مصيرها تلك الليلة بشكل ما وسمحت لنفسها بإختيار البصرة هذه المرة للبقاء إلى الأبد، ولأنها تعبت من الرحيل (كما إعترفت لنا ذات مرة). ففي منتصف الليل، يروي جدي — لم تشأ ماتيلدا رواية تلك الأحداث على الإطلاق — إستيقظ زبائن فندق شتورا، حيث كان ينام الوزير وزوجته — على صراخ ماتيلدا. وعندما حضر الناس إلى الغرفة وجدوا الوزير ميتاً. تشريح الطبيب يقول أنه

أكل الكثير من التمر تلك الليلة ولأن نسبة الكولستروول عالية عنده لم يستطع جسده ـــ هو الرجل الخمسيني ـــ التحمل ـــ بالرغم من لا معقولية السبب لأن التمر لا يحوي على الكولستروول ابداً ـــ في اليومين التاليين دُفن الوزير في مقبرة الحسن البصري في الزبير. بقيت ماتيلدا إسبوعاً كاملاً نائمة عند قبره، ولتفاجئ الجميع بقرارها الذي هو: البقاء في البصرة. إشترت بالإرث الذي حصلت عليه الحانة المقابلة لحانة ماري والمواجهة لملهى الوطني. لا تعلق ماتيلدا على القصة عندما أحكيها لها بأيما تعليق، تُجيبني فقط على سؤالي لها «لماذا قررت البقاء في البصرة؟»:

ـــ عشقت البصرة، حب من أول نظرة حبوبي.

وعندما لا أترك ذلك بسهولة تجيبني هذه المرة: ـــ انا مواطنة عالمية والبصرة هي ماكوندو الشرق.

فاسألها:

ـــ اعتقد أن ماكوندو غير موجودة إلا في ذهن الكولمبي ماركيز؟

تضحك وتقول:

ـــ ماكوندو هي التي خلقت ماركيز وليس العكس.

ثم تحدق عيناها في البعيد، البعيد وتضيف:

ـــ اليست البصرة حقيقة؟

فاسألها مرة أخرى:

ـــ لذلك تحبين البصريين؟

حينها يلتمع في عينيها شيء ما يشبه الدهشة:

ـــ البصريون فيهم الكثير من روح الكاريبي، كُتب عليهم الرحيل، إن لم يركبوا البحر، فهم بحارة جوالون فوق الأرض.

ثم تصمت وتضيف:

ـــ تنقص المدينة فقط الدلافين لتصبح مدينة كاريبية.

بدا لي أن حكاية الدلافين ربما تكون أكثر القصص خرافية، على عكس ما بدا لملهم الذي أصر على حقيقة القصة. وقبل أن تبدأ ماتيلدا برواية القصة، تُخرج صندوقاً صغيراً لترينا مجموعة جميلة من الصور التي جمعتها. أقول لها: ـــ الصور هي حقيبة ترحالك.

فتجيبني:

ـ بل هي خلاصة حياتي.

وفي أكثر من واحدة منها رأينا صورة رجل ببَدلَة كاريبية بيضاء وقبعة بَنَميّة وأحذية بيضاء:

ـ بابلو.

قالت مشيرة له:

ـ هكذا رقدنا بعد أن رقصنا على أنغام الكوينتا نا ميرا.

كانت هي ترقد في الصورة بجانبه بزي تلك المرأة التي لا أدري على أي لوحة رأيتها.(ربما على أحد لوحات غوغان؟). سمراء طويلة شعرها أشقر غامق وضعت عند جانبه الأيسر وردة صفراء. كانا يرقدان متلاصقين، يضحكان وفوقهما إمتدت سماء زرقاء صافية، تعانقت نهاياتها مع بحر مترامي الأطراف، حيث إرتفعت في أماكن متباعدة منه بعض الموجات الصغيرة، فيما بدت اشجار الجوز المنتشرة عند الشاطئ متمايلة، ملقية أغصانها إلى الجانبين، حيث إستسلمت تحت جسديهما رمال سمراء إحتضنت فوقها ورود بحرية بيضاء.

ـ ما هي الكوينتا نا ميرا؟

سألتها، فأجابتني:

ـ أغنية كوبية في الأصل، يخاطب فيها الحبيب حبيبته الكاريبية.

أرتنا ماتيلدا أكثر من ثلاثين صورة لها مع بابلو، بدت في جميعها سعيدة فيما كان وجه بابلو يشع سعادة هو الآخر:

ـ بابلو جاء من إسبانيا بعد إندحار الجمهورية.

هكذا كانت هي الحبيبة الكاريبية وكان بابلو الإسباني الجميل الذي جاء إلى ماكوندو محملاً بإندحاره.

تصمت قليلاً، فترى إندهاشنا فتقول:

ـ في الحقيقة جاء إلى الجزيرة، كما قال لي لاحقاً، ليلتحق مع الفلاحين المسلحين.

تضع الصور في الصندوق، ونرى على وجهها حنيناً ولهفة واضحين:

ـ ذات مرة طارده الجنود ليلة كاملة. تتبعوه من قرطاجة الهنديات، حتى حاصروه عند ضواحي ماكوندو، حيث ملاعب الدلافين. عند تلك المنطقة وبالذات في ليالي إكتمال البدر تخرج أنثى الدلافين إلى الساحل في البحث عن الرجال الجميلين.

تضحك، ثم يصبح صوتها أكثر جدية:

ـــ تلك الليلة كنت أنا عند ضواحي ماكوندو. كانت رائحة البحر مازالت تعلق بمساماتي عندما رأيته بالبَدلَة الكاريبية البيضاء والقبعة البَنَميّة والحذاء الأبيض.

عندما قالت تلك الجملة أدارت لنا ظهرها، وكأنها منشغلة في وضع الصندوق على أطراف الكوميدينو التي إنتصبت عند الحائط. ولكن لقول الحقيقة لم تكف تلك الرائحة البحرية تنبعث من ماتيلدا ابداً.

هكذا كانت ماتيلدا تأخذنا معها إلى عوالم لم نعرفها أبداً. ولمَ لا؟ إذ عندما كنا نأتيها أنا وصديقي ملهم، كان زمناً آخراً. لم تكن هناك حرب، لم يكن ملهماً أسيراً، لم أكن أنا جندياً في رعيل الأنواء الجوية، بل كانت البصرة في بهاء لياليها، وكان ملهم يَدرس الأدب الإنكليزي منشغلاً ببايرون وييتس وكولدريج، وأنا أدرس الأدب الإسباني منشغلاً بلوركا وماتشادو والبيرتي، مثلما كانت حانة ماتيلدا تكتظ بالبحارة القادمين من كل أنحاء العالم. بكلمة واحدة أقول: كانت خمارتها هي مركز العالم بالنسبة لنا، قبل أن يلفنا الزمن بدوامته ويُلقي بكل واحد منا إلى زاوية. لست أنا الوحيد من كان يفكر بذلك، إنما كانت هي أيضاً. فعندما كانت تتحدث عن تلك الأيام، يستيقظ كل شيء دفعة واحدة، وكأن ماجرى حدث بالأمس ولم تمر عليه عشر سنوات على الاقل، بل وكأنها تصر على ألا تهرم.

ـــ نحن كبار السن فقط بالنسبة للآخرين.

فأقول لها إنها لم تتغير كثيراً. تهز رأسها وتضحك وتقول لي:

ـــ شكراً على مجاملتك. لكنك كنت دائماً تختلف عن الآخرين.

لم أقل ذلك مجاملة. بالفعل هي لم تختلف كثيراً، وخاصة ما يتعلق بشخصيتها. هكذا عندما تفتح لي باب الحانة وأدخل، تقول: ـــ إدخل حبوبي!

تلفظ تلك الجملة مثلما تفعل كل مرة، تعرف أنني أعشق تلك «الحبوبي» البصرية. كنت أجدها بصدرية المطبخ، شعرها مبعثر، وكأنها نهضت من النوم للتو، في يدها سكين المطبخ، فيما ارتكن عند طاولة البار أناء كبير يحتوي على خيار مقشر وطماطة مقطعة وبطاطة مقشرة. وعلى خشبة أمامها كانت تقطع البصل. وللأمانة يجب القول، أنها دائماً توقف عملها لدقائق عندما آتي، وتخرج لي من الجرارة التي تحتها زجاجة من المشروبات التي صنعتها هي بنفسها. كل شيء غير العرق: ـــ العرق مشروب الإنتحار العراقي الأبدي.

تقول لي مازحة، مشيرة إلى تعليقي الذي قلته أمامها لملهم في المرة الأولى عندما

جئنا إلى حانتها، ومنذ ذلك الوقت تعرف أنني لا أشرب العرق. ربما لم اواظب على زيارتها تلك السنوات رغم معرفتي أنها تمتلك مشروبات خاصة، تلك التي يجلبها لها أصدقاؤها البحارة من كل العالم أو تلك التي تصنعها بنفسها من العنب أو من التمر.

ــ نسجله على الحساب؟

تسألني مازحة، تذكرني بأيام إفلاسي الابدية. تضع لي قدحاً صغيراً فوق الطاولة، فيما تضع قدحاً آخر لها. تسكب بعضاً من المشروب فيهما. دائماً لا تشرب قدحها طالما أنا أشرب، إنما تكتفي بضربه بقدحي وتقول «صحة» في كل اللغات:

ــ ياماس، سالوتة، سالود، جيرس، بروست، لخايم.

كانت الـ«لخايم» تأتي في النهاية دائماً، فتقول لي: ــ أعرفك شاباً طيباً يختلف عن الباقين.

حينها يكون بإمكاني إحتساء كأسي الأول، فيما تستمر هي بتقطيع البطاطا أو الطماطة. لا تشرب قدحها إلا عندما تسمع اصوات الكتيبة قادمة من البعيد وهي تهتف «ياجند زين القوس سلم على القسطل، قل له جئنا، جئنا ولم نرحل»، فتعرف أنه وقت رحيلي. حينها تُشغل المسجل على كاسيت التسجيل الذي أهداه لها ملهم في بداية الحرب «فالس مع ماتيلدا». ترفع قدحها وتضربه بقدحي، نشرب بصمت وبسرعة. يلفنا حزن سري مشترك يختلط فيه غياب ملهم، ومجيء الكتيبة.

فتقول:

ــ لقد تعبت من هذه الأغاني الحقيرة.

فأمازحها قائلاً:

ــ جملتك تستدعي الإعدام، مثل تلك اللخايم.

فتجيب بعد أن تخرج آهة:

ــ هل هناك إعدام أكثر من عقوبة سماع هذه الأغاني.

كانت ماتيلدا تقول ذلك بأسى، فيما لم تخف رغبتها في ترك كل شيء هذه المرة:

ــ لقد تعبت. تبدل كل شيء. ما عادت حانتي هي الحانة وما عادت البصرة ماكوندو.

كانت تلك اللازمة التي تختم بها حديثها كل مرة. هكذا كانت تجري أيامنا، لا شيء غير إستعادة قصص الماضي، وهل بقي لنا شيء غيره؟ كانت هي التي تتكلم أكثر مني، تشكو من الوضع بجملتين أو ثلاث فقط، لكنها لم تبد رغبة في الرحيل وبدت كأنها

صامدة أمام ما يجري، أو أنها كانت تكافح لكي تُبقي ــ بعناد ــ ما تبقى عندها من إصرار. هكذا بدا لي الأمر على الأقل، حتى جاء اليوم الذي أباحت لي أنها ما عادت تطيق:

ــ سأرحل، ماعدت أطيق الضباط في حانتي، ماعدت أطيق أصوات البساطيل تضرب على الشارع، قصف المدفعية، تحليق الطائرات.

شعرت بحزن يستحوذ علي، حزن كانت تراه بسهولة على وجهي، فتقول وهي تصاحبني حتى الباب «ربما عليك أنت ايضاً الرحيل، غداً سيكون عمرك ثلاثين حبوبي»، فأهز رأسي حيرة. عندها تضربني على كتفي، وكأنها تعرف ما يدور في ذهني فتقول لي «تُفكر في ملهم؟»، ترى حيرتي فتقبلني على وجنتي وتضيف: «انك شاب طيب يختلف عن الآخرين، مثله، أنتما الإثنان من طينة مختلفة ولكن بروح واحدة، هو الآخر كان يريد أن يرحل». ثم تقول وكأن فكرة جنونية خطرت على ذهنها، «عندي لك شمبانيا خاصة، وغداً نحتفل بعيد ميلادك». أخرج فتصاحبني كلمات الأغنية، حتى وصولي إلى القاعة، وقبل أن تهجم علي أناشيد الكتيبة:

فالس مع ماتيلدا،
مخرباً جريحاً أنا...
لست أكثر من ضحية بريئة لعصبة عمياء
أنني تعب من كل هؤلاء الجنود هنا
لا أحد يتكلم الإنكليزية وكل شيء تهشم
ومشاعري منقعة بنشوة السكر
من أجل فالس مع ماتيلدا
إرقصي معي الفالس ماتيلدا
إرقصي معي الآن...

وصل ملهم قبلي إلى البصرة، وكان هو تابعاً إلى بطرية الصواريخ. في الواقع، كانت وحدتهم قد عسكرت في الفاو. ذات يوم إدعى أنه مريض بمرض لا يُمكن معالجته إلا في المستشفى العسكري في البصرة. ولحسن حظه كان الطبيب الذي فحصه آنذاك شاباً خريجاً، إكتشف تمارضه وصارحه ضاحكاً «قل لي أسباب نزولك، بسبب إبنية؟»، فضحك ملهم حكى له بصراحة أن بوده زيارة ماتيلدا وإعطائها «هذا الكاسيت»، الذي أخرجه من جيبه. فرحت ماتيلدا كثيراً عندما رأته. «هل تعرف إنكما تختلفان تماماً عن باقي الطلاب والجنود، لا أعرف لماذا»، قالت لي عندما أسمعتني اللحن للمرة الأولى،

فأجبتها مازحاً «ربما لأن خالة ملهم شاعرة مثل نازك الملائكة، أما أنا فقد حدثني جدي عنك». تضحك، وتقول لي، «بالرغم من أنكما مختلفان، إلا أن فيكما ما هو مشترك، شفافية غامضة». حينها نبدأ في الحديث عن الأيام الخوالي بنوستالجيا. في الحقيقة كانت هي التي تتحدث عنا أكثر. بل كانت تترجم كلمات الأغنية دائماً لمعرفتها أن لغتي الإنكليزية بسيطة لا تساعدني على فهم موضوع الإغنية تماماً، وعندما تمزح معي قائلة «ملهم يعرف الإنكليزية أحسن منك»، أقول لها «أنا أحسن منه في الإسبانية»، فتتذكر لغتها الأم التي لم تشر لها أبداً والتي كنت متيقناً منها «آلا HALA». فاقول لها «لا أحد يقول هذه الـ «آلـ آلا» إلا من تعلمها منذ الطفولة»، فتسألني بجدية لا تخلو من بعض السخرية الممتزجة بالألم «وأنت من أين تعرف؟»، فأجيبها «ماتيلدا، تعرفين أنني خريج إسباني، وملهم خريج إنكليزي!»، فتعلق، بعد أن تُطلق آهة «إسمعني الآن بتركيز وقل لي فيما إذا كان ما تقوله صحيحاً». فأصغي. حينها تمسك بذراعي وكأنها تهيؤني للمشهد القادم فتردد:

فالس مع ماتيلدا.
أنا ضحية بريئة لعصبة عمياء
الكلاب تنبح في الخارج
وسواق التاكسيات يقفون وقتاً طويلاً
قدر ما يستطيعون. . .
ومن خلف ستارة شباكك يتسرب الضوء. . .
الضوء لرقص الفالس، ماتيلدا
فالس ماتيلدا
هل تودين رقص الفالس معي ماتيلدا. . .

وحين تبعث الإغنية فيّ الكثير من الأسى ـــ وإن لم أعرف كلماتها التي تقولها بالضبط ـــ أعرف أن ما قلته مجرد ترهات. أعترف لها. فتقول لي «أنس»، ثم تبدأ في الحديث عن الإغنية وتاريخها و عن توم ويتز، «هل تعرف أنها في الأصل، أغنية السكان الأصليين الأستراليين. كان المواطن الأصلي ـــ قبل أن يدخل الإنكليز ـــ يرحل وعلى كتفه حقيبة التجوال. وعندما يستريح في الطريق يضرم النار ويبدأ بالغناء لماتيلدا التي هي في الحقيقة حقيبة سفره».

اسألها فيما إذا كانت هي الكلمات ذاتها التي نسمعها الآن فتقول لي «كلا». حينها

تبدأ بغناء الكلمات الأصلية. فأسألها: «ما إختلافها عن الإغنية الحديثة؟»، فتقول لي أن «مغني الجاز الأبيض توم ويتز أعاد صياغتها لتتحدث هذه المرة عن الجنود القادمين من حرب فيتنام»، حينها أصارحها بشعوري بأن الإغنية تتحدث عن كل الجنود. فتجيبني «لذلك أهداها ملهم لي»، نصمت، فتقول لي سراً بخجل.

ـــ «هل تعرف في المرة الأخيرة كان هنا، قبل أن يرحل رحلته الأخيرة ويختفي. . .»، صمتت قليلاً، ثم اضافت «طلب مني أن أرقص معه الفالس. . . قال لي أنه ماعاد يُطيق وقرر تسليم نفسه إلى الأسر». شربت بقايا الكأس الذي أمامي. وقلت لها هل يُمكن إعادة الإغنية لنرقص معاً؟ حينها فتحت ذراعيها، مدت جذعها الأعلى من فوق الطاولة التي تفصلنا، قبلتني على وجنتي وقالت:

ـــ «لك عندي أغنية أخرى سنرقص على أنغامها معاً».

حدث ذلك في يوم لقائنا الأخير. كان خداها متوردين عندما قالت تلك الجملة تورد خداها، فيما إلتمع في عينيها بريق ما يشبه بريق عيون المراهقات. إرتدت إلى وضعها السابق، حيث جلست بمواجهتي، دفعت بيدها اليسرى لترفع صوت المسجل، فيما راحت يدها الأخرى تُعدل من وضع الوردة الصفراء التي إستقرت عند الجهة اليسرى، بين خصلات شعرها الأشقر بلون غامق.

ـــ هل يعجبك ثوبي، لبسته خصيصاً لعيد ميلادك اليوم!

كانت تلبس بَدلَة زرقاء طرزت فوقها حمائم وأمواجاً وورودا بحرية بيض. هزّت رأسي، ودفعت بكأس الشمبانيا ـــ ربما الأخير ـــ من الزجاجة الأولى التي إستقرت على الطاولة أمامنا.

ـــ سنقتل الزجاجة الثانية!

قالت ذلك وهي تُخرج زجاجة أخرى من البراد.

ـــ سنشرب اليوم كل ما لدينا من مشروبات، فالبار محجوز لنا وحدنا هذا اليوم.

ضحكت وتذكرت اللوحة الصغيرة التي علقتها عند الباب «البار مغلق بسبب وعكة صحية بسيطة». فقلت لها وأنا أشرب الكأس الجديد بسرعة: ـــ نعم، نشرب كل شيء اليوم حتى العرق.

كان لابد أن يكون صوتي حزيناً، عندما قلت تلك الجملة، لأنها توقفت عن شرب كأسها الذي كان قد إستقر بين شفتيها، نظرت لي، فأخفضت نظري: ـــ لا تقل لي مثله أنه يومك الأخير هنا! قالت لي.

ماتيلدا ذات الحدس الذي لا يخيب عرفت أننا على وشك أن نغادر. لقد لاحظت كيف أنني جئت إليها في تلك الظهيرة «مُخَرِباً وجريحاً» بصورة غير عادية. هززت رأسي بالإيجاب، فيما راحت أصابعي تمسد القدح الذي إحتضنته كفاي. صبت لي كاساً جديداً.

ـــ إستلمنا كتاب التحرك. سنغادر.

حينها نظرت لي برقة وقالت في الأسبانية «Tienes el carino de Pablo فيك رقة بابلو». لم أعلق، لأنني كنت أعرف أنها هي التي ستتحدث هذه المرة. لبرهة ظلينا صامتين، نشرب كأسينا ونسمع توم ويتز، حتى رأيتها تتحرك فجأة خلف البار، بإتجاه غرفتها. إختفت لتظهر بعد دقائق تحمل في يدها حقيبة صغيرة مصنوعة من جذوع الأشجار. وضعتها فوق الطاولة. نظرت لي، ثم فتحت الحقيبة لتخرج بَدلَة كاريبية بيضاء وقبعة بَنَميّة وأحذية بيضاء. قالت لي: ــ هذه بَدلَة بابلو، مازلت أحتفظ بها، هدية لك في عيد الميلاد.

دفعتها لي: ـــ خذها. إلبسها هذه الليلة، فهي تجلب الحظ.

أخذتها منها.

ـــ لم يشأ بابلو لبسها تلك الليلة عندما كنا في ميناء بيرييوس.

لم أفهم ما كانت تعنيه وإعتقدت أنها هلوسة من هلوسات الخمرة التي كنا نعبّها، حتى تذكرت القصة التي روتها لنا عنهما.

كان بابلو قد فر بعد فشل ثورة الصيادين والمهربين في ماكوندو وقرطاجة الهنديات إلى اليونان. حملت هي الإخرى حقيبته الصغيرة المصنوعة من جذوع الاشجار وعبرت المحيط معه. خمسةَ عشر شهراً كان يقاتل إلى جانب قوات الأنصار ضد الملكيين المدعومين من القوات الإنكليزية، وكانت هي تتنقل معه على طول اليونان وعرضها. لا يهم، فهي شخصياً لم تقاتل، إلا أن رفاق بابلو كانوا يصرون على مصاحبتها لهم، لأنها تجلب الحظ معها أينما ذهبوا «مثل إناث الدلفين»، كما كانوا يرددون على سمعها. ذات يوم جاءها بابلو قائلاً أن رفاقه قرروا إرساله إلى إيطاليا ليقاتل إلى جانب الأنصار في «سانت ريمو». لم تفهم هي هذه الأمور، ولكنه قال لها، أن أصله الإسباني يساعده في التحرك بحرية في المناطق التي تحت سيطرة الحكومة الإيطالية، لأن إيطاليا وإسبانيا كانتا حليفتين أثناء الحرب. على اية حال أرادت أن تتبعه مرة أخرى، وهي ستتبعه حتى نهاية العالم، فـ«هذا هو قدر إنثى الدلافين عندما تحب»!. كان الميناء في فوضى لا تُصدق تلك الليلة، نتيجة قصف من دول المحور. وكان عليهما

أن يصلا إلى باخرة حمولة أجنبية ستمر بإيطاليا. لكن تلك الرحلة لم تتم، لأنهما فقدا بعضهما في الزحمة. لم تيأس ماتيلدا، لكنها كما يبدو صعدت إلى باخرة أخرى، حتى وجدت نفسها في باخرة محملة بالتمور. وعندما إنتهى القصف. وقفت وفي يدها الحقيبة الصغيرة، ورجل أنيق فيه ملامح كاريبية يقف أمامها، ظنته في الأول أمريكياً لاتينياً، وكان عليها أن تنتظر وقتاً آخراً حتى تعرف أنه وزير التمور العراقي. سألها بإنكليزية ــ لم تفهمها في أول الأمر ــ عما تفعله هناك. فحكت له القصة. إبتسم الرجل، وقال لها أن الوقت متأخر لتغيير مجرى الأمر الآن. لأن الباخرة كانت قد تحركت. فلم تجد جملة أخرى تسأله بها غير فيما إذا كانت الباخرة تتوجه أيضاً إلى ميناء معين. فأجابها:

ــ «البصرة».

طلب منها الرجل بأدب أن تصاحبه إلى إحدى الكابينات. هكذا تحركت من مكانها وفي يدها الحقيبة التي كانت تحتوي على صندوق الصور الصغير وعلى البَدلَة الكاريبية البيضاء والقبعة البَنَميّة والأحذية البيضاء التي حملتها معها في كل الرحلات.

منذ حكايتها القصة لم تكف ماتيلدا عن التأكيد، أن عدم لبس بابلو للبدلة والقبعة والحذاء هو الذي ألحق بهما الشوؤم تلك الليلة.

ــ ولكن الوزير كان يلبس البَدلَة ذاتها عندما مات.

قلت لها مازحاً.

فترد، مثلما كانت ترد على جملتي دائماً:

ــ آخ حكاية جدك. . .

ثم تُخرج آهة:

ــ إنساها، وخذ البَدلَة.

كنت مستعداً لفعل كل شيء، فقد كنت أعرف أمراً واحداً فقط، هو أنني لن أصعد إلى القسم الداخلي مرة أخرى.

وكأن ماتيلدا تعرف مايدور في ذهني قالت:

ــ في الحرب لا ينفع غير الهرب أو الأسر.

فقلت بعناد الأطفال أو ربما بسبب الخمرة التي سرت في دمي:

ــ وهل أخذ ملهم البَدلَة الأخرى؟

فعلقت:

ـ كان على حق عندما دعاك بصاحب الرأس العنيد.

ثم أضافت، وهي تلمس صدغي بأحد أصابعها:

ـــ لا تفكر بشيء الآن غير الرحيل. عليك الخروج من هذه المقبرة.

إبتسمت وأكملت:

ـــ هذه الليلة يأتي بابلو، أحد البحارة الأرجنتيين، صديق قديم جاءت باخرتهم قبل أيام، حمّلوها بالتمر اليوم، وسيغادرون الفجر.

كنت أصغي إليها بصورة مركزة. ولكن يبدو أنني شربت كثيراً ما جعل رأسي يدور. يقيناً أنها لاحظت ذلك.

قادتني إلى غرفتها الخلفية: لم أر المائدة المستديرة التي إستقر فوقها صحن مليئ بالأناناس وجوز الهند وفواكه كاريبية أخرى، لم أر السرير الحديدي القديم والذي علقت على حدائده، عند رأس المخدة الحريرية التي إستقرت فوقه، صور القديسين والدلافين البيض، لم أر صور الموانئ التي عُلقت هناك، بومباي، برشلونة، اللاذقية، طرابلس، ليماسول، بومباي، بورتو، أغادير، قاديش، مارسيليا، ليفربول، هامبورغ، كاب شتات، ساو باولو، بورتو أليغرة، كارتيخينا دي لاس إندياس، روتردام، ولا صورها مع بابلو بالبدلة الكاريبية والقبعة البنمية والأحذية البيضاء التي ملأت الحائط هي الأخرى، بل لم أر بوسترين كبيرين لماكوندو. كلا لم أر كل ذلك، بل لم اشعر بماتيلدا تضعني على السرير، مثلما لم أسمعها تقول لي، «سأوقظك عندما يأتي بابلو، من أجل الرحيل». كنت شبه مخدر، بخمور ماتيلدا، برائحة جوز الهند، بالرائحة الكاريبية التي انتشرت في المكان. وبصوت الغرامفون الذي ارتكن قريباً من السرير، والذي شغلته قبل خروجها:

ـــ كوينتا نا ميرا. . . وا بيا. . . كوينتا نا ميرا. . . وا بيا. . . كوينتا نا ميرا. .

كأن الإغنية تأتي من البعيد، البعيد، فيما رأيت من نافذة صغيرة إنفتحت فوق رأسي، بوضوح جزيرة صغيرة سابحة بالضوء، عامت الدلافين لاعبة عند شواطئها، ولاحت سعفات نخيل اشجارها تهتز مثقلة بالجوز أمامي، فيما كانت أحدى إناث الدلفين تقترب من مكاني، حيث إستقرت إلى جانبي أمرأة خلاسية ملتصقة بي في قعر باخرة محملة بالتمر، وأنا مستلق بالبدلة الكاريبية والقبعة البَنَميّة والحذاء البيض.

فلورنسا

أوائل حزيران ١٩٩٦

يوسف أبو الفوز

الصحن

رغم الظلام الذي يلف الحجرة، تلمس طريقه الى الدولاب الخشبي، بعد أن غادر سريره بمشقة. مد أصابعه التي لم تلتئم جراحها بعد، جراء لعبه بالنار، وتحسس درفة باب الدولاب الموصدة. مع الظلام كانت تهوم في الحجرة روائح ألفها. خليط من روائح الدواليب المتراصة بما تحويه من أكياس الخضار المجففة وعلب التوابل والأعشاب المختلفة. استنشق كل هذا ووضع يده على مقبض الباب وسحبه بهدوء، فانفتح وسط فرحة بعثت النشاط في خلاياه. مدّ يده الثانية بثقة لم يعهدها في نفسه، عرفت اليد حالاً المكان الذي يرقد فيه الصحن. ما إن لامسه بأصابعه حتى سرت في جسده رعدة ارتجفت لها أضلاعه. قبض عليه بقوة أثارت شعاعاً من ألم في كل قبضته الصغيرة. في الظلام، تحسس طريقه ليغادر الحجرة والصحن بين كفيه. كل ما تمناه لحظتها، أن تنتهي خطواته بسلام دون سقطة أو عثرة أو ارتطام بحاجز ما، أن يستطيع الوصول والصحن الى المكان الذي يرغب فيه، هناك في آخر الحديقة، حيث جداره الحبيب الذي تعلم المشي بالاستناد إليه، جداره الذي حين تلامسه أصابعه يشعر بالقوة تدب في ساقيه فيقف منتصباً. قبل أيام كان أهله يتحدثون عنه، اختلط كلامهم بعبارات ود وإعجاب وحذر، لمس ذلك في عيونهم ونبرات أصواتهم.

كانت جدته العجوز أكثر المحذرين من شقاوته، وهي التي تضع الصحن بعيداً عن متناول يده. وها هي الدار له وحده الآن! العجوز نائمة. الآخرون مشغولون بشأن ما، حاولوا إرغامه على النوم بوضعه في سريره الذي صنعوا له عوارض خشبية ليحدّوا من حركته، لكنه من يوم رؤيته الصحن وهيامه يزداد. لم يعد يرى شيئاً سواه، صار يراه في عيون الآخرين، في ألوان ثيابهم، في أصواتهم، في ضياء المصابيح، في كل الأشياء الحية. كان صحناً خزفياً مستديراً، مزيناً بنقوش غريبة، هذه النقوش تثيره أكثر من غيرها، أخذت بلبه، كل يوم يراها بشكل مختلف. كم من مرة ضبطوه يسترق النظر للصحن غافلاً عن كل ما يجري حوله؟ كم من مرة خبط بقدميه وكفيه، وكم من دموع سكب مطالباً بالصحن؟ كم من مرة مد أصابعه الناعمة إليه فتلقى ضربة قوية أو خفيفة تمنعه من لمسه؟ اليوم رآهم حين وضعوا الصحن في الدولاب الصغير، انتظر حتى هدأت الحركة في الدار، فتسلق العوارض الخشبية لسريره. سقط للخلف. عاود ثانية. فشل! وأخرى، ففشل. أصابه شيء من عناد زاد الألم في أصابعه حتى طفرت له دموعه وعبَر العوارض وتدحرج على أرضية الحجرة، وها هو الصحن بين كفيه. خطر له أن يختلي به بعيداً عن العيون، وفي ظلام الحجرة كان قلبه يدق بعنف حتى غادرها لتملأ أذنيه أصوات غريبة تأتيه من الجوار، من الشرفات المطلة على دارهم. نقل قدميه على مهل وهو يعرف أن عيوناً تراقبه، لكنها عيون غريبة، فلم يحفل بذلك. كان مزهواً بصحنه، ها هو بين كفيه متوجهاً نحو جداره الحبيب وروائح طيبة تغمره، تملأ له صدره، جعلته ينقل خطواته بسرعة أكبر، سيصل الجدار، جداره الأخير، سيسند ظهره إليه. يجلس هناك، يستظل به، صحنه بين كفيه، يتملاه، يعيد لنفسه تشكيل زخارفه بشكل آخر، بحيث يجد فيها ليس مجرد نقوش، بل عوالم حية من عيون وشفاه وأجنحة وأغصان، تحدثه ويحدثها. سار باتجاه الجدار، خطوة، خطوتين، عشر، و... شيء لزج صار تحت قدميه فجأة، شعر بنفسه خفيفاً.. خفيفاً، ضعيفاً، وريش القلب يتطاير في الهواء، لاإرادياً امتدت يده للجدار، جداره الذي تعلم المشي بالاستناد إليه، جداره الذي يمنح ساقيه القوة لتحملاه، جداره الذي طالما استند إليه وحلم بالصحن، بعوالم غريبة تشكلها له زخارف الصحن، لكن

الجدار فجأة صار خيوطاً من هواء! كيف حدث هذا؟ كيف نأى عنه الجدار؟ كان قريباً منه على مدى ملامسة الأصابع! كيف لهذا الشيء اللزج الذي ظهر فجأة تحت قدميه أن يجعل الجدار يصير بهذا البعد؟ كيف يمكن لعثرة أن تجعل الجدار ينأى هكذا؟ أترى أن الجدار خشي قيح الأصابع، أم أن ذلك فعل العيون الغريبة؟ في القلب غصة. في الأصابع ألم. العيون الغريبة مليئة بالتشفي وهي تراه «منسدحاً» في الوحل وحوله يتناثر هشيم الصحن. لم يصدر صوتاً. عض على شفتيه. شيء ساخن يسيل على وجنتيه، يمر بطرف الفم فيحس بملوحته، رنا الى الجدار بنظرة وأخرى، ثم وبأصابع مرتجفة يشتعل فيها الألم راح يلم نثار الصحن.

هلسنكي ١٥/١١/١٩٩٥



فكر علمي
ثقافة تقدمية

السعر عشرة دنانير